

توماس كارليل مؤلف كتاب الابطال

كلمة المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فهذا كتاب الابطال وعبادة البطوله وضعه الكاتب الاشهر. والفيلسوف الاكبر . توماس كارليل . وعربه كاتب هذه الكلمات وطبعه السيد الشريف الشيخ عبد الرحمن البرقوقي الكاتب الاديب صاحب القلم والقرطاس . والفلاح الزارع رب المحراث والفاس الذي رأى ان هنالك شيئا خلاف الارض يزرع فيثمر فمال منذ برهة (وليست اول مرة) الى ثرى الصحيفة فامطرها غيث المداد وبذر بها حب القرائح فانبتت روضة غناء يدعوها الناس « مجلة البيان » ورأى ان هنالك غير الآبار شيئا يستنبط فعمد الى اللغة الانكليزية فشق بحد اليراع متونها عن خير ينبوع من الحكمة انجس ففاض فتدفق اسمه عند البريطان Heroes and Hero-worship ونسميه نحن الابطال وعبادة البطولة . وهو ذاك الذي تحمله الآن يدك الكريمة أيها القارىء

والسيد عبد الرحمن البرقوقي رجل خليق ان يعلم عنه قراء المصريين شيئا وان يشغل حيزا في ذاكرة كل فرد منهم ومكانة في نفس كل واحد ولولا حياء ملكه منذ كان في المهد وحشمة وتواضع ولولا انه ليس من النفر الادعياء الذين لم تمتلىء الا من القحة والسماجة والغشر اوعيتهم ولم تشحن بغير الغرور والضلالة والسفه حقائبهم لكان امتداد الذكر وانتشار الصيت اولى من مائة انسان فقئوا الانظار ، وشغلوا الافكار . واغتصبوا الشهرة

اغتصابا . واستلبوا كساء الفخار استلابا . فخق عليهم قول القائل

أيها المدعى سليما سفاها ... لست منها ولا قلامة ظفر

انما أنت من سليم كواو ... الحقت في الهجاء ظلما بعمرو

واری ان للشيخ البرقوقى عليكم معشر القراء لحرمة الكتابة والادب حقا من مكانة ينبغى ان تكون له فى نفس كل منكم ومحل يجب ان ينفسح له في ذاكرة كل فرد وبكرهى ان اري حقه مغصوبا . وملكه مسلوبا . وانظر محله من النفوس يشغله الجاهل الدعى" غير مستح ولا محتشم وما ذلك بمستغرب من الوقح الذي نضب من وجهه ماء الحياء . على انى كثير التنبؤ بان هذه الشبهة لا تلبث ان تستنير وهذا الضلال لا ينشب ان ينجلى فيقصى الدعى" ويستدنى الاصيل ويؤخذ للمسروق متاعه من السارق حتى يقول هذه بضاعتنا ردت الينا وقل جاء الحق وزهق الباطل

الشيخ عبد الرحمن البرقوقي كاتب نفيس حسن المنحى قريب المنال دانى القطوف عذب المورد ناصع البيان قد نزهت عباراته عن الخلل واللغو والركاكة والابهام وحصنت من الناقد وارتفعت عن مقام المتحدى والمناظر

حزن مستعمل الكلام اختيارا ... وتجنبن ظلمة التعقيد

وركبن اللفظ القريب فادركـ ... ـن به غاية المراد البعيد

كالعذارى غدون في الحلل البيـ ... ـض اذا رحن في الخطوط السود

ومن شك في قولى هذا فعليه بشرح الاستاذ لكتاب التلخيص ذلك الذي اعجب به حكيم العصر الشيخ محمد عبده واطراه واثني عليه . ذلك أو مقدمة الاستاذ في أول اعداد « البيان » وما نقل في ذاك العدد أيضا من كتابه المسمى « حضارة العرب فى الاندلس » وكم له من مقالة شائقة وكلمة مأنوسة

وجملة انيقة برز بعضها منذ اعوام على صفحات المؤيد وبعضها يهم ان يبرز ويشرئب ان يظهر .

بها ثمر الفضل الغزير فيانع وآخر في اكمامه منتظر

وقد كان للسيد البرقوقي : لو أنه من طلاب الدنيا ولولا انه انما يعمل للخير العام والمصلحة الدائمة : مندوحة عن اخطار ثروته ومنبع هنائه وسعادته بالبذل منها ما قضت الحاجة فيما هو اليوم قائم به من مسائل التعريب والتأليف والطبع والنشر عمل وايم الله قلما نهضت به الشركات والجمعيات فكيف بفرد ضئيل الثروة منزور المادة رزقهُ وزانُ حاجه — نقول قد كان للسيد لولا انه رجل الاخلاص والخير الابدى مندوحة عن ركوب ذلك الهول وامتطاء تلك الخطة العوصاء في طلاب الدنيا من طريق التجارة أو الزراعة أو التحرير والكتابة فيتخذ من قلمه احبولة للرزق بدل أن يجعله بالوعة تأخذ من وفره وثرائه . ولكن الشيخ ايده الله يفقه معني المجد والحسب ويعلم سر الحياة وله أمل فسيح الخطوة يتجاوز به شهوات المأكل والمشرب والزينة والرفاهية الى قصوى غايات الفخار والشرف

يبادر غايات من المجد طوحت به خلف غايات الرياح الخواطر

*
* *

ماسرّه اللؤم والغضارة في العيش بديلا بالمجد والقشف

(وبعد) فان فكرة التأليف والتعريب التي قد مضي في تنفيذها الاستاذ منذ أشهر ليست خاطرا خاطرا ولاهي من عفو الساعة ووحى البديهة وانما فكرة اختمرت في نفس الشيخ ورأىٌ نضج واينع ولقد اذكر اني كنت في دار الجريدة يوما ما أكتب أو أعرب مقالة وكان ذلك منذ

أعوام فاذا انا بشيخ معمم دنا مني فسلم فرددت السلام واجلسته الى جانبي ثم عرفني انه يسمى عبد الرحمن البرقوقي وانه اطلع على كلمات لى واخرى لفحول الانكليز مما كنت انشره وانه قد لذّ تلك الشذرات المعربة واعظمها [1] واكبر مؤلفيها ولاسيما كارليل وجعل يتلهف على رجال يكثرون من تعريب حكم الغرب تلهفا يشف عن اشد الاخلاص والغيرة ثم اقترح على تعريب صفوة مؤلفات كارليل ومشاركته في اصدار مجلة حالت احوال دون ذلك حينذاك وعدتنا عنه عوادى الزمن ومضت شهور وأعوام : واني ذات يوم لسائر في شارع عبد العزيز فاذا بمنظر من اعجب ما رأيت وما هو الا الشيخ البرقوقي بعمامته وجبته واقفا في دكان لم يتم بناؤه وسط جماعة الفعلة والنجارين والحدادين يقترح عليهم في عمل المكان واتقانه فناديته وبعد التحية قلت « عجبا يااستاذ » ابدّالا تريد ان تكون ام بزازا أم حلويا أم خبازا أم ماذا ؟ » قال « بل كاتبا ورب مجلة فان شئت ان تكون شريكي فما اسعدني اذن فكان مني جواب الفعل اسبق الى الاستاذ من جواب اللسان وها نحن اولاء قد أخرجنا للناس ولما يمض نصف عام على يوم اتفاقنا اربعة أعداد من مجلة البيان وجزأ من كتاب مختارات لوبان أو بلاغة الانكليز ثم كتاب الابطال للفيلسوف كارليل وسنقول عنهما كلمة بعد اهداء اجزل الحمد واكرام الثناء للسيد الجليل والاستاذ النبيل . صاحب الفكرة وممضيها بقوة الحزم والعزم والهمة: الرتخص في سبيل المجد كل غالية من المال: المذيل [2] في ابتغاء العلى كل كريمة من الوفر: المنفذ القول بقوله ولو كان في ذلك هلاكه

اذا هم القى بين عينيه همه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

---

(١) فعل ماض بمعنى احترم واجل وكذلك اكبر (٢) المبتذل.

واليك كلمتنا في كارليل وكتابه .



ولد توماس كارليل في قرية اكلفكان باقليم اناندال بجنوبي اسكوتلاندة لاربع خلون من شهر تشرين ١٧٩٥ وذلك قبل نهضة نابليون لغزو العالم باربعة اشهر وقبل وفاة روبرت بارنز شاعر القرن الثامن عشر بسبعة أشهر ولو أنه ولد على بضعة أميال من جنوب تلك القرية لكان رجلا انكليزيا . وكان أبوه بنّاء وبيديه بنى البيت الذي ولد فيه ابنه — دليل على متانة أخلاق الرجل واستبداد ذهنه واستقلال رأيه واستغنائه عن الغير بقوة نفسه . وكان قليل الكلام كثير العمل جلد الحصاة صليب العود ولكنه ليس بفظ ولا غليظ فكأن قلبه بئر السلسل الزلال حولها من الحجر الاصم سور وحجاب .

وابت اخلاقه ان تجاور * خلائق اصغار من المجد خيّب *

فهجر القوم الذين كان يعيش بينهم أولا وانضم الى فئة من أهل الخلاف والسخط ولو انه اصاب من العلم حظا أوفر لجاز ان يكون مدير بلده ولكنه كان وحاله تلك يخيف المدير ويقلقه . وهو الذي اراده مدير بلده حين يقول « اعط الرجل اجرته ودعه يذهب عنا فانه وعر المقادة صعب المراس » وكان حسن البيان مشرق ديباجة الكلام كثير الاستعارة والتشبيه على جهله معنى التشبيه والاستعارة — برهان على ان ابنه انما عنه لا عن والدته ورث الفحولة والعبقرية . اما والدة كارليل واسمها مارغريت ايتكين فكانت ورعة تقية شفيقة حدبة رحيمة كثيرة الشغف والحنان واللهف والحنين دمثة الجناب مأنوسة الجانب مأمونة الناحية طلقة الجو رطيبة الظل . وقد قال عنها كارليل « ماانست بانسان قط انسي بوالدتي ولا وجدت ممرحا الا في ساحة

كرمها ولا مرتعا الا في كنف حلمها ولا مرعى في غير روضة شيمها ولا مشربا في خلاف غدير طبعها وخيمها وحق له ان تقول ذلك عن ام كانت عليه ابدا خفاقة الاحشاء قلقة الضلوع وعلى مصلحته ساهرة المقلة جمة الرجاء تلعاء الجيد

— وتلقى مبادىء العلم في مدرسة القرية ثم في مدرسة قرية أسمها «انان» ثم دخل جامعة ادنبرج في الثالثة عشرة من عمره . وفي التاسعة عشرة أى في عام ١٨١٤ صار مدرسا للرياضة بمدرسة « انان » وبعد ثلاثة اعوام من ذلك صار رئيس مدرسة ببلدة « كركالدى »

وهنا علق فتاة مليحة تدعى مرغريت جوردون وهى التي وصفها في كتابه «سارتور رزارتوس» أو فلسفة الملابس باسم «بلومين» والتى كانت تكون زوجه لولا تعرض أصدقائها وفيها يقول

وكان الفتي المنفرد(يعني نفسه) صاحب الخيال المشتعل يكبر ملكات العالم (يعني النساء) ويقدسهن ويرى لهن جلالا الهيا . ولم يك حظه منهن الا حظ اللمس من الخيال . والغليل [١] من الآل [٢].

تراه عيني وكفي لاتباشره   حتى كأني في المرآة ابصره

فكن له كأنهن من الهواء مخلوقات. ومن الضياء مصوغات ارواح في اشباح. واذهان في الوان .

* خلق من الماء والالون نيران *

وكأنهن ملائكة تحمل كل منهن معراجا يرتقى فيه العاشق الى مقامات الابرار في الجنان. فليت شعرى هل قضي الله للفتي المنفرد (يعني نفسه) ان يظفر يوما ما باحدى هذه الملكات ؟ بل اين منه ذلك هيهات هيهات !

---

(١) الغليل العطش (٢) الآل السراب وهو مايحسبه الظمآن ماء وليس بماء

واما والذي خلق الهوى وجعله جنة المحب وجحيمه لئن قضى الله للفتي ان تهبط عليه واحدة من تلك الخيالات المليحات فتتحول له جسما حيّا ملموسا وحقيقة محسة ثم تلحظه بنظرة انعطاف وتودد وتقول له بعينيها « لك الآن ان تحِب وتُحَب » اذن فاي بركان هاجم يثور . واي جاحم كامن يجيش ويفور ! »

وقد اشتعل مثل هـذا الحريق يوماً ما في فؤاد الفتى المنفرد اشتعالاً بركانيا وكيف يكون الامر غير ذلك وللفتى مزاج رقيق وطبع سريع الهياج فيه « كاربون » الحدة و « فوسفور » الشهوة و « كبريت » الانفعال تنتظر أدنى شرارة من لحاظ دعجاء المحاجر قتالة الالحاظ فتتأجج وتشتعل . وما شرار اللحظ في هـذا العالم بالشيء المفقود . فليت شعري اذا هبطت عليه من آفاق العزة مليحة حسناء فرمت « كبريته » بشرارة من لحظها ماذا يكون المآل ؟ اتكون زخارف نارية[1] تتوالى بارقاتها في نظام وتتابع نيّراتها في نسق مؤلفاً من جميعها عصر غرام بهيج وزمن متاع هنى . ام تكون ثورات بركانية ذات همهمة وزفير تنشق لها كبد الفتى وينفطر فؤاده (وهـذا هو الموت) — أو تهتك حجاب الخيال وتعيث فيـه فيختل ميزانه . ويجمح عنانه (وهو الجنون) حتى يخرب ذلك العالم الذهني الذي شاده الله في نفس الفتى ويصبح ولم يبق منه الا فوهة بركان خامد .

بين جنات الزهر والريحان الجمة الفنون والالوان . العبقة الارجاء بشذا المسك ونفح الطيب تشعل وردها مجامر الند والعنبر

تشب خزاماها اذا الشمس طفّلت مصابيح لم يقبس لها النار قابس

(١) مايسمونه « السواريخ »

أتاح الرحمن الرحيم للفتى المهجور ان يشهد مجلس الفتاة « بلومين » في رهط من أقاربها بين منظر معجب وسماع لذّ أينما طرح البصر فما شئت من روض نضير . وماء نمير . أو نصب الاذن فما أحببت من جرجرة وخرير . وهديل وهدير . وتغريد وصفير . وأينما جلس فما اشتهيت من مهاد وثير . وأريكة وسرير . وسندس وحرير .

وما هي الا هنيهة حتى قرّب الى الغادة وقدم لها ! يا رعاكِ الله أيتها الآنسة انك لتشرقين بين أترابك من الفتيات وتبهرين صواحبك من الغانيات كأنك الكوكب الدري هبط من السماء فتوسط طائفة من المصابيح والشموع . يا أشرف الفتيات . وسيدة النساء يا من سبيت الخامل المسكين فتهافت عليك بدناً وروحاً وهو مع ذلك منكس الجيد في حضرتك العلية من فرط هيبتك خاشع الطرف تعروه لذة أليمة وتعلوه حيرة لذيذة أحقاً أصبح الفتى المسكين يشهد مجالسك ويجتلي نور طلعتك وبهاء غرتك وحقاً تشرق عليه أشعة لحاظك وحقاً يتكلم فتنصتين . ويقول فتسمعين . ويمزح فتضحكين . ويعظ فترقين . ويشكو فتتوجعين ! وحقاً كان الحب متبادلاً . والغرام متداولاً . والعطف متقارضاً . والود متقايضاً . والقلبان يخفقان للالتصاق . ويرجفان للاعتناق ! وقلب العاشق المسكين يجيش ويثور كالبحر يزخر ويعبّ في حفرة القمر ! بلى حقاً كان كل ذلك .

وبحق يقول فيها ذلك ومابالك بمن استشفت بنافذ نظراتها قرارة نفس الرجل (كارليل) ولما ينم على فضله شعاع ولا نبض في افق الادب له لمحة بارق . واستطاعت ان تبصر من وراء حجاب نفسه مياه العرفان وغدران الحكمة كالهدهد يبصر مواضع الماء جوف الارض ودونها اطباق الثرى .

ذلك الى ادب بارع وجمال خلاّب * وحسن مرأى وطيب مختبر *

ولولا نفاذ بصرها وصدق فراستها لما كتبت الى كارليل الرسالة الآتية وهو بعد خامل مغمور لم يسل من لعاب يراعه قطرة ولا طلع في افق قرطاسه نجم بلاغة ولا سار له مثل ولا ذاعت له حكمة وكان لا يزال معلم مدرسة واليك الرسالة وهي رسالة الوداع

قوّ في نفسك صفات العطف . والرقة وأشعر قلبك حب الناس ورحمتهم . وأطفيء بارقات الخيال الكاذب وامح صور الوهم الباطل واعلم ان العبقرية والفضل والنبوغ من حظك . وانها ستبلغ بك مراتب الفحول يوما ما وتجعلك عظيما . فلعل مكارم الاخلاق تبلغ بك مقام القديسين وتجعلك محبوبا وعسي انك ترفع ما بينك وبين سائر الناس من حجاب العظمة وتقرب ما هنالك من مسافة الوحشة والخلاف . وخاطب الناس على قدر عقولهم وقابل بالصفح واللين سيئاتهم . وبالتجاوز والعذر هفواتهم . فان ذلك احرى ان يجلوك . واجدر ان يحبوك . ومالك تستر ما وهبك الله من رحمة وتخفي ما منحك من رقة وعطف ؟

وفي ١٨١٨ ترك حرفة التعليم ساخطا عليها وعلى أهلها صائحا « لا طاقة لى بعد بهذه الحرفة الممقوتة » وذهب الى ادنبرج وليس ينوى عملا مخصوصاً ولا يدرى ماذا يكون من امره : فدرس ابغض العلوم واثقلها علم المعادن ولكنه كان من انفع الاشياء له حيث اضطره الى تعلم الالمانية التي كانت من اسباب ظهوره ورفعته وكان اذ ذاك يعيش من دروس خاصة وترجمة مقالات علمية عن الفرنسية خلاف مؤن من الخبز والزبد كانت تأتيه من دار أبيه . وقد كان في تركه حرفة التعليم وشذوذه عن الطرق المألوفة . والاساليب

المعروفة ما اسخط والديه واسرته ولكنه لم يبال بسخط القوم ولا بذم الناس وابي الا مضيا على عزمه وتدفقا في مجراه قائلا انه مستبد برأيه واثق من نفسه وانه اقوي من الدهر واعلى يدا من القضاء والحظ وانه لابد له من الانتصار على الاقدار يوما ما متمثلا

ليت هندا انجزتنا ما تعد　　وشفت انفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة　　انما العاجز من لا يستبد

وعاش كارليل ستة وثمانين عاما قضاها في وضع التآليف الجليلة بين فلسفة وتاريخ وترجمة وعظة وحكمة واشهر مؤلفاته كتاب الابطال هذا الذي تحمله في يدك وكتاب الثورة الفرنسية وكتاب الماضي والحاضر وكتاب « سارتور رزار توس » أو فلسفة الملابس وسيرة كروموبل وتاريخ فريدريك ملك بروسيا .

وكتاب الابطال هذا يمتاز بشرحه عبادة البطولة وتقديس عظماء الرجال شرحا وافيا دقيقا لم يدع لقائل مجالا وان من قرأ هذا الكتاب وكان كافرا ملحدا مستهزئا بعظمة ابن آدم منكرا عبقرية الانسان ساخرا من عظماء الرجال وعشاقهم فلم يشف من داء الكفر والجحود والاستهزاء والسخر فليس في طاقة القلم ولا سلطان البلاغة ولا في قوى الانس والجن مايشفي علته أو يغير مابه . واحسن ماجاء في ذلك الكتاب فصل عن المصطفى (صلى الله عليه وسلم) وكان الرسول قبل ذلك هدفا لاقلام الكثيرين من الغربيين (ولا سيما أهل القرن الثامن عشر) قرن فولتير اعني قرن الالحاد والكفر يرمونه جهلا وكنودا بقوارع الهجاء وقواذف الذم قال ريتشارد جازييت فلما كتب كارليل مقالته عن الاسلام ينافح فيها عن محمد ويناضل

دونه لم يبق هجاء اطلق يده في عرض محمد (عليه السلام) الا قبضها مجذومة شلاء ولا خاش يدرى ذلك الاديم الاملس وتلك الصحيفة البيضاء بسهام السباب الا وردت سهامه في نحره حتى راح شرف النبي في تلك الديار بفضل الفيلسوف الاكبر صحيح الاديم موفور الجانب. فحق على عصبة الاسلام جميعا ان تشكر لذلك البطل الجليل هذه اليد البيضاء والمنة الغراء. ولعمرى لو انهم نصبوا له على كل مأذنة تمثالا وزينوا باسمه جدران المساجد وخطب المنابر لما كانوا في اداء واجبه الا مقصرين. وعن القيام ببعض حقه عاجزين

فاما من حيث الكتابة فقد كان كارليل من اكتب الناس ومن أشد البلغاء تمكنا من اللسان واقتدارا على اللغة

وأنت الذي تدعو الكلام بقدرة فيأتيه وحشي الكلام وآنسه

وانه ليرجح لدى الموازنة بمعظم من سبقه من الفحول امثال جونسون وريتشار بارنز وكأني به كان يبصر اجزاء من نفسه في صور أولئك الابطال وانه أعلى قيمة واشرف قدرا وما اظنه خليقا ان يقارن الا بالانبياء.

وقد كان في مرارة الجد ومضاضة الحزن شبيها بدانتي وروسو. ولكنه كان بقوة دانتي اشبه منه بضعف روسو. وكان دانتي قليل المزاح ولا مزاح لروسو. وفي مؤلفات دانتي وروسو صحف جدية كأنها اقلة الفكاهة والهزل قفار ملس ولكن ما يقابلها في تآليف كارليل مزخرف بافانين المزاح والوان المجون بينها ينابيع الهزل تفيض وتنفجر. وسيوح الفكاهة تسيل وتنهمر. وكأني به يقول مع صديقه جونسون لقد حاولت ان اكون فيلسوفا فأبى المزاح الا ان «يعترضني في طريقي» وليس في جميع كتاب القرن التاسع عشر من يقارب في المزاح والهزل ذلك الرجل الجاد

الحاد الذي يلبس أقسى ظاهر من العبوس والنفرة والتهكم . ولم ير الناس منذ عهد « ارستوفانيز » رجلا غير كارليل خلط المزاح بالشعر ولز الخيال والمجون في قرن . ولكن كارليل بلغ في ذلك النحو أقصاه . وأدرك في هذا الغرض منتهاه

(الخطأ والصواب)

ابت المطابع المصرية الان تظهر مطبوعاتها مشحونة بالخطأ علي الرغم من عناية المصحح وبذله الجهد في هذا السبيل وقد اصاب هذا الكتاب من هذه البلية بعض النصيب واقبح ماوقع فيه من الخطأ هذه الجملة الآتية — في الجزء الثاني صحيفة ٩٩ سطر ٦ — واذا باد ادث لحوا — وصوابه واذا باده الحوادث وهناك اغلاط خفيفة نبهنا عليها فيما يلي

﴿ خطأ وصواب الجزء الاول ﴾

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٥	١٩	ممكن	ممكناً
٧	٢	ومسترشدن	ومسترشدين
١١	١٤	اله	الها
١٢	١٠	الاخشوع	الاخشوعا
٢٢	١٩	لم تهذب جد	لم تهذب جد تهذيب
٢٣	٧	ثور	ثورا
٢٩	٦	رجلا	رجل
٤٠	٨	ثور	ثورا
٤٣	١٥	ثور	ثورا
٤٦	١٠	ثور	ثورا
٤٧	١	التى مجموع	التي هي مجموع
٤٩	٥	يستقبلها بهم	يستقبلهم بها

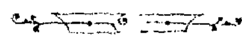
صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٥٠	٥	مائة مليون	مائتا مليون
٥٢	١٣	حقا صراحا	حق صراح
٥٢	١٣	صوتا صادقا صادرا	صوت صادق صادر
٥٣	٨	الالم	الأم
٥٤	١٣	ادارتهم	ارادتهم
٦٦	١٠	الابعين	الاربعين
٧٢	١٨	صائة	صائبة
٧٦	١٦	بارفة	بارقة
٨٣	١٢	خالدين	آمنين
٩١	٢٠	الدوهم	الدهم
٩٤	٣	بنعماته	بنغماته
٩٤	١٣	وخبت	وخبا
١٠٣	٢	في جيع	في جميع
١١٣	٩	عناء	غناء
١١٨	٣	صبغ	صاغ
١١٨	١٦	و ببصر	ويبصر
١٢٣	٦	واهتدائه	واهتداء

﴿ خطأ وصواب الجزء الثانى ﴾

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٦	٦	عبدا واسيرا	عبد واسير
٦	٧	خليقا وجديرا	خليق وجدير
٧	٢	ضربا	ضرب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٧	١٣	جسرا	جسر
٧	٢١	واحد	واحدا
٨	٦	عونا	عون
٨	٢١	منطورة	منظورة
١٣	١٦	ميلا	ميل
١٣	١٧	وجنوحا	وجنوح
١٤	٥	مبتكرونه	مبتكروه
٢٢	٢	فيودعوه	فيودعونه
٢٢	٣	ثم يصرموه	ثم يصرمونه
٣٦	٩	بشهرة	بشهوة
٧٧	٢	افئدة	وافئدة
٨١	٦	وانه	انه
٨٦	٦	اغواض	اغراض
٨٦	١٤	ذى يدين	ذى دين
٨٩	٥	ووجه حافل	ووجها حافلا
٨٩	٩	والاخلاص	الاخلاص
٨٩	١٨	حيوش	جيوش
٩٠	٨	لايطبق	لا يطيق
٩١	١٤	ل حم	حمل
٩٦	٤	الريج	الريح
٩٩	٦	واذا باد ادث لحوا	واذا باده الحوادث
٠٣	٢	وألعت	وأتلعت
١١٧	١٨	كنوبارت	بونابرت
١١٩	٤	العظيمة	العظمية

المحاضرة الاولى



البطل في صورة إله

انما يضمني وإياكم هذا المقام وتواليه للكلام شيئاً عن عظماء الرجال ومظاهرهم على مراسح الحياة والاشكال التي تشكلوها في تاريخ البشر وآراء الناس فيهم وماذا أحدثوا من الاعمال — للكلام عن الابطال وعما استقبلهم به أهالي أزمانهم وعما صنعوا هم من جلائل الامور — ولعل هذا مبحث عويص لا أراني موفيه حقه — مبحث لعمر الله قصيّ الغاية يشق على نزع الخواطر مرماه ويقع وراء جهد الاوهام منتهاه وما ظنكم بمبحث هو التاريخ بحذافيره اذ في اعتقادي ان التاريخ العام — تاريخ ما أحدث الانسان في هذا العالم — انما هو تاريخ من ظهر في الدنيا من العظماء فهم الأئمة وهم المكيفون للامور وهم الاسوة والقدوة وهم المبدعون لكل ما وفق اليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم وكل ما تراه قائماً في هذا الوجود كاملاً متقناً فاعلم انه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم الى الناس ليؤدي كلٌّ ما ناطته به القدرة الالهية من الخير. فروح تاريخ العالم انما هو تاريخ أولئك الفحول وظني انه مبحث لن يسعه هذا المقام!

بيد ان من أسباب العزاء ان في ذكرى العظماء كيفما كانت نفعاً وفائدة والرجل العظيم لا يزال بعد موته ينبوع نور يتدفق فليس أحسن من مجاورته شيء — نور يضيء وكان يضيء ظلمات الحياة وليس هو كسراج أشعل ولكنما نجم شبّته يد الله بين أشباهه من كواكب الافق هو كما قلت ينبوع نور يتدفق بالحكمة ومعاني الرجولة والشرف الكبير وهو الذي في شعاعه أنس الارواح وروح النفوس ومتعة الخواطر وليس في ظني ان أحداً منكم يحجم برهة عن ورود تلك المناهل العذبة كيفما كان طريق المورد . ويقيني ان نظرة في تواريخ الابطال الشتى الصنوف الذين أنا آخذ الآن في سرد سيرهم جديرة أن تكون بمثابة نظرة في مخ تاريخ البشر وصميم لبابه . وما أسعدني لو أستطيع في مثل هذا العصر الذي ضعف فيه اجلال الرجل للرجل أن أفهمكم شيئاً من معاني عظمة الابطال وجلالهم أي من معاني البطولة والبطولة في مذهبي هي العروة المقدسة التي تعقد ما بين الرجال العظيم وبين سائر الناس ما أسعدني لو أتيح لي ذلك ولكني محاول وباذل مجهودي

* * *

لقد قيل — وصدقاً قيل — ان أهم ما في الرجل دينه — والامة مثل الفرد في ذلك — ولست أذهب بلفظة الدين الى النحلة التي يتخذها الفرد والمذهب الذي ينتسب اليه والقواعد الملية التي يعددها ويشهد بها فقد ترى الرجل الذي ذلك شأنه يسفل الى أدنى حضيض اللؤم والخسة على الرغم من شدة تمسكه بقواعد الدين فهذا ما لا أسميه الدين هذه الاقرارات والاعترافات أبعد ما يكون في الحقيقة من الدين اذ هو اعتراف واقرار

لم يصدر الا من ظواهر الرجل وبواديه — أعني من ناحية اللسان والقوى البرهانية — وذلك أقصى ما عنده ولكن جوهر المسائل للرجل والامر الذي عليه يترتب سائر الامور هو ذلك الشيء الذي يعتقده حق الاعتقاد ويوقن به كل اليقين فيما يتعلق بالروابط الجوهرية التي تربطه بهذا الكون الجم الاسرار وفيما يتعلق بواجبه في هـذه الدار ووظيفته — ذلك هو دينه وربما كان الحاده وكفره — هو اعتقاده انه متصل بعالم الالهيات أو بلاعالم مطلقاً — فاذا علمت عن الرجل ذلك علمت أي رجل هو وأي شيء يجدر به أن يصنعه في هذه الحياة لذلك كان أول سؤالنا عن الرجل أو الامة ماديانته أو ديانتهم. هل هي الوثنية أو تعدد الآلهة — أعني تمثيل سرّ الوجود تمثيلاً حسياً وعبادة القوى الطبيعية — أم هي النصرانية والاعتقاد بعالم سري حقيقي وبخلود الروح وارتكاز الوقت على عالم الابدية أعني بذلك استبدال دولة الاسرار المقدسة التي هي اشرف وأسمى بدولة الوثنية وعواملها من قوى الطبيعة أم هي الشك والريبة هل هناك عالم خفي وسرّ مجهول أم لا بل ربما كان الحاداً محضاً وكفراً مبيناً فعندي ان الاجابة عن هذا السؤال هو اعطاؤنا روح تاريخ الفرد أو الامة اذ أن اعمال الامة أو الفرد انما هي بنات أفكارهم وما تحت ظواهر الآثار الا من مستتر الضمائر ومن ثم أقول ان دين الامة هو أهم ما لديها لجدير بنا في هذه المحاضرات أن نجعل الوجهة الدينية من اخطر وجوه البحث واكبر أركانه فانه متى أجدنا معرفة هذه برح الخفاء عن كل شيء . وقد جعلنا أول أبطالنا «أودين» الرجل الذي كان يعبده قدماء السويد والنرويج وكان قطب دائرة الوثنية في تلك الاقطار فلننظر برهة الى البطل في صورة معبود وهو أقدم أشكال البطولة



حقاً لقد كانت الوثنية شيئاً من أعجب الاشياء لا يكاد يتصوره الوهم وهل كانت الا متكاثفات أضاليل وسخافات وأباطيل قد نبتت في أديم الحياة الغابرة فالتفت أعياصها واستأشبت أدغالها وخيمت على أكناف الحياة غواشي قبابها ودواجي ظلالها ! مما لا يكاد يصدق به العقل أو يتصوره الوهم اذ لا يمكن أحدنا أن يتوهم ان ناساً عقلاء أيقاظاً صاحين يعيشون عيشة كتلك ويعتقدون عقائد كهاتيك — أعني يعبدون رجلاً منهم لا لا بل يعبدون الخشب المسنّدة والاحجار وما اليها من أصناف الحيوان والجماد ويصوغون لانفسهم خليطاً مشوشاً من كل أضلولة وأبطولة فيحسبونه فلسفة الكون — أما والله ما أحسب كل هذا الا حديث خرافة

بيد انه لا شك في أنهم كانوا يأتون ذلك كانوا وهم رجال مثلنا يعتقدون تلك الكفريات الفظيعة المنكرة ويطمئنون اليها ويعيشون بها عجباً أي عجب ! وخليق بنا معشر الاخوان أن نطرق ملياً ونتأمل والاسف ملء قلوبنا ما يوجد في نفس الانسان من أعماق الضلال وظلمات الجهل فان ما أشرت اليه من مستنكر المدهشات قد كان في الانسان ولا يزال بل هو في جميع الناس وفينا أيضاً

بين الجدليين جماعة ليس لديهم من القول في الوثنية الا كلمة واحدة اذ يقولون هي باطل وغش وانه لم يؤمن بها عاقل قط وانما هي أكذوبة لفقت لخداع أناس لا يصح أن يسمون عقلاء ! وأرى من الواجب علينا أن ندفع عن الآدميين وعن أعمالهم وتاريخهم أمثال هذا الحكم الجائر واني لادفعه الآن عن الوثنية وعن كل ديانة حاول أن يسير بها الانسان دهراً اما

في هذه الحياة . فلم يك دين قط الا وفيه عنصر من الحق ولولا ذلك لما اتخذت أمة من الامم ديناً ما — ولا ننكر ان الاخاديع والاكاذيب تكثر في الاديان ولاسيما في عهودها المتأخرة اذ يعتورها الوهن والاضمحلال ولكن الكذب ما كان قط المسبب الاول للاديان — انهما كان قط للاديان حياة وقوة بل كان داءها ونذير آجالها — فاعلموا ذلك أصلحكم الله ولا تنسوه . فاني لا ظن ان من شر السفسطة وأخبث الباطل ان يقال ان ديناً من أديان المتوحشين كان منشؤه الكذب فان الكذب لا ينشأ عنه شيء قط وليس من شأنه أن يحدث ويلد وانما من دأبه ان ينفي ما أصاب ويقتل كل شيء حتى انا لو حاولنا ان نحيط علماً بأمر ما فأتيناه من ناحية أكاذيبه كان ذلك جديراً أن يخفي عنا حقيقته . وهي ما لا ينكشف لنا حتى ننفي تلك الاكاذيب بتة كأنها أمراض ومفاسد واجب على كل امرئ استئصال شأفتها سواء من الاذهان والاعمال اذ أن الانسان حيثما كان عدو الاكاذيب بل لأرى الحق حتى في وثنية أهل التبت (من أقاليم الصين) اقرأ ما دونه الجهبذ الصادق النظر الصريح القول المستر «تيرنر» في حديث سفارته الى تلك البلاد تجد أن لهؤلاء المساكين عقيدة ان الله يرسل كل حين الى الارض بشراً يمثله ويحمل صورته — وهو بمثابة اعتقادهم في بطريق أو بابا أو بمثابة اعتقادهم ان هنالك رجلاً هو أفضل الرجال قاطبة — وان هذا الرجل يمكن الاهتداء الى معرفته من بين سائر القوم : فاما ان الله مرسل في كل جيل رجلاً يمثله فهذا هو الحق الكائن في عقيدة هؤلاء القوم وأما كون هذا الرجل ممكن معرفته من بين سائر الناس فهذا هو خطأ المذهب المذكور ولقساوسة هذه الامة طرق الى اكتشاف الرجل الافضل من بين سوادهم ليولوه زعامتهم —

طرق وأيم الله عقيمة ولكنها ليست أعقم من طريقتنا نحن اذ لا نتأ نولي علينا الابن الاكبر من أسرة بعينها (الاسرة الملوكية) واأسفاه! ماأصعب أن يعرف الطريق الى! . . . . ولكن أرجع الى ذكر الوثنية فأقول انه قد يرجى لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولاً انها كانت في حين من الاحيان ديناً صحيحاً في اعتقاد أهلها فلنوقنن كل اليقين ان الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الايمان ولم يكن بهم من ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض بل كانوا مع ذلك أصحاء العقول والحواس أيقاظاً قد صورهم الله على صورنا وخلقهم كخلقنا لا فرق بينهم وبيننا بحال من الاحوال ولنوقنن كذلك انا لو كنا وُجِدنا معهم لآمنا بما كانوا به يؤمنون ولكنا وهم سواسية في سائر الاشياء واذ قد علمتم مني ذلك فعليكم ان تسألوني ما ذا كانت تلكم الوثنية

يقول آخرون من ذوي الجدل — وهو قول اوجه — ان منشأ الوثنية هو شعر الشعراء أعني ان الشعراء كانوا يرون آراءهم في الكون ثم يخرجون تلك الآراء والاحساسات في رموز من الاقاصيص وضروب من المجاز والتشبيه بالاشخاص والحيوان والجماد جرياً على قانون أساسي من قوانين النفس البشرية وهو ان كل ما جرى في وجدان المرء من احساس شديد لا يرى بدًّا من اخراجه بواسطة النطق ومن رؤيته ممثلاً لعينيه في شكل منظور حتى كأنما هو شيء حيّ ذو حقيقة تاريخية ولا شك في أن هنالك قانوناً كذلك وانه من أرسخ قوانين النفس البشرية وأرساها وأشدها تأصلاً واستمكاناً ولا شك أيضاً في انه قد كان لذلك القانون دخل عظيم وأثر قوي في امر الوثنية واني وان شهدت بشيء من الصحة لتلك النظرية التي ترجع بأمر الوثنية كله أو جله الى الرموز الشعرية ولكني لا أعدها

النظرية الصحيحة وإني أنشدكم الله معشر الاخوان هل كنتم قط مؤمنين ومسترشدين في ظلمات الحياة بقصص ناظم وعبث شاعر ؟ أما وربكم ان الامر لا خطر من ذلك وأجلّ وأحوج الى الجد منه الى اللعب ان أمر الحياة من أكبر الجد وما أمرُّ الممات وما عساه يحدث بعد الممات بلهو ولا عبث بل انه الجد أمرّ من كل جد والحق أوعر من كل حق !

فقد رأيت ان أولئك القائلين في الوثنية بأمر الرموز الشعرية وان كانوا قد أخذوا في منهج الحق لكنهم لم يبلغوا الغاية فالوثنية ولا شك رموز شعرية وتمثيل بالمرئيات لما جرى في وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره وكذلك كل دين انما هو رمز وتمثيل يختلف باختلاف تلك الآراء والاحساسات ولكني أرى رأي هذه الفئة رأياً معكوساً بقولهم عن النتيجة أنها السبب وعن الغاية انها الاصل . فان الناس ما كانوا ليجعلوا عمل الاقاصيص الشعرية أول حاجهم وأكبر همهم وانما أكبر همهم هو أن يعرفوا أي عقيدة يتخذون في هذه الكائنات وأي سبيل يسلكون في تلك الحياة . وماذا يرجون وماذا يخشون وماذا يأتون وماذا يتركون . أاذا أخرج الشاعر قصة موثقة جعلها رمزاً لمعتقدات جيله أنحسب انها أقدم عهداً من تلك المعتقدات كلا بل كانت العقائد أولاً ثم أنشئت القصيدة رمزاً اليها وتمثيلاً لها . فالعقيدة أصل والشعر صورة والعقيدة حقيقة والشعر ظلها ثم هو مهما بلغ في مراتب الجد فانما هو لعب وفكاهة ولهو من عبث الخاطر اذا قيس الى تلك الحقيقة الراسخة في النفوس التي يحاول به تمثيلها . فقصارى القول ان الرموز الشعرية هي نتيجة الحقيقة لا مسببتها فعلينا اذن في شأن الوثنية أن نبحث من أين جاءت هذه الحقيقة — أمُّ هاتيك

الرموز الشعرية والاغلاط والخرافات . كيف جاءت تلك الحقيقة وماذا كانت ؟

* * *

تذكرون ما توهمه افلاطون من انه لو ولد انسان في حجرة في جوف الارض فترك ثمت حتى بلغ أشده وكمل عقله ثم أخرج بغتة الى ظاهر الارض فاذا الشمس بارزة في موكب لألائها . ماذا يبلغ به العجب والاندهاش من منظر لا نبرح نراه فلا يحرك فينا ساكناً . ولكن ذلك الرجل يراه بعيني طفل قد برأهما الله من شوائب اكدار الحياة فرؤيتهما في منتهى الصفاء ثم يراه كذلك بعقل ناضج فليس عجيباً ان يرقص قلبه طرباً لذلك المنظر الباهر ثم ينفذ بصره الثاقب الى ما أودع الله ذاك المشهد من روعة الجلال فيخر له ساجداً . فاعلموا معشر الاخوان ان أول رجل مفكّر بين شعوب المتوحشين — أول انسان بدأ يفكّر انما هو كذلك الانسان الذي تخيله افلاطون جامعاً في طبيعته بين الطفولة والرجولة. كذلك كان اول المفكّرين من قبائل المتوحشين ساذجاً صريح الطبع كالطفل مع قوة الرجل وعمقه كانت الطبيعة امامه بلا اسم ولم يكن قد حصر ذلك الكون العديم النهاية وما به من شتى المناظر والاصوات والاشكال والحركات العديمة العدد في اسم مركب من ثلاثة أحرف كما فعلنا نحن حينما سميناه « كوناً » و « طبيعة » وما شاكل ذلك . فطوينا جلاله العظيم في اثناء لفظ حقير . ولكن الرجل المتوحش كان كل شيء جديداً في نظره لم يخفه عنه حجب الاسماء والالقاب عارياً امامه ساطعاً لعينيه مشرق الرونق سافر الحسن وضاء الجمال يحار في كنهه الوهم ويعجز عن وصفه اللسان . فتأثير جلال الكون في نفس ذلك

الانسان القديم المتوحش (المفكر) كتأثيره في نفس الشاعر أو الفيلسوف أو النبي في العصور الاخرى بلى أيها الاخوان ان للكون لو تدبر الانسان واعتبر لموقعا في النفس أي موقع ! وروعة في القلب أي روعة ! تلكم الارض الخضراء مبسوطها وحالقها وما يهتز عليها من ملتف النبات ومعشوشب الروض وتلكم الجبال الراسيات والانهار الجاريات والبحار ذات الجرجرة والضجيج والجلجلة والعجيج وقبة الفلك الزرقاء تعزف في اجوائها كل عصّافة هوجاء تحدو من السحب كل دجنّة وطفاء آنا تسح بالديمة المدرار واونة بدُفع الحريق وصواعق النار ما هذه ايها الاخوان ؟ بلى ما هذه ؟ اما ظاهرها فقد عرف العالم عنه شيئاً وأما الباطن فلا وربكم ما عرف ولن يعرف هذا سرٌ عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كيماوي انما أَوْلى بالمرء في مثل هذا المقام الاذعان والخشوع وللجهل هنا أفيد من العلم وما يستفيده المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره أكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره وكيمائه ماذا صنع العلماء في أسرار الكون الا أنهم زادوها خفاء واكتتاماً بالباسها براقع من الاسماء والاصطلاحات ! هم يسمون البرق كهرباء ويلقون الدروس والمحاضرات في ذلك ثم يولدون مثال هذا البرق من الزجاج والحرير ولكن ما هو ذلك البرق ؟ وما الذي أحدثه ؟ ومن أين جاء ؟ وايان يذهب ؟ لا أكذب الله قد أظهر العلم أشياء كثيرة ولكن بئس ذلك العلم الذي يريد أن يحجب عنا جلال ذلك الكون الرائع الذي يتضاءل العلم في حضرته ويذل لعزته وعظمته ويطفو على جوّه الهائل كريشة في مهب الريح : والحق يقال يا اخواني ان هذا الكون على الرغم من العلم ودعواه لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات

بل كفى بالزمن معجزة — بذلك الشيء الفائت العد والحصر . الدائم الكر والمر المستمر الصمت والسكون دائباً يجري ويتدفق عجلاً ساكتاً كتيار البحر الزاخر حيث نطفو فوقه وسائر الكون كخيالات تظهر ثم تغيب وأنفاس لا تكاد تصدر حتى تبيد أما كفانا بذلك معجزة ؟ اليس ذلك جديراً أن يلجم السنتنا فلا ننطق وبماذا ننطق ؟ يا لله من هذا الكون الهائل . ماذا كان يستطيع المتوحش القديم أن يفهم منه وماذا عسانا نحن نفهم منه اليس أقصى ما نستطيع أن نعلم عنه انه قوة مركبة من ألف الف قوة وانه شيء ونحن شيء آخر هذا كل ما يمكننا معرفته الكون شيء ونحن شيء غيره قوة في قوة في قوة فحيثما القيت البصر قوة ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية وليست ورقة ملقاة على ظهر الطريق تعفن بعد الذبول الا وفيها قوة والا فكيف كان يتأتى لها أن تعفن ؟ ولعمري ماذا يقول الملحد المفكر (ولا اخال الالحاد والتفكير يجتمعان) في هذه القوى الفعالة الدائبة المحدقة بنا لا تكل ولا تنى ولا تفتر ولا أول لها ولا آخر ولا مبدأ ولا نهاية — ماذا يقول فيها الا أنها معجزة رائعة وقد يتساءل عنها المؤمنون فيقول أحدهم لأخيه هي صنع الخالق ! ثم يجيء العلم بمنظاره وآلاته فيجعل يقلبها ويديرها كأنما هي جثة ميتة توضع في الزجاجات وتباع في الحوانيت، ولكن العقل الانساني السليم الفطرة مازال يرى في هذا الكون شيئاً حياً — شيئاً يحار فيه الذهن الهي المرجع اولى الاشياء بنا ازاءه — مهما بلغ علمنا — ان نحني الرأس له اجلالا وننكس البصر خشية ومهابة ونعبد ان لم يكن بالمنطق فبالصمت !

وكذلك كان شأن الانسان القديم المتوحش ازاء هذا الكون الباهر

فقد كانت عين فؤاده ثاقبة الرؤية جلية الانسان لم تغشها حجب الكفريات ولم تتراكم أمامها سحب الاصطلاحات والعقليات فكان الكون في نظره الهي النسبة بل هو الاله ذاته أما تنظر الى ذاك المتوحش الغار اذ يعسف البيد والفلوات قد أضل السبيل فاذا الكوكب الوقاد قد طلع له كأنه ماسة تلتهب بلألاء أبهر مما يرى أهل هذه العصور فيضيء فؤاد ذلك الضال كما يضيء له السبيل ويشرق في نواحي نفسه كما يشرق في نواحي الافق وكأنه مقلة في وجه السماء تنظر اليه من أعماق الابدية وتشف له عن رونق السر القديم ونور اليقين ألا تفهمون بعد ذلك كله كيف كان المتوحشون يعبدون النجم ويصيرون ما نسميهم عباد الكواكب ؟

هذا هو ما أراه سر الوثنية اعني افراط العجب والاندهاش من الشيء حتى يصير تقديساً وعبادة وكذلك كان كل شيء في نظر اولئك الاقدمين رمزاً الى شيء الهي أو الى اله

وهل ينكر أحد ان في فعل الاقدمين هذا عنصرا من الحق أفلو دققنا النظر له أما كنا نبصر في كل نجم بل في كل زهرة اله ظاهراً ؟ نحن لا نعبد الله الآن على هذا النحو ولكن ألا يزال من مزايا الشاعر والدلائل على شاعريته انه يرى في كل مخلوق جمالا الهيا وان كل شيء صاغته يد الله انما هو نافذة يشرف منها على أعماق الابد ؟ نحن نسمي من كان له قدرة على استجلاء غوامض الجمال في كائنات الله شاعراً ومصوراً ونابغة وعبقريا أفهل كان القدماء المتوحشون الا كذلك ؟ ألم يكونوا والشعراء سواء في تعرف بدائع الخليقة ؟ وان لم ينطقوا بالقصيد أليس عملهم هذا أحسن على كل حال من عمل الرجل الجامد البليد ومن عمل الحصان والجمل

وما أدراك ما عملهم ؟ — هو لاشيء !

واذا كان كل ما نراه هو رمزا من رموز الخالق اذن فاكبر رموز الخالق وأعظمها هو الانسان ان جوهر النفس الانسانية وذلك السر الكائن فينا الذي يسمى نفسه « أنا » — واخجلاه ما اجرأنا على صياغة الالفاظ لمعان تضمحل في سعتها الآفاق — هذه النفس هي نفس من الله وكذلك الانسان هو مظهر الخالق في الارض اليس هذا الجسم وهذه الحياة البشرية هي لباساً لذلك السر المجهول الذي نسميه الله ؟ قال الصالح « نوفيلا » ليس في طول الكون وعرضه الا معبد واحد وهذا هو جسم الانسان وحقاً لا شيء أقدس من هذه الذات الشريفة وما الركوع بين أيدي الرجال الا خشوعاً للذات الالهية بادية في صورة الانسان فاما لمست جسم انسان فقد وضعت يدك على عرش الله ! » وهذا الكلام حق لو تدبرتموه بالفكر الثاقب كيف لا ونحن المعجزة الكبرى وسر الله الذي لا ينال — ولا طاقة لنا بفهمه ولا ندري كيف نتكلم فيه بيد انه قد يمكننا أن نعلم ذلك عنه ان شئنا وحسبنا بذلك وكفى

هذه حقائق كان الاقدمون اسرع الى ادراكها منا نحن نعم ان الاقدمين اولئك الذين كانوا يجمعون الى صفاء أنفس الاطفال عمق أرواح الرجال الذين لم يحسبوا انهم قتلوا الارض والسماء دراية وعرفوا كل شيء بمجرد وضع الاسماء والاصطلاحات ولكنهم كانوا بدلا من اللغو واللغط في شأن الكائنات ينظرون اليها وجهاً لوجه والروع والاجلال حشو قلوبهم اولئك كانوا أفهم لآيات الله في كونه وأدرك لسر الله في عبيده هم كانوا يعرفون ولا بأس في ءيء ولهم كيف يعبدون الطبيعة وأحسن من ذلك عرفانهم

كيف يعبدون الانسان وأعني بالعبادة كما قدمت الافراط في العجب والاجلال الى مالا نهاية له وذلك ما كان في طاقتهم اتيانه من سويداوات أفئدتهـم وعقولهم كأوفر ما يكون وأرجح وظني ان عبادة الابطال قد كانت أشرف أركان الوثنية وأكرم عناصرها وان مذهب الوثنية الذي شبهته بغابة ملتفة قد نبتت من عدة جذور فكل اجلال لكوكب من الكواكب أو شيء من الكائنات كان كأنه احد جذور تلك الغابة ولكن اجلال الابطال هو أذهب تلك الجذور في الثرى وأغزرها مادة وأعودها على سائر الجذور بالغذاء الطيب

واذا كانت عبادة النجم لم تخل من حكمة فما بالك بعبادة البطل ! وعبادة البطل هي كما قلت الافراط في اجلاله افراطاً لا حدّ له ولا أحسب الا أن الابطال ما برحوا موضع اجلال الناس حتى في هذه العصور وانه لم يجل في صدر الانسان معنى أشرف من اجلاله لمن هو أعظم قدراً منه ولست بمخطيء ان قلت ان هذا المعنى هو الاثر الفعال في حياة الانسان أو قلت انه الاساس الذي يقوم عليه الدين لا أقصد الوثنية وحدها بل كل دين أشرف وأصدق — كل دين كان الى وقتنا هذا وهل ترون معشر الاخوان في ديننا النصرانية الا أنها عبادة واعجاب من صميم اللب وضراعة وخشوع لذات انسانية علية الهية هي ذات أشرف الابطال قاطبة — ذات من لا أسميه هنا ! بل أدع الصمت المقدس يتدبر ذلك الامر المقدس

واذا انحدرنا من قمة الدين الى منازل أحط وأدنى وجدنا في جميعها من احترام الوضيع للشريف وولاء الحقير للجليل ما يماثل الايمان في الدين اذ الايمان انما هو الولاء لنبي أو بطل مقدس وماذا ترى ولاء الصغير للكبير

الذي هو روح المجتمع الا فرعاً من عبادة الابطال ؛ فعبادة الابطال اذن هي أساس المجتمع والرتب والدرج الذي يقوم عليه التعاشر والتواصل هي ما يجوز أن نسميه «هيروار كي» أي حكومة الابطال فاهل الدرج والرتب في الامة هم لها بمثابة الاوراق المالية كلها يمثل الذهب وان كان الكثير منها لسوء الحظ مزوراً فقد نحتمل الاوراق المالية ونعيش بها وان وجد بينها المزور فاما ان تكون كلها مزورة فذلك مالا يقام عليه ولا يحتمل اذن تثور الفتن وتقوم الثائرات ويصاح بالديموقراطية والحرية والمساواة وغيرها اذ متى وجد الناس الاوراق كلها مزورة لا ينال بها من الذهب كثير ولا قليل أخذهم اليأس فاقبلوا يصيحون لا ذهب ولم يكن قط ذهبٌ والحقيقة ان الذهب — واعني به عبادة البطل — موجود برغم كل شيء في كل آن وكل بقعة ولن يفنى حتى يفنى الانسان

فشا في هذا العصر رأي باطل هو انكار وجود الابطال بل كراهة وجود الابطال اذكر لمعشر النقاد بطلا — الامام «لوثار» مثلا فاذاهم قد انبروا ينتقدونه — لا يأخذون في اجلاله بل في أخذ مقاسه ويسفر المقاس عنه رجلا عاديا ضعيفاً ضئيلاً ! ثم يقولون انما ما ينسب اليه من العظمة هو مستعار من أحوال عصره وظروف وقته فالوقت هو الذي أحدثه وشهره هو ابن الوقت وكل ما جرى على يديه هو من فعل الوقت لا فعله — هذا والله افن وسخف أيقول النقاد الوقت هو الذي أحدث ذاكم الرجل ؟ وآأسفاه ! لقد طالما صاحت الاوقات تنادي أين البطل ولا بطل أين العظيم ولا عظيم تصرخ الاوقات يا للفتى فيذهب نداؤها صيحة في واد ونفخة في رماد وما ذاك الا أن البطل والفتى لم يكن وقت النداء موجودا

ولم يكن الله قد أرسله رحمة للعالم وبعد أن يبح صوت الوقت ولا مجيب تنهار أركانه وينهدم بنيانه ويعمه الخراب والتلف لان البطل لم يدركه حينما صاح يستنجده !

والحقيقة انه ما كان عصر من العصور ليخرب ويتلف لو قد اتيح له رجل كبير يجمع بين العقل والتقوى — بين عقل يعرف به حاجة العصر وعزم يمضي به في ابلاغ العصر حاجته وفي هذين صلاح العصر وفلاحه ولكني اشبه العصور الضعيفة الواهنة المصابة بالكفر والبلاء والحيرة وأذهانها الشاكة العاجزة واحوالها المختلطة المضطربة يحدو بها سائق الشقاء الى غاية التلف — أشبه كل هذا بحطب يابس ميت ينتظر من السماء شهابا يشعله وما الرجل العظيم مرسلاً من قوس الله يجيش في صدره العزم ويغلي في عروقه البأس الا ذاكم الشهاب وما كلمته الا شفاء الغلة والتئام الجرح ومجتمع الاهواء ومستقر العقائد ثم لا يصيب الحطب حتى يلتهب من كل جانب ناراً كناره ولكن المنتقد يحسب ان الحطب هو الذي أوجد ذلك الشهاب نحن لا ننكر أن الحطب كان في شدة الحاجة الى الشهاب فاما انه أوجد الشهاب — ! يا لله من سخافة اولئك النقاد وحمقهم أما انه ليس أدلّ على حطة امرىء ولؤمه من عدم ايمانه بالعظماء ليس أدل على خسة جيل من الاجيال وضعته من عماه عن نور الله المقدس وايمانه بالحطب اليابس الميت هذا والله أقصى منتهى الكفر اذ أن الرجل العظيم ما برح في كل آن مستنقذ جيله من وهدة البؤس والشهاب الذي لولاه ما شبت النار في الحطب وليس تاريخ العالم الا كما قلت مجموع سير أبطاله

اولئك النقاد الاصاغر يبذلون الجهد في ترويج سوق الكفر ونشر

أعلام الضلال ولكنهم لا يفلحون اذ ما زال يظهر الرجل العظيم من آن الى آن فيرمي بحقه باطلهم فاذا هو زاهق واذاهم قد ظلوا من مذاهبهم في مثل بيت العنكبوت أو أوهى ثم لن يستطيعوا مهما حاولوا أن يقتلعوا من قلوب الناس عقيدة هى اجلال العظماء فطرية في طبيعة الانسان لا تزول مهما اعتورها من الفساد والوهن واجلال العظماء باق ما بقى الانسان فالكاتب جونسون له من صديقه بوزويل أضرع مقدس ومجل على أنهما كانا في القرن الثامن عشر أشد العصور كفرا وفجورا والامة الفرنسوية الكافرة تؤمن بفولتيرها وتظهر عبادتها الابطال في أغرب صورة حينما أمطروه بالازهار حتى كاد يغرق بينها ويختنق بها خفقاً اذا كانت النصرانية أعلى أنواع تقديس البطل فان الفولتيرية من أسفل أنواعه! فما أعجب أن يقع ذلك التقديس وتلك العبادة لرجل كانت حياته نقيض حياة المسيح وكان شيطانا مريداً هذا مع أن أبعد الناس من فضيلة التقديس والاجلال هم فرنسويو هذا الجيل وما ظنك بقوم كان الاستهزاء بكل شيء مذهبهم وشعارهم فليس في نفوسهم موضع للاجلال والاكبار ومع هذا فانظروا كيف كان صنيعهم بفولتير يدخل فولتير باريس عائداً من رحلة طويلة شيخاً فانياً متهدما قد جاوز الرابعة والثمانين فيحسون انه نوع من الابطال أمضى حياته في محاربة الضلال والظلم وكشف امور المنافقين من أرباب المناصب — انه بالاختصار ممن جاهد جهاد الابطال وان لم يسلك فى ذلك الا خطة غريبة نعم يحسون انه اذا كان الاستهزاء هو اكبر الامور ففولتير اذن هو أكبر الناس — هو الامام الاعظم الذي يقفون أثره ويتطلبون منزلته فهو في الحقيقة الهم الذي لا يصلح الا لهم ولا يصلحون الا له ولذلك عبدته

فرنسا من الملكة ماري انتوانيت الى الحارس الذي على باب «سانت دينيس» بل لقد جعل الرجال من اولى المنزلة والجاه يتنكرون في ازياء خدمة الفنادق لتسهل لهم رؤيته ويصيح الحوذي بفرسه: اسعدي أيتها الفرس فانك تسيرين بالمسيو فولتير وقد شبه أحد كتابهم تلك المركبة تخترق باريز برأس مذنب (نجمٍ ذي ذيل) قد ملأ جميع الطرقات ذيله ثم كانت السيدات يتسابقن لأخذ شعرة من فروته لتبقى لمن تفوز بها أثرا ظاهرا وذخرا ثميناً ولم يكن بين سكان فرنسا من شريف أو فاضل أو جميل الا كان يعتقد أن فولتير أشرف وأفضل واجمل

أجل ان البطل ما زال معبوداً منذ «اودين» الى «جونسون» ومن المسيح الى أحقر قسيس فى كل مكان وزمان وسيكون ذلك ما دام الليل والنهار لانه ما منا الا من يعشق الابطال — يعشقهم ويجلهم وينحني اكباراً لهم وهل ينبغي الانحناء لغيرهم ؟ بل الا يحس المرء ان في اجلاله لمن هو أرفع منه رفعة لنفسه ؟ وهل جال في صدر المرء احساس هو أشرف من ذلك وأقدس ؟ وانه ليسرني ويشفي نفسي انه ليس في طاقة السفسطة والاستهزاء والفجور والجحود ان تذهب من نفس الانسان تلك الغريزة الفطرية — عبادة الابطال . هذا وان أجيال الكفر التي تعقبها الفتن والثورات تكون مملوءة بدلائل الاضمحلال والبلى والخراب وانى لأرى في غريزة عبادة الابطال الصخرة الراسخة التي تتلقى الدول الساقطة في مهاويها فتمنعها من الضياع في اعماق الخراب فاذا انتهت الدولة المتدهورة الى تلك الصخرة وقفت بها ريثما تهيء نفسها للنهوض ثم تشرع ترتقى وتصعد حتى تعود الى أحسن مما كانت عليه وهكذا يظهر لي أن عبادة الانسان للبطل هي الصخرة

الحية وسط كل سقوط وتدهور — هي النقطة الوحيدة الثابتة في التاريخ الثوروي الحديث والا كان هذا التاريخ كالبحر لا يعرف عمقه قراره ولا تعرف سعته شاطئاً

كذلك أجد ان الوثنية روحها الحق وان كان لها ظاهر مشوّه كيف لا والطبيعة ما زالت مظهر صنع الله وما زال البطل يعبد ومن هذا وذاك تألفت الوثنية وان اتخذت من الاشكال والاوضاع الحقير والمنكر وظني أن وثنية قدماء النرويج أمتع لنا من كل ما عداها لانها (أولاً) آخر الوثنيات عهداً اذ ما زالت مستمرة حتى القرن الحادي عشر فمنذ ثمانمائة عام كان أهل الاسكاندينفيا يعبدون « اودين » ثم هي هامة لنا من حيث أنها ديانة أبائنا اولئك الذين ما برحت دماؤهم جارية في عروقنا والذين نُشبههم في عدة وجوه فعجباً أيها الاخوان ان يكون بين معتقدهم ومعتقدنا ذلك الخلاف

(وبعد) فلنلق نظرة في عقائد اولئك القوم لجملة أسباب ولنعلم ان ذلك من الممكن ثم من السهل لأن تاريخ هذه العقائد قد قدر له الحظ فسلم على تقلبات الدهور وغوائل الحدثان



في تلك الجزيرة العجيبة المسماة « ايسلاندة » التي يخبر علماء طبقات الارض أنه استثارها زلزال ناري من قعر البحر — وهي بقعة موحشة يباب جرداء يشوب أديمها تراب البراكين ومن خواصها أنها تبقى بضعة من اشهر العام مطوية في أجواف العواصف السوداء الا أن لها مع ذلك في فصل الصيف لالاء جمال موحش قفر — وهى وسط العباب الخضم تسمو صُعُدا مكفهرة الجبين جهمة الطلعة تبدو بها لمع الثلج كتفاريق الشيب فى الهامة

الشمطاء وتفور فيها الينابيع الحارة حتى تئزّ مراجلها وتهدر (شقا شقها) الى غدران من سائل الكبريت وكهوف بركانية مظلمة فكأنما الجزيرة آثار معترك لتكافح جيوش الجليد والنار — في هذه الجزيرة وهى أبعد ما يرجى أن يكون به تاريخ مرقوم عثر العاثرون على تاريخ الوثنية التي نحن بصددها وعلى شاطيء هذه الجزيرة القفر مستدق من تربة معشبة قد تعيش فيها الانعام والانسان من خير هاتيك النعم ومما يجود به اليمّ وكأنما كان ناس هذه البقعة المخصبة قوماً شعراء أعني ذوي صدور جياشة بالمعاني والسنة بها ناطقة فكلما تأملت علمت انه كان يفوتنا شيء كثير لو لم تبعث البراكين تلك الجزيرة من قعر المحيط فلم يعمرها طوائف الاسكانديناف ! اذ الحقيقة أن معظم شعراء الشمال القدماء كانوا من أهالي «ايسلاندة»

وكان بالجزيرة فى أوائل أمر المسيحية قسيس نصرانى يدعى «سيمند» لعله كان لا يزال ينزع به عرق الى دين آبائه الوثنية فاخذ يجمع عددا من أغانيهم القديمة — مما قد طال عليه القدم فامسى حوشيا مهجورا — وكان توحيديا صوفياً عليه مسحة دينية وهذه المجموعة هى ما يسميه ادباء الشمال ال « الالدار » أو ال « ادّا » الشعرية وهى كلمة مشكوك في اشتقاقها لعل المراد بها « السلف » وبعد قرن من ذلك جاء رجل من سادة الجزيرة يدعى «سنورو سترلسون » وكان قد تلقى العلم من حفيد القسيس «سيمند» فكتب فيما كتب تاريخاً حافلاً لعقائد الوثنية وجعله نثراً مفصلا بشذور من النظم فجاء كتاباً بديعاً مونقاً بريئاً من كل أثر للتعمل والكلفة وهو ما نسميه « عفو الخاطر » وهذا الكتاب هو المسمي بال « ادّا النثرية » فبفضل هذين المؤلفين وشتى أغانى غيرهما جلها «ايسلندى» وبفضل ما كتب

عن جميعها من الشروح والحواشي بين « ايسلندي » وغير ايسلندي مما هو للآن مستمر في البلاد الشمالية قد نستطيع أن نعرف بعض اليقين ونبصر تلك الوثنية وجهاً لوجه ولنتاس قبل كل شيء انها دين باطل بل نتأملها على أنها فكر قديم ثم ننظر اما يمكننا أن نعتذر لها ونرتاح اليها شيئاً ما

ان أول خواص هذه الوثنية في رأيي هو الايمان الصريح بأن القوى الكونية هي أرواح كبيرة مدهشة رائعة مقدسة فتلك الاشياء التي تلق فيها الآن علوم الطبيعة والفلك والكيمياء كان هؤلاء القدماء يندهشون لرؤيتها ويركعون لها اجلالا ومهابة أعني أن ما نراه نحن فنا من العلم كانوا يرونه هم دينهم وعبادتهم كانوا يصورون من القوى الكونية الضارة المخوفة جانا ومردة « جوتان » مخاليق جساما شعثا غبرا شنع الصور لهم طبائع الشياطين والابالسة والجليد والنار وزوبعة البحر من هذه الجان والمردة أما القوى النافعة كحرارة الشمس والشمس فهي آلهة وبين هذين الفريقين تنقسم دولة الكون وهما يعيشان منفردين كل فريق في جهة ثم لا تخمد قط بينهما ثائرة الحرب ويسكن الآلهة الجنة (اسجارد) في السموات ويقطن المردة في بقعة قصية مظلمة خراب اسمها دار المردة «جوتنهيم»

عجب كل هذا أنا لا أراه باطلا ولا خرافياً وكل من أصاب بالنظر الثاقب لبابه وسرّه وسبر بمسبار الفحص عمقه وغوره كان رأيه فيه رأيي فقوة النار التي نخفي نحن ما بها من آية العجب في طي اسم كيماوي نجعله حجاباً لروعة هولها كان القدماء يرونها عفريتاً سريع الحركة خفيّ المدب من قبيلة المردة «جوتان» وكذلك حسب قبائل المتوحشين من جزائر «لادرون» (هكذا ذكر أحد رحالة الاسبان) النار وكانوا لم يروها قط من قبل نوعا من

الشياطين أو ضرباً من الآلهة يعضك اذا مسسته ويعيش باكل الخشب وكذلك أرى انه ما كان في قدرة أي كيمياء قط ان تخفي عنا ما بالنار من عجب لولا ما يعينها من الحمق والغباوة ما هي النار ؟ — أما الجليد — فقد رآه كاهنهم القديم شيطاناً فظيعاً أشيب الرأس واللحية وسائر الشعر — المارد «هيرم» أو «رايم» وهي كلمة بطل استعمالها الا في بعض اودية «سكوتلاندة» وهكذا لم يكن الجليد عندهم كما نراه الآن شيئاً ميتاً ولكنما شيطان حي تراه اذا أظلم الليل يسوق أفراسه الباق الى كهفه حيث يقبل عليهن يمشط شعورهن — وهذه الافراس البلق هي سحب البرد ورياح الجليد أما بقره فهي جلاميد الثلج ثم ان هذا الشيطان يضرب تلك الجلاميد بعين عفريت فتنفطر وتتصدع

ولم يكن الرعد في تلك الاوقات مجرد كهرباء وانما كان الاله «دونار» (ثاندار)[1] — اله الرعد وهو أيضاً اله حرارة الشمس ذات الخير والبركة وانما زمجرة الرعد هي غضبه وسخطه وما احتشاد السحاب السود وازدحامها الا تقطيب جبين ذلك الاله وكسر حاجبيه وما الصاعقة تنقض من السماء الا السنان اللامع يطير من كفه ثم هو يدفع عجلته الصخبة فوق قلل الجبال فدويها وقعقعتها هو جلجلة الرعد وتراه من غضبه ينفخ في لحيته الصهباء فذلك خفيف الريح قبل الارعاد و «بولدار» الاله الابيض الجميل العادل المنعم (الذي وجد المبشرون الاول انه أشبه شيء بالمسيح) هو اله الشمس — أجمل الاشياء الظاهرة — واحدى العجائب والاسرار رغماً من جميع الفلكيين وعلم الفلك ! ولكن أعظم الآلهة في ظني هو ذلك الذي عثر على

---

(١) كلمة انكليزية معناها الرعد

أثره العالم الاشتقاقي الالماني «جريم» وهو الاله «ونش» أو «وش» [1] اله الطلب الذي يعطينا كل ما نطلب ! اليس ذلك اخلص دعاء النفس الانسانية واعمق أصوات الروح ؟ وان لم تكن بعدُ دعاء مهذباً وصوتاً منقحاً هذا أبسط أراء الانسان وهو مع ذلك عنصر جوهري في أحدث مذاهب الدين

واذكر من باقي الالهة «آجير» اله الزوبعة وذلك لان النوتية بنهر «ترنت [2]» ما برحوا للآن متى أبصروا الماء قد طما في حالة المد (وهي حالة خطرة) صاحوا «حذرا فأن آجير» قادم عجباً لهذا اللفظ قد بقي بعد زوال تلك القرون كأن دنيا طغى عليها الماء فغرقت في عبابه الا ذؤابة قمة ما برحت لابصارنا بادية ! وقد كان أسلاف هؤلاء النوتية في العصور الغابرة يؤمنون بالاله آجير وما ذلك الا لأن تلك القبائل الشمالية البائدة قد نزلت ببلادنا قديماً وضربت في انسابنا فَدَمُنا مزيج من السكسوني والدنماركي والشمالي ولا أرى بين أحد هذه الثلاثة والآخرَين الا فرقاً سطحياً مثل ما أرى بين النصراني والمسلم والوثني

وعن الهم الأكبر أودين سنتكلم قريباً ان شاء الله ولكن اعرفوا قبل ذلك ماذا كان جوهر الوثنية الاسكاندينيفية أو الشمالية : هو الايمان بقوى الكون واعتبارها الهية رائعة شخصية — أعني آلهة وأبالسة ولعله قول معقول ومفهوم وكذلك كان الفكر الانساني في طفولته يتفتح لرؤية الكون الهائل تفتحاً مشفوعاً بالعجب والهيبة وقد أرى في هذا النظام الوثني معنى حراً جزلا شريفاً وسذاجة قوية لم تهذب جد مخالفة لرشاقة الوثنية اليونانية وخفتها والحق يقال أن مذهب الوثنية الشمالية ما هو الا فكر صريح

---

(١) كلمة انكليزية معناها «طلب» (٢) نهر بانكلترا

قوى هو الفكر العميق الحر يتفتح في قلوب صحيحة حارة لرؤية الكائنات رؤية وجه لوجه وقلب لقلب وهو أول خصائص الفكر الصحيح فى كل آن فاست ترى لتلك الوثنية الشمالية ما كنت ترى لاختها اليونانية من الرقة واللعب انما تتبين فيها قوة ساذجة وحقاً مألوفاً واخلاصاً جما كبيرا وانه لمن الغريب ان نهبط من صرح الوثنية اليونانية البديع مصفوفة صوره منضودة دماه فى أبدع نظام واجمل نسق الى بيوت الوثنية الشمالية تمرح فى أفنيتها آلهتها وتخمر النبيذ لتشربه مع «آجير» اله الزوبعة ثم يرسلون «ثوراً» اله الرعد ليحضر المرجل من ديار الشياطين ويذهب «ثور» الى تلك الديار وبعد الجهد الجهيد يأخذ المرجل فيلبسه على رأسه كقلنسوة وينقلب راجعاً وقد غاب تحت المرجل وبلغ المرجل مواطئ قدميه ! وكذلك ترى لهذا النظام الوثني ضخامة جوفاء وجسامة شوهاء وقوة هائلة الا أنها لم تهذب فهي كطفل المارد كبير القدم فسيح الخطوة لكنها قدم عاثرة وخطوة طائشة فانظروا أصلحكم الله ماذا كان رأيهم في خلق الدنيا

لما تحارب الجليد والنار حدثت ريح حارة تكون منها مارد اسمه «يمير» ثم احتال الالهة حتى قتلوا ذلك المارد وأخذوا جثته فجعلوها دنيا فاما دمه فذلك هو البحر وأما لحمه فهو الارض والصخور عظامه ثم جعلوا حاجبيه مسكناً لهم أعني الجنة أو «اسجارد» وجعلوا جمجمته قبة السماء وما بها من دماغ فهو السحاب فهذه استعارة طرفها في المشرق والآخر فى المغرب وأصلها في الأرض وفرعها في السماء — آراء جسام ماردية هائلة ما زالت بها العصور تهذبه جبروتها وتذلل طغيانها وتحولها عن الطبيعة الماردية الى الصفة الالهية والثانية أقوى ولا ريب من الاولى — ما زالت بها

العصور حتى حولتها الى أفكارشا كسبيرية ومعان لوثرية[1] فاولئك الوثنيون القدماء هم اباء أدياننا مثلما هم آباء أجسامنا

ويعجبني منهم كذلك تشبيههم الحياة بشجرة جذرها في مملكة الموت ثم يسمو ساقها صُعُدا الى السماء فينشر ذوائب فروعه على جميع انحاء الكون وهذه هي شجرة الوجود ويجلس عند أصلها في مملكة الموت ثلاثة أقضية (جمع قضاء) الماضي والحاضر والمستقبل يروون جذورها من البئر المقدسة ثم تمتد أفرعها وما يجري بها من ايراق وازهار واثمار وسقوط أوراق وأزهار وثمار — ويكني بهذه عن الحوادث والمحن وصروف الزمن وتقلبات الحال — تمتد أفرعها بكل هذه الامور في جميع الامكنة والازمان أليست كل ورقة من أوراق هذه الشجرة ترجمة انسان وكل خيط من خيوط تلك الورقة كلمة أو فعلة ؟ وأفرعها تواريخ الامم ووسواسها صوت الحياة صادرا عن الابد الى الابد فاذا تنفس في خلالها النسيم فتلك زفرات القلب الانساني وان صاحت بين افنانها العاصفة فذاك صوت الآلهة

هذه شجرة الوجود — هي الماضي والحاضر والمستقبل — ما كان وما يكون وما سيكون — تصريف فعل « يكون » تصريفاً لا نهاية له فاذا تأملتم معشر الاخوان كيف ان جميع الافعال البشرية تتسلسل وتتصل وليس واحد منها الا آخذا بعنق الآخر متداخلا فيه — وكيف ان الكلمة التي ألقيها عليك اليوم مستعارة من جميع العالم منذ جرت أول لفظة على لسان أول متكلم — اذا تأملتم كل ذلك رأيتم انه لا تشبيه قط أصدق من تشبيه الشجرة هذا : نعم ما أجمله وما أجله اذا قستموه باستعارة أهل هذا العصر

---

(١) نسبة الي لوثر . رأس المذهب البروتستانتي

التي تشبه الوجود بمكينة « مكينة الوجود » بل أرى تشبيه الاقدمين أشرف من أن يقاس بتشبيه المتأخرين وأنبل ! حقاً ان مذهب أولئك الوثنيين الشماليين لعجيب مخالف لما نعتقده نحن فى الطبيعة فمن أين أتى ؟ من أفكار اولئك الشماليين ولا سيما من فكر أول رجل شمالي وهبه الله قوة الفكر — أول شمالي نابغة عبقري كما ينبغي ان نسميه ! وكم قبل هذا الرجل قد عاش في العالم من رجال غير ذوي فكر لم يك منهم ازاء هذا الكون الرائع الهائل الا العجب الابكم كالذي يحسه الحيوان أو العجب المشفوع بالسؤال والبحث المتعب الكادّ بغير طائل كالذي يشعر به الانسان حتى أتى الرجل المفكر الكبير — الرجل العبقري الذي يوقظ فكره راقد الافكار في جميع الاذهان وكذلك شأن المفكر أو البطل الروحاني فان ما يقوله قد كان كامناً في نفوس العامة وكانوا يحسونه ويتلهفون على أن ينطقوا به ولكن لا سبيل فما هو الا أن ينطق ذلك البطل حتى تثور جميع الافكار من مكامنها كأنما هبّت من رقاد طويل فتجيب الدعوة أسرع اجابة فرحة به فرح الساري بالصباح ولا غرو فانما هو خروج من العدم الى الوجود — من الموت الى الحياة — فياسقى الله عهد ذلك الرجل الكبير فانه جدير ان يسمى شاعراً وكبيراً وعبقرياً وما شا كل ذلك وان حسبه أهل عصره ساحراً وصاحب معجزات ومسدى اياد وآلاء ونبيا والها ! والفكر متى انبعث فلن ينام بعد مبعثه أبداً بل يعود معدن أفكار تصدر عنه طائفة بعد طائفة ويزكو غرسه فى رجل بعد رجل وجيل بعد جيل حتى يبلغ كماله فاذا بلغه لم يكن ثمت مجال للنماء وانما يقلع ذلك الغرس ويخلي مكانه لغيره ونحسب ان مثل هذا الرجل كان موجوداً فى أمة الشمال وهو الذي

كانوا يدعونه الاله أودين — وكان لهم أستاذاً واماماً فى أحوالهم الروحانية والجثمانية وبطلا كبيراً لا تقدر قيمته أفرط اجلال الناس له حتى صار عبادة ولاجرم فانه أهل لذلك أفما كان قد أوتي فضيلة النطق بالفكر الجليل وفضائل أخرى كانت اذ ذاك من المعجزات فما لهم لا يشكرون آلاءه من حبّات قلوبهم أما فسّر لهم لغز هذا الكون وعرّفهم ماذا يجب عليهم في هذه الدار وماذا ينتظرون في الدار الآخرة وأنطق الوجود وأحيي الحياة ! فهو منشأ الوثنية الشمالية وأكبر ظني ان أودين هذا أو أول مفكّر من أمة الشمال كيفما كان اسمه كان ولا شك رجلا يعيش بين الرجال وهو ما كاد ينشر رأيه في الكون حتى ثار في جميع الاذهان مثل رأيه تماماً فكأنما كان مكتوباً على صحائف الاذهان بالحبر المغطي فما هو الا ان فاه بكلمته حتى انكشف غطاء الحبر فظهر واستبان وكذلك ما زال قدوم الرجل المفكّر على العالم هو الحادثة الكبرى أمّ سائر الحوادث !

ثم لا ننسى شيئاً آخر أحسب ان فيه بعض البيان لمشكلات تاريخ الوثنية الشمالية أل « ادّا » وذلك انها ليست نظاماً فكرياً واحداً متماسكاً ولكنها مجموعة نظامات شتى الاصول والازمان ولن يعرف الناس قط تواريخ هذه النظامات وكيف تنقلب من صورة الى صورة بما أدخله عليها مفكّر بعد مفكر الى أن لبست الهيئة التي نراها لها في كتاب أل « ادّا » كلا ولن يُعرف ما صنعه « أودين » نفسه وماذا عسى ان يعرف من الانباء عن « أودين » بل انى يعرف عنه انباء وكيف يكون له تاريخ وعجيب ان يكون اودين هذا بكسائه الوحشي ولحيته الوحشية ومقلته الوقادة الوحشية ولهجته الخشنة الشمالية بشرا مثلنا تناله أحزاننا

وأفراحنا ويمشي على مثل أرجلنا وأقدامنا عجيب ان يكون مثلنا حذوك النعل بالنعل ثم يكون قد أتى كل هاتيك المدهشات والغرائب : ولكن هـذه الغرائب قد بادت وباد الصانع الا اسمه : اودين : اذ ان لفظة « ودنزداي »[١] أصلها « اودين زداى » ولعل في هـذه اللحظة اناس ينطقون هذا اللفظ فليس يوجد لاودين تاريخ وليس فيما رجّم فيـه المرجّمون ما يستحق ان يذكر

قد زعم المؤرخ « سنورو » زعما لم يخجل منه على وضوح سخافته بل شفعه بامتن لهجات الثقة أو القِحَة وذاك ان اودين كان أميراً وفارساً بطلا في بقعة بقرب البحر الاسود له اثنا عشر تابعاً كلهم سيد عشيرته ثم ان بلادهم ضاقت بهم فخفوا الى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد ان فتحوا تلك الاقطار وان هذا الامير اودين اخترع الحروف الابجدية والشعر وغيرهما ثم آل به الامر الى أن اتخذه أهـل اسكانديتفيا الهـا معبوداً واعتبروا اتباعه الاثنى عشر أبناء له وآلهة كذلك هـذا مالا يشك فيـه المؤرخ « سونورو » ولكن المؤرخ « جراماتيكاس » وهو آخر من أهـل الشمال أشـد ثقة برأيه من « سونورو » لا يصعب عليـه أبداً أن يختلق لكل خرافة من خرافات القدماء أصلا وحقيقة ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة عادية وقعت ببلاد الدينمارك أو غيرها ويجيء المؤرخ « تورفوس » بعـد هـذين بقرون وهو يا للاسف عالم ومحترس فيضع تاريخاً لزمن اودين اذ يقول ان اودين قـدم أوربا عام سبعين قبـل الميلاد وبما ان هذه الاقوال ظنون أساسها الشك قد كشف بطلانها الزمن فلا حاجة بي

---

(١) انكليزية معناها يوم الاربعاء .

هنا الى تفنيدها بل حسبي ان أقول ان تاريخ اودين كان قبل عام ٧٠ بادهار طويلة وأزمان مديدة ! ولا أرى أودين وتاريخ وجوده ووقائعه وسائر تاريخه الا شيئاً قد غاب عنا البتة وسط الآلاف المؤلفة من غابر الاعوام

ويجيء بعد ذلك المؤرخ « جريم » الالماني فينكر وجود « أودين » بالمرة ويثبت قوله بعلم الاشتقاق فيقول ان لفظة « فوتام » التي هي أصل كلمة « أودين » المجعولة علماً على الاله الاكبر لدى جميع الشعوب التيوتونية في كل مكان — هذه اللفظة التي تتصل حسبما زعم « جريم » باللفظه اللاتينية « فادير » واللفظة الانكليزية « و يد » الخ — معناها القديم « الحركة » و « القوة » فهي الاسم اللائق للاله الاكبر لا لمخلوق قال جريم وهذه الكلمة اسم لله عند قدماء السكسون والجرمان وسائر الامم التيوتونية والنعوت المشتقة منها كلها في معنى مقدس وأكبر وما شاكل حسن وأيم الله ما قال المسيو « جريم » ثم لا يسعنا الا الاذعان للسيد المذكور في جميع المسائل الاشتقاقية فلنقر ولنقتنع بأن كلمة « فوتام » أو « أودين » يراد بها « الحركة » و « القوة » فما الذي يمنع ان تكون اسماً لرجل بطل محرك كما انها اسم لاله ؟ فاما من حيث ان النعوت المشتقة منها كلها في معنى مقدس وأكبر أليس قد اشتق الاسبانيون من اسم بطلهم الكبير « لوبي » حينما غلا بهم تقديسه لفظة « لوبي » نعتاً لكل شيء أفرط جماله حتى قالوا بستان لوبي وورد لوبي وغادة لوبي :فلو ان ذلك استمر لاصبحت كلمة لوبي وهي نعت من نعوت الاسبانية معناه ملائكي الجمال أو الهي الجمال ولقد قال آدم سميث في مقالته على اللغة انه ما من نعت الا وكان في الاصل اسماً لشيء من الاشياء ثم قرن على سبيل المجاز والاتساع

الى كل شيءٍ شارك الشيء الاصلي في صفته فكلمة أخضر مثلاً كانت في الاصل اسماً لشيءٍ شديد الخضرة ثم ان الناس كلما أبصروا شيئاً فيه خضرة — عشباً مثلاً — قالوا عشب أخضر وما نزال نقول ساعة ذهباً وخاتماً حديداً فكل النعوت في زعم « سميث » كان أصلها أسماء وأشياء ولا يسعنا ان نعدم رجلاً ونقضي عليه لمجرد مسائل اشتقاقية كهذه ! ولا شك في انه قد كان لأولئك القبائل القديمة رجلا كان أول أستاذ وقائد وحقاً لقد وجد في وقت ما رجل هو « أودين » أو مثل « أودين » يبصر بالعين ويلمس باليدين وليس من النعوت بل بطلاً مصوراً من لحم ودم !

فاما كيفية صيرورة الرجل «اودين» الها — الاله الاكبر — فهذا ما لا أحسب ان احداً يحب أن يتفلسف فيه وقد قلت ان اهل عصره لم يعرفوا لاجلالهم اياه حداً بل لم يكن لديهم اذ ذاك ميزان يزنون به الاجلال فان أردت أن تتصور اجلالهم ذاك فتوهم اجلالك لبطل من أكبر الابطال وحبك اياه حبا من صميم الحشا ما يزال ينمو ويزداد حتى يتجاوز كل مقدار ويفوت كل حد وحتى يمتلئ به وعاء صدرك ويطفح أو ربما كان ذاك الرجل «اودين» اذ منحه الله العقل الكبير وبعث في ذهنه نوراً من لدنه وفجر في نفسه ينبوعاً من عنده أصبح يرى نفسه سرا من الاسرار ولغزاً لا يحل وشيئاً يوجب الرعب والدهش في نفسه هو فحسب انه ربما كان الهي المنشأ أي شعبة من القوة الكبرى والذات العليا المسماة «فوتان» او «أودين» (بمعنى القوة العظمى) أنا لا احسب ان ذلك قد كان منه غشا وتدليسا انما هي هفوة وهو أصدق ما لديه والحقيقة ان كل ذي نفس كبيرة صادقة لا يعرف من ذا هو — فيخال

نفسه طورا في أعلى قمة وآنا في أسفل حضيض ويظل ولا شيء أشكل عليه من أمر نفسه ثم ترى ان رأي الناس فيه وظنه هو بنفسه يؤثر كل منهما في الآخر بما يحدث نتيجة فاذا أبصر الناس قد عكفوا عليه يقدسونه وأحس هو في فؤاده حرارة وجدان شريف ووقدة شعور طاهر كبير وخليطاً مشوشاً من ظلمة حالكة ونور وهاج ثم نظر فاذا حواليه كون هائل يقطر من جميع انحائه ماء الجمال:هذا:وقد علم انه لم يسبقه الى هذا المقام العلي انسان — خبروني نشدتكم الله ماذا عساه يحسب نفسه؟ كأني به يناجي نفسه «أأنا قوة كبيرة» فاذا الناس أجمعون يجيبونه «بلى قوة كبيرة!» «فوتان» أو «اودين»

ثم اذكروا ما لمجرد مر الدهور وتقادم العهد من التأثير العظيم في مثل هذه الامور وكيف ان الرجل الذي كان اثناء حياته عظيماً تبلغ عظمته بعد الممات عشرة أمثالها وظلمة القِدَم من شأنها ان تجسم ما يصير فيها وكذلك اذا كان للشيء الها لك محبة في الفؤاد واجلال استفحل في الذاكرة وتجسم في الخيال فما بالكم اذا كان العصر عصر ظلمات وجهل مطبق فلا تاريخ ولا كتاب ولا رقعة ولا نقش في حجر اللهم الا صخرة صماء على سبيل الاثر هنا وهناك بلى والله انه لولا الكتب لأصبح كل رجل جليل بعد أن يمر على وفاته وفناء جيله أربعون عاماً ضربا من اولئك الابطال الذين تسمعون عنهم في خرافات القدماء فماذا يكون اذا مضى على وفاته ثلاثمائة أو ثلاثة آلاف عام! — انه لا فائدة في التفلسف في مثل هذه الموضوعات فانها تأبى بطبيعتها البحث والاستقصاء ولا مجال فيها لعلم المنطق والبرهان وحسبنا أن نلمح في أقصى أعماق ذلك الدهر البائد وميض نور حقيقي يبرق

في جوف تلك الصورة المختلطة المعتمة — حسبنا انه لم يكن صميمها بزور ولا جنون وانما حق ومعقول

ويزعم ان « اودين » اخترع حروف الهجاء وكان يأتي بها ضروباً من السحر فهبوا ذلك صحيحاً أفليس اختراع الحروف هو أكبر اختراع منذ أقدم الدهور الى وقتنا هذا ؟ وهل هنالك شيء أكبر من ابراز كوامن الافكار بعلائم ظاهرة ؟ أليس ذلك نطقاً ثانياً لا يقل غرابة واعجازاً عن الاول ثم الا تذكرون ماذا كان اندهاش ملك « بيرو » المسمى « اتاهولبا » عند ما أرى الحروف الهجائية وكيف صعب عليه ان يصدق بتلك المعجزة فأمر أحد احراسه من الجند الاسبانيين ان ينقش على ظفره لفظة « ديوص » ليمتحن بها الجندي الذي الى جانبه حتى يتحقق صدق هذه المعجزة فاذا كان أودين قد أوجد الحروف في أمته فما باله لا يأتي بفنون من السحر ؟

ويحكي لنا المؤرخ « سنورو » أيضاً ان « اودين » اخترع الشعر الذي هو موسيقى الكلام فتخيلوا أصلحكم الله أنفسكم في هذه العصور عصور طفولة الامم — في تبلج صباح الشعوب الاوربية اذ يشرق في جميع الأنحاء لألاء جديد نديّ واذ أوروبا طفلة قد بدأت تفكر بل بدأت تكون ! فكل قلب به دهشة وكل نفس بها رجاء — رجاء ودهشة يتوهجان في جميع النفوس شعاعا جمّاً ونوراً عميما ! أولئك كانوا أبناء الطبيعة الاقوياء وكان لهم في « اودين » فوق كونه قائدهم وفارس خيلهم شاعر ونبي ومفكر صادق كبير ومبدع ومخترع وكذلك شيمة الرجل الجليل في كل آن ان يكون بطلا من جميع جوانبه بطلا قبل كل

شيء في روحه وفكره وهكذا كان لذلك البطل المتوحش « اودين » الى أمته كان له قلب كبير قد فتح أبوابه فتلقى هذا الكون الكبير وتلقى الحياة الانسانية كما كانت. حينذاك ثم قال كلمته في هـذه وذاك فهو كما قلت بطل في صورة وحشية اولية ولكنه بطل عبقري كريم النفس شريف الخلق فاذا كنا نحن أبناء القرن التاسع عشر لا نزال نعجب بذلك الرجل فماذا كان اعجاب أولئك المتوحشين به حقا لقد كان عندهم بطلا بل نبياً بل الها أو بعبارتهم هم « فوتان » أي « اودين » ومعناها القوة الكبرى والفكر رعاكم الله فكر في أي صورة بدا وعلى أي شكل ظهر حتى لأحسب ان « اودين » هـذا هو من قبيل أكبر ابطال العالم وحسبكم برهانا فكره الكبير في قلبه الوحشي العميق ! أفلا ترون في كلماته الخشنة جذور ألفاظ انكليزية لا نزال نستعملها ؟ وما وجوده في تلك العصور المظلمة بضائره وهو نجمها اللامع وشهابها الساطع

فجدير بنا ان نرى فيه انموذج الرجل الشمالي وأشرف بني جلدته ثم ما كاد يظهر في قومه حتى تفجرت قلوبهم له عن أخلص الولاء وأصدق العبادة فهو الجذر الذي أنبت أشياء جمة ولا تزال ثماره يانعة يرف رونقها في جميع ارجاء الحياة التيوتونية حتى ان كثيراً من أسماء بلادنا واسم يوم الاربعاء كما ذكرت مشتقاً من لفظة « اودين » أفلا ترون بعد ذلك ان آثار الرجل قد جاوزت الى بلادنا وان افرعا من فروعه قد امتدت الينا ومن ذلك الجذر ذيّاك الورق !

فاذا كان الرجل اودين قد باد وهلك ذكره فهذا ظله الواسع المديد

ما زال ينشر أعلامه على تاريخ الامم التيوتونية جميعه لانه متى سلّمنا ان اودين كان وقتاماً الهاً أمكننا ان نفهم ان نظام افكار الافدمين أو عدم نظامهم أو بالاختصار كل ما كان لديهم قبل مجيء هذا الرجل قد أخذ بعد مجيئه وتعاليمه في طريق آخر ولبس هيئة جديدة اذ جعل جميع الامم التيوتونية ينقشون على ألواح ضمائرهم كل ما قال ذلك الرجل وعلّم بحروفه وشعره وأصبح مذهبه مذهبهم ورأيه رأيهم وكذلك شأن الرجل الكبير في كل حين أو ماترون في العقائد الاسكاندناقية التي يصعد ظالها الهائل من اعماق ظلمات الاعصر الخاليات فينتشر على الافق الشمالي صورة الرجل « اودين » ؟ نعم الفكر فكر كيفما كان وما كانت حياة الرجل العظيم لتكون قط عبثاً وما تاريخ العالم الا مجموع سير ابطاله !

بيد اني أرى في صورة ذلك التاريخ القديم شيئاً مرفقاً للافئدة وهو افراط أولئك القوم المتوحشين في حب بطلهم وان شاب ذلك الحب سذاجة وعجز نعم انه وان شابه منتهى العجز فلقد كان في منتهى الوفاء والشرف وهو فوق ذلك وجدان قديم خلقه الله حين خلق الانسان وأما لو أمكنني ان أفهمكم مالم أزل أعتقده منذ زمن مديد من أن هذا الوجدان هو عنصر الرجولة الحيوى وروح تاريخ الانسان في هذه الدنيا لكان لكم في ذلك غنية عن كل ما سوف ألقيه عليكم من هذه المحاضرات نحن لا نعبد أعاظم رجالنا الآن كلا ولا نفرط في اجلالهم بل نقتصد — يا للاسف — في اجلالنا لهم الأم اقتصاد ! فهذا وربكم شر ونكر ولكن خلوّ العالم من العظماء اشر وأنكر وأدهى وأمرّ

وكذلك نرى في مذهب هؤلاء الوثنيين على علاته فضلا وقيمة ثمينة

وهو وان لم يكن اليوم بحق فقد كان في يومه حقاً أليست كأنها صوت آبائنا الأول يصيح من اعماق القرون الغابرة يهيب بنا نحن أبناءهم الذين لا تزال عروقنا تزخر بدمائهم يقول « هـذا رأينا في الدنيا هذا كل ما استطعنا ان نصور به لانفسنا سر هذه الحياة وهذا الكون فلا تحتقروا رعاكم الله رأينا ومبلغ جهدنا واجعلوا بدل احتقاركم لنا شكراً لله الذي رفعكم فوقنا درجات فأصبحتم بحمده أكثر منا اشرافاً على كونه وأصح رؤية ولكن لا تحسبوا أنكم بلغتم القمة فان رأيكم وان فضل رأينا لكنه ما زال جزئياً ناقصاً والامر أعظم من أن تناله مدارك انسان لا أثناء الزمان ولا خارج الزمان وكأني بالانسان بعد ان تمر عليه من هذه اللحظة آلاف السنين بالرقي والنهوض لا يزال يجد ان أقصى جهده هو الالمام بطرف من اطراف هذا الكون فان الامر كما قلت أكبر من الانسان وليس في وسعه أن يفهمه وكيف وهو شيء عديم النهاية ! »

الايمان بأن الكون شيء الهي مقدس ومناجاة المرء للقوى الخفية البادية آثارها فيما حوله من الكائنات هو عنصر خرافات الاسكاندناف وسائر الخرافات ولعل الوثنية الاسكاندناقية أصدق في هذا الامر من جميع ماعداها اذ الاخلاص أكبر خواصها وهذا الاخلاص هو عزاؤنا عن خلو ذلك المذهب مما يزين وثنية اليونان من الرقة والتهذيب فقد أحس ان هؤلاء الشماليين كانوا يتأملون الطبيعة بعين بصيرة وروح يقظى وقلوب صحيحة مخلصة جمعت بين معني الطفولة والرجولة الى سذاجة في شرف احساس وعمق في نشاط وصفاء واجلال في شغف واخلاص في شجاعة فلله أولئك القوم ما كان أشجعهم وأصدقهم وكذلك ترى

ان هذا الايمان بالطبيعة قد كان أكبر عناصر الوثنية فاما الايمان بعظمة الانسان وواجباته الالهية والادبية وان لم يكن مفقوداً من الوثنية فهو العنصر الاهم في الاديان والاطهر والاصفى وكذلك ترى ان الانسان يذهب في أول أمره الى الطبيعة وقواها فيرتاع لها ويعبدها ثم لا يعرف انه لا قوة في الحقيقة الا القوة الادبية وان أهم الامور هو تمييزه بين الخير والشر بين الفرض والمحرّم الا بعد تصرم الدهور الطويلة

أما من حيث الخرافات المذكورة في كتابهم المسمى ال «ادّا» فهي كما ذكرت آنفاً أحدث عهداً من مدة «اودين» ولعلها لم تكن في نظر اولئك الاقوام الا ضرباً من اللهو والفكاهة ولم تكن انجيلاً لهم ولا توراة اذ أن العقيدة كما قدمت لابد أن توجد أولاً ثم تزدحم حولها الاقاصيص الشعرية التفاف الجسد بالروح ولا أحسب العقيدة الشمالية الا أنها كانت قبل نظم الاشعار حية فعالة في نفوس أهلها وكذلك سائر العقائد تكون أنشط وأنمى كلما كانت أسكت واصمت

ومما يرى في كتابهم ال «ادّا» ذلك الكتاب المبهم المظلم يؤخذ ان رؤس العقائد لم تكن الا ما يأتي الايمان بالمنتخبين وهم الآلهة الموكلون بانتخاب من يقضي عليهم بالقتل في ساحة الوغى وحومة الحرب ثم الايمان بالقضاء المحتوم وهو ان من قضى عليه أن يموت قتلا فلا مرد لذلك القضاء ولا مفر ثم الاعتقاد بان أول واجبات المرء هو أن يكون شجاعا أليست هذه الثلاثة هي أعظم اصول الشرائع العظمى شريعة نوثر وشريعة محمد بل أزيدكم وشريعة نابليون أيضاً بل هي سنة الانسان أينما كان وكيفما كان وهي السلك الذي يؤلف نظام فكره أجمع والخيط الذي منه ينسج ثوب

عقيدته وهؤلاء المنتخبون يسوقون الشجعان الذين قضوا في معترك القتال الى قاعة «اودين» أما الادقة الأخساء والجبناء الاذلاء فينبذون في ديار «هيلا» الهة الموت هذا هو فيما أراه روح الوثنية الشمالية جميعها فقد كان اولئك الاقوام يعتقدون ان الشجاعة رأس كل شيء وانها على الحر الكريم فرض محتوم وضربة لازم وانهم يستوجبون سخط «اودين» ويستنزلون عقابه اذاهم لم يشجعوا في جميع المواطن فانظروا بربكم أما ترون في ذلك معنى عالياً كبيرا ؟ حقا انه لواجب أبدي وفرض سرمدي حتى اللحظة كما كان حقا في تلك العصور ان يكون الانسان شجاعاً وما زال أول واجبات المرء أن يقهر الخوف وحقاً انه ينبغي لنا أن نقطع دابر الخوف فانه لا سبيل الى العمل حتى نصنع ذلك فاذا لم يجعل المرء الخوف وراء ظهره وتحت قدمه كان خليقا ان تخبث نفسه ويفسد طبعه وتكون أعماله تقايدية لا استقلالية وافكاره زوراً وباطلا لصدورها عن نفس ذليل وقلب جبان ولذلك أرى انه لو استخلص لباب المذهب الاوديني من قشوره لألفي حقا الى هذه الساعة كيف لا وانما أول واجبات الانسان ان يكون كما قدمنا شجاعاً وأن يمضي قدما في سننه ويكون رجلاً في كل ما يحاول ويزاول ثم هو في جميع ذلك يؤمن بقضاء الله وقدره وما زال ظفر المرء على الخوف وظهوره على الجبن هو ميزان فضله ومقياس رجولته في كل آن

ولا شك في أن شجاعة اولئك الشماليين القدماء كانت وحشية جداً وقد روى المؤرخ «سنورو» أنهم كانوا يرون الموت في غير مواطن الحرب عارا وسبة

تسيل على حد الظباة نفوسنا　　وليست على غير الظباة تسيل

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طلّ منا حيث كان قتيل

فاذا أحس أحدهم دنو الاجل واقتراب الموت الطبيعي أحدث الجراح في بدنه تزلفا بذلك الى «اودين» ليفسح له في جنانه مقاما وكان الملوك اذا أشرفت عليهم مناياهم أمروا بأنفسهم أن يجعلوا في سفن ثم ترسل السفينة في اليم منشورة القلاع تدب في خشبها نار بطيئة المسرى فاذا انساب بها زاخر التيار وهبّت له الريح تأججت في بدنها النار وطار في أركانها شواظها وكذلك يلقى البطل العظيم بين أحشاء الماء وجوانح الهواء قبرا شجاعة وحشية قاسية حمراء دامية ولكنها شجاعة . وخير من لاشيء ثم أي نجدة روعاء وهمة قعساء وأي عزيمة ومضاء قد كانت لملوك البحر من اولئك الشماليين ! لكأني والله أراهم مشمرين على ظهور سفنهم صامتين مقفلي الشفاه غير شاعرين بأنهم قد اوتوا منتهى البسالة والنجدة — يكافحون البحر الثائر وعفاريت أمواجه وشياطين حيتانه ونينانه بل يكافحون البر والبحر وكل ما عليها اولئك آباء بحّارتنا : رالي وبلاك ونلسون ! لقد ذهب اولئك الابطال وما ترنم بعظائم أعمالهم شاعر كهوميروس الا أني أرى مآثر اغامنون (أحد أبطال اليونان في شعر هوميروس) تتضاءل في جانب مسعاة رجل من اولئك الابطال الشماليين — رجل مثل «رولف» أو «رولو» أمير نورماندى ذلك الملك البحري الفاتك فاني أرى له الآن يدا في حكومة انكلترا وان كان قد مرّت على عهده القرون والدهور

ولم يكن بلا فائدة كل ما فعله اولئك الاقوام من الجولان في البحار ومن الحروب والوقائع أثناء عدة أجيال لان ذلك لم يكن الا تنازع الرئاسة ليعلم أي امة أقوى فتسود ثم رأيت ان من أولئك الملوك الشماليين من

كان يلقب قاطع الشجر أعني الملوك الذين كان من شأنهم قطع الغابات وفي ذلك معنى وايم الله كبير ولقد أخطأ المؤرخ «سكاندز» حيث زعم ان هؤلاء الملوك كان أمرهم قاصرا على الحرب بدليل ان الحرب وحدها لا ترزق امة ولا تمير شعبا وكيف وثمارها قليلة وخيراتها نزرة ! واني لاحسب أن المحارب الصادق يكون كذلك الغابيّ[1] الصادق — أعني انه يكون أيضاً المصلح الصادق والمفكر الصادق والعامل الصادق لا يدع أمراً الا ويتناول برفق وصدق وما ذلك الاّ لأن الشجاعة الصادقة هي الاساس لكل هذه الامور والشجاعة الصادقة شيء والقسوة والفظاعة شيء آخر فقطع الغاب ضرب من الشجاعة الصادقة قد أبداه اولئك القوم ضد الغابات وضد المظلم الوحشي من قوى الكون ليذللوا لنا الطبيعة ! أولم نسر نحن أبناءهم في ذلك الطريق الذي نهجوه لنا اذن فلا ابعد الله تلك الهمة وهاتيك الشجاعة !

ويظهر لي أن تعليم اودين قومه فضيلة الشجاعة واجابة القوم اياه لاصابة قوله هوى في نفوسهم وظنهم ان كلامه وحي جاء به من السماء وانه لذلك اله — يظهر لي ان هذا هو أول بذرة نبتت منها الديانة الشمالية وفروعها من الخرافات على اختلاف ضروبها والوانها والرموز الشعرية والقصائد والقصص والاناشيد والاغاني الخ أاقول نبتت ! عجبا عجابا ! انما يقال نبت للشيء الحي وقد قلت أن هذا المذهب الوثني لم يك الا ظلمة حالكة يبرق في جوفها ذهن اودين كالنجم في الديجور نعم ولكنها ظلمة حية تدبروا رعاكم الله ذلك هذه الظلمة هي الذهن المتوحش الجاهل — ذهن تلك الامة

---

(١) اعنى قاطع الغاب

البربرية الشمالية يصبو ويتلهف على أن يلهمه الله الفطنة والنطق فيستمر الى الى ما شاء الله في فطنته ونطقه ! نعم ان الفكر بذرة تنبت وتنمو ثم تنمو ثم لا تزال تنمو وتنمو كشجرة الهند متى أصبت بذرة منها فقد حصلت من شجرها على ما لا نهاية لعدده وذلك ان البذرة تخرج شجرة فأي فروع هذه الشجرة أصاب الارض صار في الحال جذرا لشجرة جديدة تنبت فروعاً فتصير جذورا وهكذا الى ماشاء الله والفكر حي لا يموت وأول من فكر من الرجال على ظهر هذه الارض فهو بادئ الجميع — ثم الثاني والثالث بل كل مفكر صادق انما هو من قبيل « اودين » أو ان شئت فقل انما هو «اودين» على النكرة ثم هو قد بعثه الله ليعلم الناس رأيه في الله والكون والانسان ولينشر ظل صورته على اجزاء من تاريخ العالم

فاما مزايا ذلك المذهب الشعرية فهذا مالا موضع له هنا كلا ولا كبير أهمية وقد يوجد أشعار نبوئية حادة حارة ولكنها على كل حال ضرب من اللهو اضافها الى قواعد الدين اناس متأخرون وما أحسب انه قد بقي من اشعارهم الا الاغاني وأمثال هؤلاء المتأخرين لا يزال منهم من يترنم بالاشعار شأن المصورين المحدثين لا يبرحون يصورون لا من صميم القلوب كما كان قدماء المصورين وكما هو الاصل في التصوير والباعث عليه بل ربما ليس من القلوب قاطبة فاعلموا ذلك ولا تنسوه

وقد حاول شاعرنا « جراي » ان يصف لنا عيشة أولئك الوثنيين القدماء فخاب خيبة الشاعر «بوب» اذ ترجم « الالياذة » فلم يؤاته الشعر على ابراز روح هوميروس وحسب جراي ان حياة أولئك القوم كانت موحشة مظلمة ترفرف عليها ظلال الروع والرعب فصورها كذلك ولم

يدر ان أهم عناصرها هي وعورة كوعورة صخورها وخشونة كخشونة قفارها الى أنس لا وحشة وانشراح لا انقباض وشيءٌ من الفكاهة والضحك بين مناظرها المهيبة ومشاهدها الرهيبة وكان القوم غاية في السذاجة لم يميلوا في تصوير آلهتهم ووقائع هذه الآلهة الى ما مال اليه اخوانهم اليونان من روائع الرواية التمثيلية فكأني بأولئك الشماليين لا يجدون في وقتهم فسحة لان يقفوا مبهوتين مرتعدي الفرائص امام مدهشات المرسح ثم يعجبني جداً سذاجتهم وصدقهم واستقامة نظرهم فمن ذلك ما يتخيلون من ان « تورا » إله الرعد يقطب جبينه في حنق صادق ويقبض على سيفه قبضة تبيض من شدتها مفاصل أصابعه ثم أجد كذلك الرحمة بادية في أجمل مظاهرها في خرافاتهم تلك فمن ذلك ان « بولدار » الإله الابيض — إله الشمس الكريم المنعم الجميل يموت فلم يدعوا في الطبيعة شيئاً الا نقبوا فيه عن دواء ولكنه مات وقضى الامر فتبعث أمه « فريجا » رسولا اسمه « هرمودر » ليبحث عنه ويطوي الرسول تسع ليال وتسعة أيام يخبّ في اودية منخفضة مظلمة ومنعرجات معتمة مشكلة حتى يبلغ القنطرة وسقفها الذهبي ويقول له الحارس « نعم » لقد عبر « بولدار » ههنا آنفاً ولكن مملكة الموت هنالك بعيدة جداً الى جهة الشمال فيستمر الرسول في سبيله حتى يصل باب مملكة الموت ويرى بولدار ويحادثه فاذا هو رهين بذلك الملك قد قضى عليه ان لا يغادره قضاء محتوما لا مفر منه وقد أبت ملكة الموت ان تطلقه كلا ولو أرادت ذلك الآلهة طرا ثم ان امرأته تطلب من أجله ان تموت لتؤنسه في ديار الموت فيجاب طلبها ويبقى الزوجان معاً آخر الابد ثم يرسل « بولدار »

خاتمه الى « اودين » وترسل زوجته « نانا » خاتمها على سبيل الذكرى — وا أسفاه ووا رحمتاه !

والحقيقة ان الشجاعة ينبوع الرحمة — ينبوع الصدق والشرف والكرم والمروءة والبر وسائر المحامد والمناقب وقد قال المؤرخ « اهلاند » أليس من آيات القوة والشجاعة ان تجد نفوس هؤلاء القوم في اله الرعد رفيقاً مؤنساً ؟ وان لا تخاف ولا تذعر من رعده بل ترى انه لا بدّ لحرارة الشمس وللصيف الحلو الجميل من مصاحبة الرعد ؟ وقد كان الرجل الشمالي يرتاح ويستأنس الى « ثور » ويحبه ويحب سيفه القاذف بالصواعق ويلاعبه ويداعبه وكان ذاك الإله عنده هو إله الحرارة الشمسية أيضاً أعني إله العمل والامن والخير والبركة وصاحب الفلاح ورفيقه في الغرس والحرث ثم ان « ثورا » نفسه لا يترفع عن مباشرة جميع الاعمال الخشنة الدونية وما يزال يذهب الى ديار الشياطين ليذلل عفاريت الثلج والجليد ويقهرها وفي بعض هذه الاقاويل ما فيه فكاهة وضحك

فمن ذلك ما ذكرنا من ان « ثورا » يذهب الى ديار « المردة » ليجلب مرجل « هيمير » حتى تصنع فيه الآلهة نبيذ الشعير فيدخل عليه « هيمير » شيخ الابالسة ولحيته مرصعة بالبرد وكلما رمى ببصره عمودا من العمد انفلق من حدة نظرته وبعد طويل صخب وعربدة يأخذ « ثور » المرجل فيلبسه في رأسه فاذا هو قد بلغ قدميه ذلك لانه مرجل مارد — « هيمير » الذي كان كل بقرة من بقره هضبة من الثلج

هذه أفكار وأيم الله ماردية هائلة الجسامة غير انها تحتاج الى أن تراض

وتذلل حتى تصير أفكاراً شاكسبيرية وداتنية [١] وجايتية [٢] ثم اني أبصر نسبة قريبة بين «ثور» اله الرعد و «جاك قاتل الردة» وبين «هنادي ايتن» و «ايتن الاحمر الايرلندي» التي جاءت في أقاصيص شعراء أحدث عهداً من شعراء تلكم العصور الوثنية بل اني لا أجد «هامليت شاكسبير» الا فرعا من تلك الشجرة القديمة الشمالية وهذا مالا نزاع فيه ولا ريب نعم ان هامليت أو أمليت قد ورد في خرافة قديمة من أساطير الاولين تحدث عن مقتل ملك بصب السم في أذنه أثناء نومه الى غير ذلك من حوادث الرواية الشاكسبيرية خرافة قديمة أخذها أولاً الشاعر القديم «ساكسو» فصاغ منها قصة دانماركية ثم تناول شاكسبير ما صنعه «ساكسو» فصور منه ما ترونه فهذا فرع من الشجرة الشمالية المنفسحة الافياء قد نما طبيعة أو صدفة !

وحقا ان في هذه الاغاني الشمالية معنى صادقاً شريفاً شأن كل قول تداوله الرواة وتتوارثه القرون وليس هو مجرد جزالة في اللفظ وشرف في الديباجة ولكنما شرف وجزالة في المعنى وخشونة في الروح ووعورة وأرى في قلوب أولئك القدماء جدا صامتا واطراقا في غير ضجر ولا شكوى وكأني بهؤلاء الشماليين قد رأوا بالبديهة والالهام ما رآه الناس في جميع العصور بالروية والتفكير وهوان الدنيا باطل وعرض زائل بل خيال لا حقيقة وكذلك رأي الفلاسفة من كل أمة وملة

العيش نوم والمنية يقظة ۝ والمرء بينهما خيال ساري

(١) نسبة الى دانتي أكبر شعراء ايطاليا وأعظم رجالها قاطبة

(٢) نسبة الى جايتي أكبر شعراء المانيا وأعظم رجالها على الاطلاق

ومن أقاصيص القوم ذات الحكمة والعظة ان « ثورا » يذهب الى « اتجارد » — حديقة أرض المردة يصحبه اثنان من اتباعه « ثيالفي » و « لوكي » وبعد حوادث مختلفة يأتون بلاد المردة فيجعلون يطوفون في سهول وقفار بين صخور وأشجار حتى اذا جنّ الليل آنسوا داراً وكان جانب من جوانبها كله باباً فولجوه فاذا مكان حقير خال فأقاموا به فلما سجى الليل راعهم ضجيج وضوضاء فأخذ « ثور » معوله واعتور الباب متحفزاً للقتال وجعل صاحباه يجريان هنا وهنالك فزعاً يتمسان مخرجاً فوجدا غرفة صغيرة فعاذا بها وأقام ثور بالباب يترقب عدوا مهاجماً ولا عدوّ ولما أصبحوا وجدوا ان الضوضاء لم تكن الا شخير مارد جسيم ولكنه مسالم — المارد « سكريمير » وكان نائماً ناحية منهم وكان المكان الذي حسبوه داراً فباتوا فيه انما هو احدى قفازتي ذلك المارد قد ألقاها الى جانبه عند ما أراد النوم وكانت الغرفة التي عاذا بها هي بيت الابهام ولم يكن للقفازة بيوت لسائر الاصابع يالها من قفازة عتيقة !

ثم ان المارد « سكيرمير » صحبهم سحابة اليوم يحمل حقيبتهم ولكن « ثور » ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام وكذلك أتاه وهو راقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الاصم فلم يفعل المارد أكثر من أنه انتبه وحك وجنته وقال ورقة سقطت ثم عاد في نومه فأرسل « ثور » على وجهه ضربة أشد فلم يك من المارد أكثر من انه همس قائلا ما هي الا حصاة ثم نام فصب عليه « ثور » بيديه جميعاً ضربة أحدثت أثراً بوجه المارد فما زاد على ان قطع شخيره وقال أحسب ان بهذه الشجرة عصافير والا فما هذا الذي سقط عليّ ؟ ثم ان « سكيرمير » دخل بأصحابه

باب حديقة المردة وكان يوم لهو وشراب فناولوا « ثورا » كأساً وسألوه ان يشتف ما فيه بجرعة واحدة فكرع فيه ثلاثا طوالا وما كاد يحدث أثراً فقالوا له طفل ولا ريب ثم أومأوا له الى قطة فسألوه أيقدر ان يرفعها فحاول « ثور » فما استطاع ان يرفع بعد الجهد الجهيد الا احدى أقدامها فقالوا له : ما أنت يا هذا برجل — انظر ثمت الى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها فعانقها ثور وجهد وكد فما فعل شيئاً

ولما همّوا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثور لقد غلبت ولكن لا تخجل فان في الامر سراً انا كاشفه لك فاما الكاس التي حاولت ان تشرب فلم تقدر فذلك البحر وحسبك انك أحدثت به جزرا ومن ذا الذي يا ثور يستطيع ان يشرب البحر ؟ وأما الهرة التي أردت ان ترفعها فتلك هي الحية التي تلتف حول الارض فتمسك اجزاءها وتضمّ أركانها فقل لي أ كنت محاولا برفعك اياها ان تخرب العالم ؟ وأما العجوز فهذه هي الدهر والهرم والدوام ومن ذا الذي يصارع ذلك ؟ لا انسان ولا إله فانها غلابة لكل شيء وأما الضربات الثلاث التي ضربتها فتأويلها ان تنظر الى هذه الاودية الثلاث « فهي من صنع ضرباتك » فنظر « ثور » الى رفيقه فاذا هو المارد « سكيرمير » وهذا المارد هو الارض ذاتها وما قفازته الا أحد الكهوف وأملس المارد فلم يبق له أثر ثم ان ثورا التفت لينظر حديقة المردة فاذا هي قد صارت هواء ولم يبق الا صوت المارد يهتف به ساخراً « أولى لك ان لا تعود الى ديار المردة ! » —

هذا من الرموز الشعرية الفكاهية لا من الاقاويل التنبؤية الجدية ولكن أليس فيها على خرافتها مادة غزيرة وذهب ابريز ؟ نعم ذهب أنقى

واصفى مما يوجد في خرافات اليونان وان كانت أجود صنعة وارشق معرضا وقد أرى لذلك المارد «سكيرمير» فكاهة جمة أساسها الجد والاعتبار والحزن كأنها قوس قزح وسط الزوبعة السوداء ومن هذا القبيل كانت فكاهة شاعرنا الفحل « بين جونسون » وهي فكاهة تجري في دمائنا حسبما يخيل اليّ لاني اكاد اسمعها الآن من أقاصي غابات أمريكا يصدح بها كاتبها الكبير «امرسون»

ومن الرائع الكبير من افكار القوم ذلك الذي في الصورة الآتية وهو انه تقوم حرب بين المردة والآلهة فتنتهي بموت الجميع وخراب الكون ولكنه موت مؤقت ريثما يتجدد كون ذو سماء أجمل وابهى وارض انضر واحلى واله أشرف وأقوى يعدل بين الناس جميعا فعجيب من هؤلاء الناس كيف ادركوا بطريقتهم الخشنة ومذهبهم الوعر سر القيامة والبعث وهذا فيما أراه القانون الاساسي لكل مخلوق احدثه الدهر واقامه في دار الامل (١) قانون قد نفذ اليه نظر ذوي الاخلاص والبصيرة وسينفذ ما دام الانسان

ولننظر الآن الى الخرافة التي يذكر فيها آخر ظهور « ثور » في الارض ونجعلها خاتمة هذا الباب ولعلها فيما يخيل اليّ آخر هذه الخرافات عهدا وفيها انكار لانتشار النصرانية مشفوع برنة حزن على ما تولى من عهود الوثنية — وضعها على سبيل العتاب والشكوى رجل من محافظي الوثنيين في اوائل انتشار النصرانية ببلاد النرويج وهذا نحواها : بينما الملك « اولاف » امير النرويج ذلك الذي كان له اليد الطولى في هدم صروح الوثنية ونشر الوية النصرانية في البلاد سائحا في حاشيته على سواحل النرويج

---

(١) الدنيا

يتنقل من ثغر الى ثغر ويبث العدل في الرعية أو يصلح من امورها اذا بغريب بادي الوقار أصهب اللحية نبيل الصورة مهيب الطلعة قد طرأ ثم كان من حديثه ما أعجب الملك وراعه ولكنه ما لبث ان غير من لهجة كلامه فخاطب الملك قائلاً : نعم أيها الملك «اولاف» ما أجمل هذا الشاطئ يزهو في رونق الضحى وما اندى خضرته وأبهى نضرته فحبذا السهل وحبذا الجبل وهنيئاً لك الملك والدولة والسلطان ولكن اذكر انك ما كنت ممتعاً بذلك لولا ما مهده لك «ثور» من أمر البلاد وما وطأه لك من شأن الملك فكم كافح دونه المردة وكم دافع عنه الابالسة وكم لاقى في ذلك من يوم أرْوَنان (شديد) ونهار عصيب والآن اذ استتب لك الامر وطاب لك الزمان تناسيت «ثوراً» ودفنت ذكره فيا ايها الانسان انتبه من رقدتك وكن من امرك على حذر ! » قال الغريب ذلك وقطب جبينه والتفت الملك وحاشيته فاذا هو قد غاب عن الابصار وكان هذا آخر ظهوره على مرسح العالم ! واني لارى باعث حزن وشجن في ذلك الصوت ـــ آخر اصوات الوثنية الذي فنى معه «ثور» والعالم الشمالي بأكمله فناء لا رجعة بعده وكذلك كل جليل ورائع وعظيم فالى الفناء مصيره وما من شيء حبيب الينا عزيز علينا الا وتجري بالفراق بيننا وبينه بارحات الطير ونجوم النحس ويروّعنا بنواه يوم وداع

وكذلك كان لاولئك الشماليين الانجاد في تقديس الشجاعة (هكذا يمكننا ان نعرف وثنيتهم) ما كفاهم دينا وشرعا وما تقديس الشجاعة بالامر الهين ثم لا احسب ان عرفاننا بعض الشيء عن وثنية آبائنا الا شيئاً مفيداً ذلك ان الدين لا يبرح منه في نفوسنا : وان لم نشعر بذلك : اثر فشعورنا به جدير ان يجعل صلتنا بالماضي آكد وفهمنا له اصفى واثقب والماضي تعلمون

ميراث انا وأى ميراث وهو جزء من الحقيقة التي مجموع كل عصر وكل امة فعلمنا بالجميع خير من جهلنا به وقد جاء فى كلام « جايتي » ان رجلاً اسمه « مايستر » سأل استاذه بأى الاديان الثلاثة انت مؤمن فاجاب « بجميعها لأن من اجتماعها يتكون الدين الحق »



المحاضرة الثانية

﴿ البطل في صورة رسول ﴾

(محمد — الاسلام)

ننتقل الآن من تلك العصور الخشنة — عصور الوثنية الشمالية الى دين آخر في أمة أخرى — دين الاسلام في أمة العرب وما هي الا نقلة بعيدة وبون شاسع بل أي رفعة وارتقاء نراه هنا في أحوال العالم العامة وافكاره

في هذا الطور الجديد لم ير الناس في بطلهم الها بل رسولا بوحي من الاله وهذه هي الصورة الثانية للبطل فاما الاولى واقدم الجميع فقد ذهبت الى حيث لا تعود أبداً ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم بل لنا ان نسأل أكان من أي ناس قط انهم عمدوا الى رجل يرونه ويلمسونه فقالوا هذا خالق الكون أنا لا أظن ذلك انما يقولون هذا القول في رجل يتذكرونه أو كانوا رأوه على ان هذا أيضاً لن يكون قط ولن يؤله البطل من ثم فصاعدا ولو بلغ منتهى العظمة

لقد كان اعتبار الرجل العظيم الها غلطة وحشية فاحشة ولكن دعنا نقل ان الرجل العظيم ما برح في جميع الازمان لغزا من الالغاز لا ندري كيف نفسره ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل أهم مزايا جيل من الاجيال هو كيفية استقباله لرجله العظيم وسواء استقبلوه كاله أو كنبي أو كيفما كان فذلك هو السؤال الاكبر ومن طريق اجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم في ذلك الامر يمكننا ان نبصر صميم حالتهم الروحانية كما لو كان من خلال نافذة

فان الوجـل العظيم اذ كان مصدره واحدا — أعني من ذات الله فهو جنس واحد : « اودين » أو « لوثر » أو « جونسون » أو « بارنز » وأرجو ان أوفق الى افهامكم ان جميع هؤلاء من طينة واحـدة وانه لم يحدث الخلاف العظيم بين أحـدهم والآخر الا الهيئة التي يكتسونها هم أو الطريقة التي يستقبلهم بها أهل زمنهم

*
* *

لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر ان يصغى الى ما يظن من ان دين الاسلام كذب وان محمداً خدّاع مزوّر وآن لنا ان نحارب ما يشاع من مثـل هـذه الاقوال السخيفة المخجلة فان الرسالة التي اداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا أفكان أحدكم يظن ان هذه الرسالة التي عاش بها وماتت عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والاحصاء اكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا استطيع ان أرى هذا الرأى أبداً ولو ان الـكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس الا بله ومجانين وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة كان الاولى بها أن لا تخلق

فوا أسفاه ما اسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف اهله واحقهـم بالرثاء والرحمة (وبعد) فعلى من أراد ان يبلغ منزلة ما في علوم الـكائنات ان لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء ! فانها نتائج جيل كفر وعصر جحود والحاد وهي دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الارواح في حياة الابدان ولعل العالم لم يرقط رأياً أكفر من هـذا والأم وهل

رأيتم قط معشر الاخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع ان يوجد دينا وينشره
عجباً والله ان الرجل الكاذب لا يقدر ان يبني بيتاً من الطوب ! فهو اذا
لم يكن عليماً بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك
الذي يبنيه ببيت وانما هو تل من الانقاض وكثيب من اخلاط المواد
نعم وليس جديراً ان يبقى على دعائمه اثنى عشر قرناً يسكنه مائة مليون من
الانفس ولكنه جدير ان تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن واني
لأعلم انه على المرء ان يسير في جميع أمره طبق قوانين الطبيعة والا أبت
ان تجيب طلبته وتعطيه بغيته كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار وان
زخرفوه حتى خيلوه حقاً وزور وباطل وان زينوه حتى أوهموه صدقاً
ومحنة والله ومصاب ان يخدع الناس شعوباً وأمماً بهذه الاضاليل وتسود
الكذبة وتقود بهاتيك الاباطيل وانما هو كما ذكرت لكم من قبيل
الاوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الاثيمة
ويحيق مصابها بالغير لا به وأي مصاب وأيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة
الفرنسوية وأشباهها من الفتن والمحن تصيح على أفواهها « هذه الاوراق
كاذبة ! »

اما الرجل الكبير خاصة فاني أقول عنه يقيناً انه من المحال ان يكون
كاذباً فاني أرى الصدق أساسه وأساس كل ما به من فضل ومحمدة
وعندي انه ما من رجل كبير — ميرابو أو نابليون أو بارنز أو كرمويل
كفء للقيام بعمل ما الا وكان الصدق والاخلاص وحب الخير أول
باعثاته على محاولة ما يحاول أعني انه رجل صادق النية جاد مخلص قبل
شيء بل أقول ان الاخلاص — الاخلاص الحر العميق الكبير — هو أم

خواص الرجل العظيم كيفما كان لا أريد اخلاص ذلك الرجل الذي لا يبرح يفتخر للناس باخلاصه كلا فان هذا حقير جدا وأيم الله — هذا اخلاص سطحي وقح — وهو في الغالب غرور وفتنة انما اخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع ان يتحدث به صاحبه كلا ولا يشعر به بل لأحسب انه ربما شعر من نفسه بعدم الاخلاص اذ أين ذاك الذي يستطيع ان يلزم منهج الحق يوماً واحداً ؟ نعم ان الرجل الكبير لا يفخر باخلاصه قط بل هو لا يسأل نفسه أهي مخلصة أو بعبارة أخرى أقول ان اخلاصه غير متوقف على ارادته فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله — حقيقة لا يستطيع ان يهرب من جلالها الباهر مهما حاول هكذا خلق الله ذهنه وخلقة ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته هو يرى الكون مدهشاً ومخيفاً وحقاً كالموت وحقاً كالحياة وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً وان فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا في غياهب الضلال والعماية بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونُصب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من اللهب لا شك فيها ولا ريب ها هي ! ها هي ! — فاعرفوا هذا كم الله ان هذه هي أوّل صفات العظيم وهذا حده الجوهري وتعريفه وقد توجد هذه في الرجل الصغير فهي جديرة ان توجد في نفس كل انسان خلقه الله ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيماً الا بها

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلاً أصلياً صافي الجوهر كريم العنصر — فهو رسول مبعوث من الابدية المجهولة برسالة الينا فقد نسميه شاعراً

أو نبيا أو الها وسواء هذا أو ذاك أو ذلك فقد نعلم ان قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ولكنه صادر من لباب حقائق الاشياء نعم هو يرى باطن كل شيء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الاوهام والاراء وكيف وان الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها ثم اذا نظرت الى كلمات العظيم شاعراً كان أو فيلسوفاً أو نبيا أو فارساً أو ملكاً . ألا تراها ضرباً من الوحي والرجل العظيم في نظري مخلوق من فؤاد الدنيا واحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للاشياء وقد دلّ الله على وجوده بعدة آيات أرى ان أحدثها وأجدّها هو الرجل العظيم الذي علمه الله العلم والحكمة فوجب علينا ان نصغى اليه قبل كل شيء

وعلى ذلك فلسنا نعد محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل الى بغية أو يطمح الى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر وما الرسالة التي اداها الا حقا صراحا وما كلمته الا صوتا صادقا صادرا من العالم المجهول كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفق وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فاذا هي شهاب قد أضاء العالم اجمع ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين

وهب لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات — وأي انسان لا يخطيء انما العصمة لله وحده — فانه ليس في طاقة أية هفوات أو غلطات أن تزرى بتلك الحقيقة الكبرى وهي انه رجل صادق ونبي مرسل

وأرانا على العموم نجسم الهفوات ونجعل من الجزئيات حجبا تستر عنا

الحقائق الكلية . الهفوات ؟ أيحسب الناس انه يخلو منها انسان ان اكبر الهفوات عندي أن يحسب المرء انه بريء من الهفوات ما بال الناس لا يذكرون نبي الله داود ؟ ألم يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام الا ما اهون أمر الذنوب وأصغر خطر الاغلاط — الجزئيات والقشور — اذا كان لبابها كريما وسرها حراً شريفا وكان في التوبة النصوح والندم الصادق ووخز الضمير ولذع الذاكرة أكبر مكفر للسيئات ومطهر لاردان الروح من ادران الشوائب اليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة واقدس أفعاله ؟ انما ألأثم الذنب هو كما قلت حسبان المرء انه بريء من كل ذنب وكل نفس هذا شأنها فهي في نظري مطلّقة من الوفاء والمروءة بعيدة عن التقى والبر والحق — أو هي ميتة — أو ان تشأ فقل هي نقية نقاء الرمل الجاف الميت واني احسب ان سيرة داود وتاريخه كما هو مدون في مزاميره لاصدق آية على ارتقاء المرء في معارج المكرمات وعلى حرب العقل والهوى — حربا طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبه وتتركه لقًى مشفيا على الانقراض ولكنها حرب بغير نهاية مشفوعة أبدا بالبكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق الذي لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة يا ويل النفس الانسانية ما أشد خطبها بين ضعفها وقوة شهواتها ! او ليست حياة الانسان في هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل في استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يطيق في ظلمات هذه الحياة الاّ الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من عثرة الا لاخرى وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشهيق وزفرات وانما الامر الهام هو ايظفر على هواه بعد كل هذه المجاهدات ؟ وانا لنصفح عن كثير من الجزئيات ما دام اللباب حقا والصميم صحيحا وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة انسان



كانت عرب الجاهلية امة كريمة تسكن بلاداً كريمة وكأنما خلق الله البلاد واهلها على تمام وفاق فكان ثمت شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء وقيعان ذات امواه واكلاء وكان الاعرابى صامتا لا يتكلم الا فيما يعنيه اذ كان يسكن ارضا قفرا يبابا خرساء تخالها بحرا من الرمل يصطلى جمرة النهار طوله ويكافح بحُر وجهه نفحات القر ليله

رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت فيضحى واما بالعشى فيخصر

ولا احسب اناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون اسرارها الا انهم يكونون اذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي النظر واذا صح ان الفرس هم فرنسويو الشرق فالعرب لا شك طليانه والحق اقول لقد كان اولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة ارادتهم احصن سور وامنع حاجز وهذه وابيكم ام الفضائل وذروة الشرف الباذخ وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه وينحر له فاذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاتله متى عادت به اليه الفرص وكان العربي أغلب وقته صامتا فاذا قال افصح : ويزعم ان العرب من عنصر اليهود والحقيقة انهم شاركوا اليهود في مرارة الجد وخالفوهم فى حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفى ألمعية القريحة وأريحية القلب وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات في الشعر يجرونها بسوق عكاظ في جنوب

البلاد حيث كانت تقام أسواق التجارة فاذا انتهت الاسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للاجود قريضا والاحكم قافية فكان الاعراب الجفاة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ويجدون لرناتها اى لذة فيتهافتون على المنشد كالفراش ويتهالكون

وأرى لهؤلاء العرب صفة من صفات الاسرائليين واضحة فيهم واحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحامد بحذافيرها ألا وهي التدين فانهم مذ كانوا مابرحوا شديدى التمسك بدينهم كيفما كان وكانوا يعبدون الكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته فهذا وان يك خطأ فليس من جميع وجوهه فان مصنوعات الله ما برحت بوجه مّا رموزا له ودلائل عليه ألسنا كما قدمت نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة ان يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو « أسرار الجمال الشعرى » كما اصطلح الناس على تسميته ؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كاهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما تقتضيه مبلغ علمه ورأيه ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أي حكمة بليغة ورأي مسدّد وأي تقوى واخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكّرين ؟ وقد اتفق النقاد ان « سفر أيوب » أحد اجزاء التوراة كتابنا المقدس قد كتب في بلاد العرب. ورأيي في هذا الكتاب فضلاً عن كل ما كتب عنه انه من أشرف ما سطّر يراع ودونت يد كاتب ولا يكاد المرء يصدق انه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الافكار مع شرفها وسموها — عمومية تخالف التعصب والتحيز وحسب الكتاب شرفا ان يكون يضرب بعرق فى كل نفس ويمت بصلة الى كل قلب ويكون كالبيت يفضي اليه منتهى السبل وكالأرج الضائع تتنازعه

جميع الانوف والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا عن مسألة المسائل — حياة الانسان وفعل الله به في هذه الدار وقد أتانا بذلك في أنصع بيان وأشد اخلاص واحسن سهولة واني لاتبين فيه العين البصيرة والقلب النافذ الفهم الجم الخشوع فهو الحق من حيث جئته والنظر الراسب في قرارة كل شيء وصميم كل أمر — مادي وروحاني ألا تذكرون ما جاء فيه من ذكر الفرس « الله الذي أودع الرعد حنجرته » «فهل ترى صهيله الا قهقهة لرؤية الرماح ؟» هذا والله أجود الاستعارة وما أحسب ان في عالم التشبيه كله ما يماثل ذلك أو يقاربه. ذلك الى ما في الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف والتوكل الحسن الجميل وماقرأت فيه قط الا حسبت قلب الانسانية يترنم شجيً ووجدا ودمع الانسانية يفيض حرقة وكمدا فيالها من رقة في شدة ورأفة في قوة وما أشبهها الا بسحر الليلة الصائفة — رقة نسيم في جلال مشهد عظيم والاّ بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار وما أحسب ان في جميع التوراة شيئاً يدانيه فضلاً وقيمة

والحجر الاسود كان من أعم معبودات العرب ولا يزال للآن بمكة في البناء المسمى «الكعبة» وقد ذكر المؤرخ الروماني «سيسلاس» الكعبة فقال انها كانت في مدته أشرف معابد العالم طرا وأقدمها وذلك قبل الميلاد بخمسين عاما وقال المؤرخ «سلفستاردي ساسي» ان الحجر الاسود ربما كان من رجوم السموات فاذا صح ذلك فلا بد أن انساناً قد بصر به ساقطا من الجو ! والحجر موجود الآن الى جانب البئر زمزم والكعبة مبنية فوقهما والبئر تعلمون منظر حيثما كان سارّ مفرح ينبجس من الحجر الاصم كالحياة من الموت فما بالكم بها اذا كانت تفيض

بديمومة لا ظل في صحصحانها ولا ماء لكن قورها الدهر عوم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجا وبارحها المسموم للوجه الطم
أظل اذا كافحتها وكأنني بوهاجها دون اللثام ملثم

وقد اشتق لها اسمها زمزم من صوت تفجرها وهديرها والعرب تزعم انها انبجست تحت اقدام هاجر واسماعيل فيضاً من الله وشفاء وقد قدّسها العرب والحجرَ الاسود وشادوا عليها الكعبة منذ آلاف من السنين وما أعجب هذه الكعبة واعجب شأنها فهي في هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكسوة السوداء التي يرسلها السلطان كل عام يبلغ ارتفاعها سبعا وعشرين ذراعا حولها دائرة مزدوجة من العمد وبها صفوف من المصابيح وبها نقوش وزخارف عجيبة وستوقد تلك المصابيح الليلة لتشرق تحت النجوم المشرقة فنعم أثر الماضي هي ونعم ميراث الغابر هذه كعبة المسلمين ومن أقاصي المشرق الى اخريات المغرب — من دلهي الى مراكش تتوجه أبصار العديد الجمهور من عباد الله المصلين شطرها وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات هذا اليوم وكل يوم نعم لهي والله من أجل مراكز المعمورة واشرف اقطابها

وانما من شرف البئر زمزم وقدسيَّة الحجر الاسود ومن حج القبائل الى ذلك المكان كان منشأ مدينة مكة ولقد كانت هذه المدينة وقتاماً ذات بال وشأن وان كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها وموقعها من حيث هي مدينة سيء جدا اذ هي واقعة في بطن من الارض كثير الرمال وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة على مسافة بعيدة من البحر ثم يمتار لها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الخبز ولكن الذي اضطر الى ايجاد

هذه المدينة هو ان كثيرا من الحجيج كانوا يطلبون المأوي ثم ان أماكن الحج مازالت من قديم الزمان تستدعي التجارة فأول يوم يلتقى فيه الحجيج تلتقى فيه كذلك التجار والباعة والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الاغراض رأوا انه لا بأس عليهم ان يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع وان لم يكن في الحسبان لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب باجمعها والمركز لكل ما كان من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين ايطاليا وقد بلغ سكانها في حين من الاحيان مائة ألف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب وباعة للمأكولات والغلال وكانت حكومتها ضربا من الجمهورية الارسطوقراسية عليها صبغة دينية وذلك انهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير مهذبة عشرة رجال من قبيلة عظمى فيكون هؤلاء حكام مكة وحرّاس الكعبة وكانت لقريش في عهد محمد وأسرة محمد من قبيلة قريش وكان سائر الامة مبدّداً في انحاء تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والاخرى البيد والقفار وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء : وربما كان الامير راعيا أو ناقل أمتعة ويكون في الغالب لصا وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ولم يك يؤلف بينهم حلف علني الا التقاءهم بالكعبة حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد والا رابطة الدم واللغة وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهوراً طوالاً خاملي الذكر غامضي الشأن — اناساً ذوي مناقب جليلة وصفات كبيرة ينتظرون من حيث لا يشعرون اليوم الذي يشاد فيه بذكرهم ويطير في الآفاق صيتهم ويرتفع الى عنان السماء صوتهم وما ذلك ببعيد وكأنما كانت وثنياتهم قد وصلت الى طور الاضمحلال وآذنت بالسقوط وقد

حدثت بينهم دواعي اختلاط وفوران وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض أنباء عن أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة — أعنى حياة المسيح ووفاته وهي التي أحدثت انقلاباً هائلاً في جميع سكان العالم — فلم تعدم هذه الانباء تأثيرها من الفوران في احشاء الامة العربية

وكان بين هؤلاء العرب التي تلك حالهم ان ولد الرجل محمد(عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش وقد مات أبوه عقب مولده ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه — وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل فقام عليه جده شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحاً باراً وكان ابنه عبد الله أحب أولاده اليه فأبصرت عينه الهرمة في محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير بملء قلبه وكان يقول ينبغي ان يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل الذي قد فاق سائر الاسرة والقبيلة حسناً وفضلاً ولما خضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به الى أبي طالب أكبر أعمامه رأس الاسرة بعده فرباه عمه — وكان رجلاً عاقلاً كما يشهد بذلك كل دليل — على أحسن نظام عربيّ

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبه وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلاً يتبع عمه في الحروب غير ان أهم أسفاره ربما كان ذاك الذي حدث قبل هـذا التاريخ ببضع سنين — رحلة الى مشارف الشام اذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الاهمية جـداً في نظره — أعنى الديانة المسيحية واني لست أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذي يزعم ان أبا طالب ومحمداً سكنا معه في دار ولا ماذا عساه يتعلمه غلام في هذه

السن الصغيرة من أي راهب ما فان محمداً لم يكن يتجاوز اذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف الا لغته ولا شك ان كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يك في نظره الا خليطاً مشوشا من أشياء ينكرها ولا يفهمها ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون فأقامت في ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ريثما تنضجها له كر الغداة ومر العشي وتحلها له يد الزمن يوماً ما فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات فلعل هذه الرحل الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة

ثم لا ننسى شيئاً آخر وهو انه لم يتلق دروساً على أستاذ أبدا وكانت صناعة الخط حديثة العهد اذ ذاك في بلاد العرب ويظهر لي ان الحقيقة هي ان محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق الى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية وعجيب وأيم الله أمية محمد نعم انه لم يعرف من العالم ولا من علومه الا ما تيسر له ان يبصره بنفسه أو يصل الى سمعه في ظلمات صحراء العرب ولم يضره ولم يزر به انه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك ولم يقتبس محمد من نور أي انسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك في جميع أشباهه من الانبياء والعظماء — أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادئة في ظلمات الدهور — من كان بين محمد وبينه أدنى صلة وانما نشأ وعاش وحده في احشاء الصحراء ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره

ولوحظ عليه منذ فتائه انه كان شابا مفكرا وقد سماه رفقاؤه الامين — رجل الصدق والوفاء — الصدق فى أفعاله واقواله وافكاره وقد لاحظوا ان ما من كلمة تخرج من فيه الا وفيها حكمة بليغة واني لأعرف عنه انه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فاذا نطق فما شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة لا يتناول غرضاً فيتركه الا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته وابان حجته واستثار دفينته وهكذا يكون الكلام والا فلا وقد رأيناه طول حياته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريما برا رؤوفا تقياً فاضلا حرا — رجلا شديد الجد مخلصاً وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الايناس بل ربما مازح وداعب وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق لان من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله واحواله — هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا وكان محمد جميل الوجه وضيّ الطلعة حسن القامة زاهي اللون له عينان سوداوان تتلألآن واني لاحب في جبينه ذلك العرق الذي كان ينتفخ ويسود في حال غضبه (كالعرق المقوس الوارد في قصة القفازة الحمراء لوالترسكوت) وكان هذا العرق خصيصة في بني هاشم ولكنه كان أبين في محمد واظهر نعم لقد كان هذا الرجل حاد الطبع ناري المزاج ولكنه كان عادلاً صادق النية كان ذكي اللب شهم الفؤاد

لوذعيا كانما بين جنبيه مصابيح كل ليل بهيم

ممتلئا ناراً ونورا رجلا عظيماً بفطرته لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غني عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح فأدى عمله في الحياة وحده في اعماق الصحراء

وما ألذ وما أوضح قصته مع خديجة وكيف انه كان أولا يسافر في تجارات لها الى أسواق الشام وكيف كان ينهج في ذلك أقوم مناهج الحزم والامانة وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو ولما زوجت منه كانت في الاربعين وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحة ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق وألفة وصفاء وغبطة يخلص لها الحب وحدها ومما يبطل دعوى القائلين ان محمداً لم يكن صادقاً في رسالتـه بل كان ملفقاً مزوراً أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة لم يحاول أثناءها احداث ضجة ولا دويّ مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ولمّا يكُ الا بعد الاربعين ان تحدث برسالة سماوية ومن هـذا التاريخ تبتـدئ حوادثه وشواذه حقيقية كانت أو مختلقة وفي هـذا التاريخ توفيت خديجة نعم لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادىء الساكن وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه وجميل ظنونهم به ولم يك الا بعد ان ذهب الشباب وأقبل المشيب ان فار بصـدره ذلك البركان الذي كان هاجعاً وثار يريد أمراً جليلاً وشأناً عظيماً

ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون ان محمـداً لم يكن يريد بقيامه الا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان كلا وأيم الله لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير — ابن القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً وحكمة وحجي وإربة ونهى — أفكار غير الطمع الدنيوي ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه.. وكيف وتلك نفس صامتـة كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم الا أن

يكونوا مخلصين جادين فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق الاعتبارات الباطلة اذ ترى محمدا لم يرض ان يلتفع بمألوف الاكاذيب ويتوشح بتتبع الاباطيل لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الامور والكائنات لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروائقه ومباهره لم يك هنالك من الاباطيل ما يحجب ذلك عنه فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه « ها أنا ذا » فمثل هذا الاخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس وما كلمة مثل هذا الرجل الا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة فاذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء وما زال منذ الاعوام الطوال — منذ أيام رحله وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الافكار : ما ذا أنا ؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذي أعيش فيه والذي يسميه الناس كونا ؟ وما هي الحياة ؟ وما هو الموت ؟ وما ذا أعتقد ؟ وما ذا أفعل ؟ فهل اجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شماريخ طود الطور أو تلك القفار والفلوات كلا ولا قبة الفلك الدوّار واختلاف الليل والنهار ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة لم يجبه لا هذا ولا ذاك وما للجواب عن ذلك الا روح الرجل والا ما أودع الله فيه من سرّه !

وهذا ما ينبغي لكل انسان ان يسأل عنه نفسه فقد أحس ذلك الرجل القفري ان هذه هي كبرى المسائل واهم الامور وكل شيء عديم الاهمية في جانبها وكان اذا بحث عن الجواب في فرق اليونان الجدلية أو في روايات اليهود المبهمة أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجده وقد قلت ان أهم خصائص البطل وأول صفاته وآخرها هي ان ينظر من خلال الظواهر الى البواطن

فاما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها جيدة كانت أو رديئة وكان يقول في نفسه « هذه الاوثان التي يعبدها القوم لا بد من أن يكون وراءها ودونها شيء ما هي الا رمز له واشارة اليه والا فهي باطل وزور وقطع من الخشب لا تضير ولا تنفع » وما لهذا الرجل والاصنام واني تؤثر في مثله اوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب ولو عبدها الجحاجح من عدنان والاقيال من حمير أي خير له في هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ انه في واد وهم في واد هم يعمهون في ضلالهم وهو ماثل بين يدي الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة فاما ان يجيبها والا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فلتجبها يا محمد ! أجب لا بد من ان توجد الجواب أيزعم الكاذبون انه الطمع وحب الدنيا هو الذي اقام محمدا واثاره حمق وايم الله وسخافة وهوس أي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب وفي تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالارض من تيجان وصوالجة وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفي مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أو في ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة ؟ كلا اذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل ان محمدا كاذب ونعد موافقتهم عارا وسبة وسخافة وحمقا فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع الى السكون والوحدة دأب العرب وعادتهم ونعمت العادة ما أجل وانفع ولاسيما لرجل كمحمد لقد كان يخلو الى نفسه فيناجي ضميره صامتا بين الجبال الصامتة متفتحاً صدره لاصوات الكون الغامضة الخفية أجل حبذا تلك عادة ونعمت فلما كان في الاربعين من عمره وقد خلا الى نفسه في غار بجبل

« حراء » قرب مكة شهر رمضان ليفكر في تلك المسائل الكبرى اذا هو قد خرج الى خديجة ذات يوم وكان قد استصحبها ذلك العام وانزلها قريباً من مكان خلوته فقال لها انه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر وانه قد أنارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء وان جميع هذه الاصنام محال وليست الاخشابا حقيرة وان لا اله الا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما خلاه باطل خلقنا ويرزقنا وما نحن وسائر الخلق والكائنات الاظل له وستار يحجب النور الابدي والرونق السرمدي الله أكبر ولله الحمد . ثم الاسلام وهو ان نسلم الامر لله ونذعن له ونسكن اليه ونتوكل عليه وان القوة كل القوة هي في الاستنامة لحكمه والخضوع لحكمته والرضا بقسمته أية كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ومهما يصيبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم انه الخير وأن لا خير الا هو ولقد قال شاعر الالمان وأعظم عظمائهم « جايتي » اذا كان ذلك هو الاسلام فكلنا اذن مسلمون نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو مسلم وقدما قيل ان منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد الاذعان للضرورة — فان الضرورة تخضع المرء برغم انفه ولا فضل فيما يأتيه الانسان مكرهاً — بل في اليقين بان الضرورة الالهية المرة هي خير ما يقع للانسان وأفضل ما يناله وان لله في ذلك حكمة تلطف عن الافهام وتدق عن الاذهان وانه من الافن والسخف أن يجعل الانسان من دماغه الضئيل ميزاناً لذلك العالم واحواله . بل عليه أن يعتقد ان للكون قانوناً عادلاً وان غاب عن ادراكه . وان الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة نعم عليه أن يعرف

ذلك ويعتقده ويتبعه في سكوت وتقوى

أقول وما زالت هـذه الخطة المثلى والمذهب الاشرف الاطهر وما زال الرجل مصيبا وظافراً وحراً وكريماً وسائراً على المنهج الاقوم وسالكاً سبيل السعادة ما دام معتصماً بحبل الله متمسكاً بقانون الطبيعة الاكبر الامكن غير مبال بالقوانين السطحية والظواهر الوقتية وحسابات الربح والخسارة نعم هو ظافر اذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهري — قطب رحى الكون ومحور الدهر — وليس بظافر اذا فعل غير ذلك وحقا ان أول وسيلة تؤدي الى اتباع هـذا القانون هو الاعتقاد بوجوده ثم بانه صالح بل لا شيء غيره صالح ! وهذا يا اخواني هو روح الاسلام ! وهـذا هو أيضاً روح النصرانية والاسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية والاسلام والنصرانية يأمراننا أن نتوكل على الله قبل كل شيء وان نفطم النفس عن الشهوات ونهى القلب عن الهوى وان لا نجمح في عنان المنى وان نصبر على البث والاسى وان نعرف أنا لا نعرف شيئاً وان نرضى من الله كل ما قسم ونعدّها يدا بيضاء نعمة غراء ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ونقول «انا بقسمة الله راضون ولو كان ما قسم لنا المنون »

فمن فضائل الاسلام تضحية النفس في سبيل الله وهذا اشرف ما نزل من السماء على بني الارض نعم هو نور الله قد سطع في روح ذلك الرجل فانار ظلماتها هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التي كانت تؤذن بالخسران والهلاك وقد سماه محمد (عليه السلام) وحيا و«جبريل» واينا يستطيع أن يحدث له اسماً ألم يجئ في الانجيل ان وحي الله يهبنا الفهم والادراك ؟ ولا

شك ان العلم والنفاذ الى صميم الامور وجواهر الاشياء لسرّ من أغمض الاسرار لا يكاد المنطقيون يلمسون منه الا قشوره وقد قال نوفاليس « أليس الايمان هو المعجزة الحقة الدالة على الله ؟ » فشعور محمد اذ اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الساطعة بأن الحقيقة المذكورة هي أهم ما يجب على الناس علمه لم يك الا أمرا بديهيا وكون الله قد أنعم عليه بكشفها له ونجاه من الهلاك والظلمة وكونه قد أصبح مضطرا الى اظهارها للعالم أجمع — هذا كله هو معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو الصدق الجليّ والحق المبين

وبخيل الينا ان الصالحة خديجة أصغت اليه في دهشة وشك ثم آمنت وقالت « إي وربي انه لحق . » ونتوهم ان محمدا شكر لها ذلك الصنيع ورأى في ايمانها بكلمته المخلصة المقذوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما أسدت اليه من قبل فانه ليس أروح لنفس المرء ولا أثلج لحشاه من ان يجد له شريكا في اعتقاده ولقد قال نوفاليس « ما رأيت شيئا قط آكد ليقيني وأوثق لاعتقادي من انضمام انسان آخر اليّ في رأيي » نعم انه لصنيع أغر ونعمة وفيرة وكذلك ما انفك محمد يذكر خديجة حتى لقي ربه حتى ان عائشة — زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها — هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة سألته ذات يوم « ألست الآن أفضل من خديجة ؟ لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جمالها وأراك تحبني أكثر مما كنت تحبها . » فأجاب محمد « كلا والله لست أفضل منها وكيف وهي التي آمنت بي والكل كافر ومنكر ولم يك لي في هذا العالم الا صديق واحد — وهذا الصديق هي » وآمن به مولاه زيد (بن حارثة) كذلك وعلي وهؤلاء الثلاثة أول من آمن به

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذلك فما كان يصادف الا جمودا وسخرية حتى انه لم يؤمن به في خلال ثلاثة أعوام الا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ولكنه المنتظر في مثل هذه الحال وبعد هذه السنين الثلاث أدب مأدبة لاربعين من قرابته ثم قام بينهم خطيباً فذكر دعوته وانه يريد أن يذيعها في سائر انحاء الكون وانها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة فأيهم يمدّ اليه يده ويأخذ بناصره ؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب عليّ وكان غلاماً في السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح في أحدّ لهجة أنه ذلك النصير والظهير ولا يحتمل ان القوم كانوا منابذين محمدا ومعادينه وكلهم قرابته وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو عليّ ولكن رؤية رجل كهل أمي يعينه غلام في السادسة عشرة يقومان في وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو الى العجب المضحك فانفض القوم ضاحكين ولكن الامر لم يك بالمضحك بل كان نهاية في الجد والخطر ! اما عليّ فلا يسعنا الا ان نحبه ونتعشقه فانه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبرا ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى وقد قتل بالكوفة غيلة وانما جني ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل انسان عادلا مثله وقال قبل موته حينما أومر في قاتله « ان أعش فالامر اليّ وان أمت فالامر لكم فان آثرتم ان تقتصوا فضربة بضربة وأن تعفوا أقرب الى التقوى » !

وكان في عمل محمد هذا اساءة ولا شك الى قريش حراس الكعبة وخدمة الاصنام وانضم اليه منهم رجلان أو ثلاثة أولوا بأس ونفوذ وسرى

أمر محمد ببطء ولكنه سريان على كل حال وكان عمله بالطبع سيء الوقع لدي كل انسان حيث جعلوا يقولون من هذا الذي يزعم انه أعقل منا جميعا والذي يعنفنا ويرمينا بالحمق وعبادة الخشب ! وأشار عليه أبو طالب ان يكتم أمره ويؤمن به وحده وان يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم وان لا يسخط القوم ويثير غضبهم عليه فيخطر بذلك حياته فأجابه محمد والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته كلا فان في هذه الحقيقة التي جاء بها لشيئاً من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشمس ولا القمر ولا أي مصنوعات الطبيعة ولا بد لتلك الحقيقة من ان تظهر برغم الشمس والقمر مادام قد أراد ان تظهر وبرغم قريش جميعها وبكره سائر الخلائق والكائنات نعم لا بد من ان تظهر ولا يسعها الا أن تظهر بذلك أجاب محمد ويقال انه « اغرورقت عيناه » اغرورقت عيناه : لقد أحسّ من عمه البر والشفقة وادرك وعورة الحال وعلم أنه أمر ليس بالهين اللين ولكنما أمر صعب المراس مرّ المذاق

واستمر يؤدي الرسالة الى كل من أصغى اليه وينشر مذهبه بين الحجيج مدة اقامتهم بمكة ويستميل الاتباع هنا وهنالك وهو يلقى أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة ومناصبة بالعداوة ومجاهرة وشرّا باديا وكامنا وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه ولكنه عزم هو واتباعه على الهجرة الى الحبشة فوقع خبر ذلك العزم من قريش اسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه فنصبوا له الاشراك وبثوا الحبائل واقسموا بالآلهة ليقتلنّ محمدا بايديهم وكانت خديجة قد توفيت وتوفى أبو طالب وتعلمون أصلحكم الله ان محمدا ليس بحاجة الى ان نرثى له ولحاله النكراء اذ ذاك ومقامه الضنك وموقفه الحرج ولكن اعرفوا معي

ان حاله اذ ذاك من الشدة والبلاء كما لم ير انسان قط فلقد كان يختبئ في الكهوف ويفر متنكراً الى هذا المكان والى ذاك لا مأوى ولا مجير ولا ناصر تتهدده الحتوف وتتوعده الهلكات وتفغر له افواهها المنايا وكان الامر يتوقف احيانا على أدنى صغيرة — كاجفال فرس من افراس اتباع محمد — فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ولكن أمر محمد — ذلك الامر العظيم ما كان لينتهي على مثل تلك الحال

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متألبين عليه جميعا وكانوا اربعين رجلاً كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه والفى المقام بمكة مستحيلاً هاجر الى يثرب حيث التف به الانصار والبلدة تسمى الآن المدينة أي مدينة النبي وهي من مكة على ٢٠٠ ميل تقوم وسط صخور وقفار ومن هذه الهجرة يبتدئ التاريخ في المشرق والسنة الاولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهي السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد فترون انه كان قد أصبح اذ ذاك شيخا كبيراً وكان أصحابه يموتون واحداً بعد واحد ويخلون أمامه مسلكاً وعرا وسبيلا قفرا وخطة نكراء موحشة فاذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيهات أن يجد بارقات الامل فيما يحدق به من عوابس الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات وهكذا شأن كل انسان في مثل هذه الاحوال وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط فلما وجد ان القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الاصغاء الى صوت ضميره وصيحة لبه حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة — عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربي ولسان حاله

يقول واما وقد أبت قريش الا الحرب فلينظروا أي فتيان هيجاء نحن ! وحقا رأى فان أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق وأبوا الا تماديا في ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها ويأتون كل اثم ومنكر وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والاناة فأبوا الا عتوا وطغيانا فليجعل الامر اذن الى الحسام المهند والوشيج المقوم والى كل مسرودة حصداء وسابحة جرداء ! وكذلك قضى محمد بقية عمره وهي عشر سنين أخرى في حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا مدرّ فواق وكانت النتيجة ما تعلمون !

ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف فاذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف ولكن ما هو الذي اوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وانه حق والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد فالذي يعتقده هو فرد — فرد ضد العالم اجمع فاذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع وارى على العموم ان الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال او لم تروا ان النصرانية كانت لا تأنف ان تستخدم السيف احيانا وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون واناالا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة اخرى فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة او بالصحافة او بالنار لندعها تكافح وتجاهد بايديها وارجلها واظافرها فانها لن تهزم الا ما كان يستحق ان يهزم وليس في طاقتها قط ان تفني ما هو خير منها بل ما هو احط وادنى فانها حرب لا حكم فيها الا الطبيعة ذاتها ونعم الحكم ما اعدل وما اقسط وما كان اعمق جذرا في

الحق واذهب اعراقاً في الطبيعة فذلك هو الذي ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة نامياً زاكياً وحده .

أقول الطبيعة أعدل حكم بلى ما اعدل وما اعقل وما ارحم وما احلم انك تأخذ حبوب القمح لتجعلها في بطن الارض وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب وسائر اصناف الاقذاء ولكن لا بأس عليك من ذلك والق الحبوب بجميع ما يخالطها من القذى في جوف الارض العادلة البارّة فانها لا تعطيك الا قمحا خالصاً نقياً فاما القذى فانها تبلعه في سكون وتدفنه ولا تذكر عنه كلمة وما هى الا برهة حتى ترى القمح زاكياً يهتز كأنه سبائك الذهب الابريز والارض الكريمة قد طوت كشحاً على الاقذاء واغضت بل انها حولتها كذلك الى أشياء نافعة ولم تشك منها شجواً ولا نصباً وهكذا الطبيعة في جميع شؤونها فهي حق لا باطل وهى عظيمة وعادلة ورحيمة حنون وهي لا تشترط في الشيء الا أن يكون صادق اللباب حر الصميم فاذا كان كذلك حمته وحرسته أو كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه فترى لكل شيء تحميه الطبيعة روحا من الحق اليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو وأسفاه شأن كل حقيقة كبرى جاءت الى هذه الدنيا أو تجيء فيما بعد؟ اعني ان الحقيقة مزيج من حق وباطل نور في ظلام وتجيئنا الحقائق في اثواب من القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صادقة ثم لا بد من أن يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها وجورها فتموت وتذهب نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبدا ويتخذ ثوبا اطهر وبدنا اشرف وما يزال يتنقل من الاثواب والابدان من حسن الى

أحسن وجيد الى اجود سنة الطبيعة التي لا تتبدل نعم ان جوهر الحقيقة الكريم حي لا يموت وانما النقطة الهامة والامر الوحيد الذي يعرض في محكمة الطبيعة ومجلس قضائها هو هل هذا الروح حق وصوت من اعماق الطبيعة ؟ وليس بهام عند الطبيعة ما نسميه نقاء الشيء او عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائي ليس الامر الهام عند الطبيعة حينما تقدم اليها انت لتصدر حكمها فيك هو أفيك اقذار واكدار أم لا وانما هو أفيك جوهر حق وروح صدق ام لا أو بعبارة تشبيهية ليس السؤال الهام عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا بل أفيك قمح ؟ أيقول بعض الناس انه نقي انى أقول له « نعم نقي — نقي جدا ولكنك قشر — ولكنك باطل واكذوبة وزور وثوب بلا روح ومجرد اصطلاح وعادة وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة والواقع انك لا نقي ولا غير نقي وانما انت لاشيء والطبيعة لا تعرفك وانها منك براء .

نحن سمينا الاسلام ضربا من النصرانية ولو نظرنا الى ما كان من سرعته الى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء في العروق لأيقنا انه كان خيراً من تلك النصرانية التي كانت اذ ذاك في الشام واليونان وسائر تلك الاقطار والبلدان — تلك النصرانية التي كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب ببطلانها قفراً ميتاً ! على انه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جدا وبفضله فقط آمن الناس بها وحقا انها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعي بين الاصلاء ولكنها ضرب حي على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة

ونظر محمد من وراء اصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب

اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم — نظر ابن القفار والصحاري بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية الى لباب الامر وصميمه فقال في نفسه الوثنية باطل وهذه الاصنام التي تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب اخشاب لا تضر ولا تنفع وهي منكر وفظيع وكفر لو تعلمون انما الحق ان لا اله الا الله وحده لا شريك له خالقنا وبيده حياتكم وموتكم وهو أرأف بكم منكم وما اصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون

وان ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وامسكوه بقلوبهم النارية لجدير ان يكون حقا وجدير ان يصدق به وان ما اودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذي للانسان ان يؤمن به وهذا الشيء هو روح جميع الاديان — روح تلبس اثواباً مختلفة واثواباً متعددة وهي في الحقيقة شيء واحد وباتباع هذه الروح يصبح الانسان اماما كبيرا لهذا المعبد الاكبر — الكون — جارياً على قواعد الخالق تابعاً لقوانينه لا محاولا عبثاً ان يقاومها ويدافعها ولم اعرف قط تعريفاً للواجب احسن من هذا والصواب كل الصواب في السير على منهاج الدنيا فان الفلاح في ذلك (اذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) : وجاء محمد وشيع النصارى تقيم اسواق الجدال وتخابط بالحجج الجائرة وماذا افاد ذلك وماذا اثمر اما انه الاهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن انتاجها وانما هو ان خلق الله وابناء آدم يعتمدون تلك الحقائق الكبرى لقد جاء الاسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له ان يبتلعها لانه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات

النصرانية وكل ما لم يكن بحق فانها حطب ميّت اكلته نار الاسلام فذهب والنار لم تذهب

أما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو اكبر دليل على اختلاف الاذواق في الامم المختلفة هذا وان الترجمة تذهب باكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة ولذلك لاعجب اذا قلت ان الاوربي يجد قراءة القرآن اكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لايزال يقطع في صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ولان لاترجمة ذهبت بحسنه ورونقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل مالم يعطه اتقى النصارى لانجيلهم وما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها والوحي المنزل من السماء هدًى للناس وسراجا منيراً يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطاً مستقيما ومصدر احكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به في غياهب الحياة وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئاً على التوالي وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الالوف من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرناً في كل آن ولحظة ويقال ان من الفقهاء من قرأه سبعين الف مرة!

اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تجاوز الاذان واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير ان يصل الى افئدة سامعيه وقارئيه وقد زعم « براديه » وامثاله انه طائفة من

الاخاديع والتزاويق لفقها محمد لتكون اعذارا له عما كان يرتكب ويقترف وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ولكنه قد آن لنا ان نرفض جميع هذه الاقوال فاني لامقت كل من يرمي محمدا بمثل هذه الاكاذيب وما كان ذو نظر صادق ليرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل والقرآن لو تبصرون ما هو الا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الافكار الطوال في الخلوات الصامتات وكانت الخواطر تتراكم عليه باسرع من لمح البصر وتتزاحم في صدره حتى لا تكاد تجد مخرجا وقلّ ما نطق به في جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتنميق الكلام ويا لها من خطوب كانت تطيح به وتطير فلقد كان في هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن — حروب مع قريش والكفار ومخاصمات بين اصحابه وهياج نفسه وثورانها — كل ذلك جعله في نصب دائم وعناء مستمر فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية وهي تململ طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب وتدور بها دوّامات الفكر حتى اذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نورا هبط عليها من السماء وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه أيزعم الافاكون الجهلة انه مشعوذ ومحتال كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنوّر فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ لقد كانت حياته في نظره حقا وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة

والاخلاص المحض الصراح يظهر لي انه فضيلة القرآن التي حببته الى

العربي المتوحش وهي أول فضائل الكتاب ايا كان وآخرها وهي منشأ فضائل غيرها بل لا شيء غيرها يمكنه ان يبعث للكتاب فضائل أخرى ومن العجب ان نرى في القرآن عرقاً من الشعر يجري فيه من بدايته الى نهايته ثم تتخلله نظرات نافذات — نظرات نبي وحكيم اجل لقد كان لمحمد في شؤون الحياة عين بصيرة ثم له قدرة عظيمة على ان يوقع في اذهاننا كل ما ابصره ذهنه أنا لا احفل كثيراً بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأني ارى لها في الانجيل شبيهاً ولكني شديد الاعجاب بالنظر الذي ينفذ الى اسرار الامور فهذا اعظم ما يلذني ويعجبني وهو ما اجده في القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكان محمد اذا سئل ان يأتي بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة انظروا الى هذه الارض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته هذه الارض التي خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون في مناكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدري من أين جاء وهو مسخر في السماء كل سحابة كما رد اسود ثم يسح بمائه ويهضب ليحيي ارضاً مواتاً ويخرج منها نباتاً ونخيلاً واعناباً أليس ذلك آية والانعام خلقها لكم تحول الكلاء لبنا وهي نفر لكم والسفن — وكثيراً ما يذكر السفن — كالجبال العظيمة المتحركة تنشر اجنحتها وتحتفز في سواء اليم لها حادٍ من الريح وبينا تسير اذا هي قد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح معجزات والله كل هذه وأي معجزات بعدها تريدون ألستم انتم معجزات ؟ لقد كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكونوا ابدا ثم لكم جمال وقوة وعقل « ثم وهبكم الرحمة اشرف الصفات » وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن

عظامكم وتموتون فتصبحوا غير موجودين « ثم وهبكم الرحمة » لقد ادهشتني جدا هذه الجملة فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون امرهم! هذه من محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على اشرف المحامد واكرم الخصال واتبين فيه عقلاً راجحاً عظيماً وعيناً بصيرة وفؤادا صادقاً ورجلا قويا عبقريا لو شاء لكان شاعراً فحلاً أو فارساً بطلاً او ملكا جليلا أو اي صنف من اصناف البطل

نعم لقد كان العالم في نظره معجزة ايّ معجزة وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة وهو ان هذا الكون الصلب المادّي انما هو في الحقيقة لا شيء — انما هو آية على وجود الله منظورة ملموسة وهو ظل علته الله على صدر الفضاء لا غير وكان يقول هذه الجبال الشامخات ستحلل وتذوب مثل السحاب وتفنى وكان يقول الجبال اوتاد الارض وانها ستفنى كذلك يوم القيامة وان الارض في ذلك اليوم العظيم تتصدع وتتفتت وتذهب في الفضاء هباء منثورا فتنعدم وكان لا يزال واضحاً لعينيه سلطان الله على كل شيء وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة وهذا ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ولا يرونه شيئاً مقدسا بل لا يرونه شيئا واحدا وانما اشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل في تسيير السفن البخارية فسُرعان ما تنسينا الكيماويات والحسابيات ما يكمن في الكائنات من سرّ الله وما افحش ذلك النسيان عارا واكبر هذه الغفلة اثما! واذا نسينا ذلك فأي الامور يستحق الذكر اذن فمعظم العلوم اشياء ميتة خاوية بالية — بقلة ذابلة نعم وما احسب العلوم لولا ذلك الا خشبا يابسا ميتا وليس هو

بالشجرة النامية ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التي لا تبرح تمدك بالخشب اثر الخشب فيما تمدك وتعطيك ! ولن يجد المرء السبيل الى العلم حتى يجده اولا الى العبادة أعني انه لا علم الا لمن عبد والا فما العلم الا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة

وقد قيل وكتب كثيرا في شهوانية الدين الاسلامي وارى كل ماقيل وكتب جورا وظلما فان الذي اباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وانما كان جاريا متبعا لدى العرب من قديم الازل وقد قلل محمد هذه الاشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان في امكانه ان يجعل والدين المحمدي بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة واقامة الصلاة خمسا في اليوم والحرمان من الخمر وليس كما يزعمون كان نجاح الاسلام وقبول الناس اياه لسهولته لأنه من الخش الطعن على بني آدم والقدح في اعراضهم ان يتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل واتيان الجسائم هو طلب الراحة واللذة — التماس الحلو من كل صنف في الدنيا والآخرة ! كلا فان احسن الآدميين لا يخلو من شيء من العظمة والجلال فالجندي الجاهل الجلف الذي يؤجر يمينه وروحه في الحروب بأجر بخس له مع ذلك « شرف » يحلف به فتراه لا يبرح يقول : لافعلن ذلك وشرفي : وليست أمنية أحقر الآدميين هي ان يأكل الحلوى بل ان يأتي عملا شريفا وفعلا محمودا ويثبت للناس انه رجل فاضل كريم ليعمد أيكم الى أبلد انسان فيريه سبيل المكرمات والمحامد فاذا هو قد تأجج قلبه حماساً واتقدت نفسه غيرة وصار في الحال بطلا وما أظلم الذين يتهمون الانسان بقولهم انه ميّال بفطرته الى الراحة وانه يستهوى

بالترف ويستغوى باللذة انما مغريات الانسان وجاذباته هي الاحوال والصعائب والاستشهاد والقتل اقدح ما بنفس المرء من زناد الفضل تذكـ ناراً تحرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص وما كان قط اعتناق الناس لدين من الاديان لما يرجون من متاع ولذة بل لما يثور في قلوبهم من دواعي الشرف والعظمة

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا وشد ما نجور ونخطىء اذا حسبناه رجلا شهويا لا همّ له الا قضاء مآربه من الملاذ — كلا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار وانهم ليذكرون — ونعم ما يذكرون — انه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الله قائم النهار ساهر الليل دئباً في نشر دين الله غير طامح الى ما يطمح اليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان غير متطلع الى ذكر أو شهرة كيفما كانت رجل عظيم وربكم والا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً واكباراً واعظاماً وما كان ممكنه ان يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفية وكانوا حماة الانوف اباة الضيم وعر القادة صعاب الشكيمة فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا وكيف وقد كانوا

أطوع له من بنانه وظني انه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيباً من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الابطال !

وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة — صوت فؤاد يهيم بين الرجاء والخوف ان يصعد الى ربه ولا نحسب ان شدة تدينه أزرت بفضله كلا بل زادته فضلا وقد يروي عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزىء غلامه : العين تدمع والقلب يوجع ولا نقول ما يسخط الرب : ولما استشهد مولاه زيد (ابن حارثة) في غزوة «مؤتة» قال محمد لقد جاهد زيد في الله حق جهاده وقد لقي الله اليوم فلا بأس عليه ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة أبيها — وجدت الرجل الكهل الذي دب في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً ! فقالت « ماذا أرى » قال « صديقا يبكي صديقه » مثل هذه الاقوال وهذه الافعال ترينا في محمد أخا الانسانية الرحيم — أخانا جميعا الرؤوف الشفيق وابن أمنا الأولى وأبينا الأول

واني لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لا يعول الا على نفسه ولا يدعى ماليس فيه . ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا . فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد . يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم واكاسرة العجم يرشدهم الي ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الاعراب من مشاهد قسوة ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من الاولى ولا يفتخر بالثانية . اذ كان يراها من وحى وجدانه

وأوامر شعوره ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين . وكان رجلا ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم الى غد . وطالما كان يذكر يوم « تبوك » اذ أبى رجاله السير الى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر . فقال لهم : الحصيد ! انه لا يلبث الا يوما . فماذا تتزودون للآخرة ؟ والحر ؟ نعم انه حر ولكن جهنم أشد حرا . وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية . اذ يقول للكفار ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة .

وما كان محمد بعابث قط ولا شاب شيئاً من قوله شائبة لعب ولهو . بل كان الامر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء . ولم يك منه ازاءها الا الاخلاص الشديد والجد المرّ . فأما التلاعب بالاقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندي أفظع الجرائم اذ ليس هو الا رقدة القلب ووسن العين عن الحق . وعيشة المرء في مظاهر كاذبة . وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الانسان هو ان جميع اقواله وأعماله اكاذيب بل انه هو نفسه اكذوبة . وأرى خصلة المروءة والشرف — شعاع الله — متضائلا في مثل ذلك الرجل مضطربا بين عوامل الحياة والموت . فهو رجل كاذب لا انكر انه مصقول اللسان مهذب حواشي الكلام محترم في بعض الازمان والامكنة . لا تؤذيك بادرته لين المس رفيق الملمس كحمض الكربون تراه على لطفه سما نقيعا . وموتاً ذريعا .

وفي الاسلام خلة أراها من اشرف الخلال وأجلها وهي التسوية بين الناس . وهذا يدل على أصدق النظر واصوب الرأي . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الارض . والناس في الاسلام سواء . والاسلام لا يكتفي

بجعل الصدقة سنة محبوبة بل بجعلها فرضا حتما على كل مسلم . وقاعدة من قواعد الاسلام ثم يقدرها بالنسبة الى ثروة الرجل . فتكون جزأ من اربعين من الثروة . تعطى الى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا . وما هو الا صوت الانسانية — صوت الرحمة والاخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل — ابن القفار والصحراء .

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره فأقول ان العيب في ذلك على الشراح والمفسرين لا على ماجاء في الكتاب فان القرآن قد اقل جدا من اسناد الحسيات والماديات الى الجنة والنار وكل مافيه عن هذا الشأن ايماء وتلميح وانما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى الحقوها بالجنة ولا عذابا بدنياً والاجثمانياً حتى اسندوه الى النار ثم لا تنسوا ان القرآن جعل اكبر ملاذ الجنة روحانياً اذ قال «وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها آمنين» فالسلام والامن هما في نظر كل عاقل اقصى اماني المرء واعظم الملاذ قاطبة والشيء الذي عبثا يلتمسه الانسان في الحياة الدنيا وقال أيضاً «ونزعنا مافي صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين» وأي رذيلة اخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات وأي شيء أهنأ من التآلف والتصافي ؟

واي دليل اشهر ببراءة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان الذي تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقدع عن مآربها وهذا هو منتهى العقل والحزم فان مباشرة اللذات ليس بالمنكر وانما المنكر هو ان تذل النفس لجبار الشهوات وتنقاد لحادي الاوطار والرغبات ولعل امجد الخصال واشرف المكارم هو ان يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان وان

يجعل من لذاته لا سلاسل واغلالا تعيبه وتعتاص عليه اذا هم ان يصدعها بل حليا وزخاف متى شاء فلا اهون عليه من خلعها ولا اسهل من نزعها وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصودا من محمدمعينا أو كان وحي الغريزة والهاما فطريا فهو والله نعم الامر

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة ابدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلما صادفت في القرآن وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التي يقول عنها « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » ماذا ترون كل هــذه الا ظلا تمثــل في خيال ذلك النبي الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق اعني الواجب وجسامة امره لقد كان هذا الرجل يرى الحياة امراً جسيما ويرى لكل عمل انساني مهما حقر خطارة كبرى فما كان من سيء فله من السوء نتيجة ابدية وما كان صالحا فله من الصلاح ثمرة سرمدية وان المرء قد يسمو بصالحاته الى اعلى عليين ويهبط بموبقاته الى اسفل سافلين وان على عمره القصير تقوم دعائم ابدية هائلة خفية كل ذلك كان يلتهب في روح ذلك الرجل القفرى كأنما قد نقش ثمت باحرف النار وكل ذلك قد حاول في اشد اخلاص وأحد جد ان يخرجه للناس ويصوره لهم فاخرجه وصوره في صورة تلك النار والجنة وأي ثوب لبسته هذه الحقيقة واي قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة في أى اسلوب واي صورة

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب من النصرانية وفيه للمبصرين اشرف معاني الروحانية واعلاها فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه ولقد مضى

عليه مئتان والف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم وما زال فوق ذلك دينا يؤمن به اهله من حبات افئدتهم ولا أحسب ان امة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين باسلامهم — اذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والابد وسينادي الحارس الليلة في شوارع القاهرة احد المارة « من السائر ؟ » فيجيبه السائر « لا اله الا الله » وان كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل واطراف النهار في ارواح تلك الملايين الكثيفة وان الفقهاء ذوي الغيرة في الله والتفاني في حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والملاي فيهدمون اضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الاسلام ونعم ما يفعلون

ولقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور واحيي به من العرب امة هامدة وارضاها مدة وهل كانت الا فئة من جوالة الاعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة فارسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فاذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقا وسع نوره الانحاء وعم ضوءه الارجاء وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى اصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الاندلس واشرقت دولة الاسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة وكذلك الايمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة وما زال للامة رقي في درج الفضل وتعريج الى ذرى المجد ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الايمان ألستم ترون في حالة اولئك الاعراب ومحمدهم

وعصرهم كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التي كان لا يبصر بها فضل ولا يرجى فيها خير فاذا هي بارود سريع الانفجار وما هي برمل ميت واذا هي قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهي ولطالما قلت ان الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس في انتظاره كالحطب فما هو الا ان يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا



المحاضرة الثالثة

« البطل فى صورة شاعر »

(دانتي — شاكسبير)

البطل في صورة اله والبطل في صورة نبي هما من ثمرات العصور الغابرة لا يعود بهما الزمان بعد ذلك ابدا وهما يدلان على جفاء في الفكر وغلاظة في الفهم يمحوهما مجرد تقدم العلوم الطبيعية ومحال على الناس ان يحملهم فرط العجب والاعجاب برجل من الرجال حتى يخالوه الها او ناطقا بصوت اله الا اذا كانوا عائشين في عصر خال البتة من الاوضاع العلمية الطبيعية نعم لقد انقضى زمن الآلهة والانبياء وجاء الزمن الذي يلبس فيه البطل صورة اقل عظمة وابهة وان لم تك اقل فضلا وحقا اعني صورة الشاعر والشاعر نوع من البطل لا ينفرد به عصر دون آخر جدير ان تنتجه اقدم العصور واحدثها

بطل نبي شاعر — الى غير ذلك من شتى الاسماء نعطيها للرجل العظيم في شتى الازمان والامكنة وذلك حسبما نرى بينهم من الفروق وحسب ما برعوا فيه من فنون الفضل وابواب العلم وعلى هذه القاعدة يمكننا ان نعطي كثيراً من الاسماء غير ذلك واني لاوقن باني لا احسب ان هناك رجلا عظيما لا يمكنه ان يكون عظيماً في كل فن فالشاعر الذي لا يستطيع الا ان يجلس الى يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة مستحيل عليه ان ينظم قصيدة بارعة ولا احسبه يجيد صفة الفارس الاروع الا اذا كان هو نفسه فارساً أروع ولا أحسب الشاعر الكبير الا انه يجمع في نفسه بين

السياسي والمفكر والمشرع والفيلسوف وانه قد كان يمكنه ان يكون — بل هو بالفعل — كل هذه ثم لا افهم لماذا كان يستحيل على رجل مثل «ميرابو» صاحب القلب الكبير المتوهج المتأجج ناراً المفعم دموعاً ان يكون شاعراً ينظم القصيد والمبكيات التمثيلية والمقطعات فيقرع بها القلوب والاكباد لو قد ساقته الاحوال والاسباب الى ذلك والامر الاولى الجوهري هو أن يكون الرجل عظيما وأن فيما قاله نابليون لكلمات لا تقل قيمة عن أكبر وقائعه وقد أذكر قواد لويز الرابع عشر فيخيل الي أنهم كذلك شعراء وأن في كلمات القائد « تورين » ما يماثل أقوال « ساموئيل جونسون » حكمة وبلاغة فالقلب الكبير والعين البصيرة هما رأس الفضائل وما كان لامرىء قط أن يجلّ ويعظم بغيرهما أولا تذكرون أن الشاعرين « بترارك » و « بوكاشيو » كانا تقومان بأعمال سياسية فيحسنا القيام بذلك ! أم لا تحسبون أن الشاعر « بارنز » لو قد جعله الله مكان « ميرابو » لأتى مالم يستطعه ولا نعلم أي عمل من الاعمال كان شاكسبير لا يؤديه على أكمل حال لو قد أسند اليه

ولست أنكر أن لكل أمريء طبيعة خاصة واستعداداً فطريا وأن هنالك فروقا في الغرائز ولكن فروق الاحوال والعلل أكثر وأكبر وما عظماء الرجال في ذلك الامر الا كاصاغرهم فانك لتتناول الطفل الممكن تصييره أي صانع فتعلمه حتى يصبح حداداً او نجاراً أو بناء ومتى أصبح هذا أو ذاك بقي كذلك طول عمره واذ كنا لا نزال كما قال « اديسون » نجد الرجل الاعرج الموهون يعتمد على عصاه وهو مع ذلك حمّال ينوء تحت ثقله الفادح وآخر ضخم الجثة شديد القوى عبل الشوى عاديّ الالواح

كأنه الهيكل المبنيّ وهو مع ذلك خياط لا يحمل الا خيطا وابرة يخف محمولها على النملة علمنا أن الامر غير متوقف على الاستعداد الطبيعي وكذلك الرجل العظيم ماذا يصير وبم يحترف — أيصير غازيا أم سلطانا أم فيلسوفا أم شاعراً ؟ أنها لمناظرة عويصة معضلة بينه وبين العالم ! وما عليه الا أن يقرأ العالم وقوانينه والعالم وقوانينه صحيفة منشورة أمامه وما لدي العالم مسألة أهم وأخطر مما يراه ويقضي به في شأن الرجل العظيم

ان بين الشاعر وبين النبي في نظر المتأخرين فرقا كبيرا ولقد كان مدلولهما في بعض اللغات القديمة واحدا . فلفظة « فاتيس » معناها شاعر أو نبي والحقيقة انه مازال بين النبي والشاعر لو يفقه الناس شبه قريب . وما برح جوهرهما واحدا من حيث ان كليهما ينفذ ببصره الى سر الكائنات المقدس . أو ما يسميه « جايتى » السرّ الجلى . الجلي لكل انسان ولا يكاد يراه مع ذلك انسان . السر الالهي الكائن في كل كائن — المستقر في باطن « الظاهر » كما تقول « فيشتى » — السر الذي ما جميع الظواهر من النجوم الزاهرة الى الرياض الناضرة الى ظواهر الانسان وافعاله الاثوب له وبدن يتراءى فيه ويظهر نعم السر الالهي في كل زمان ومكان موجود ولا ريب وربما اغفله الناس في معظم الاوقات والجهات اذ يحسب الكون الذي هو « فكر الله المحقق » شيئاً عاديا تافها هامدا كأنما هو شيء جامد تولى صنعه النجار والحداد ولا داعى هنا للاكثار في ذلك الموضوع ولكنى أقول ويل للذين لا يفقهون ذلك ولا يؤمنون به بل ويل لهم وأسف عليهم ويابؤس للحياة اذا كانت غير مشفوعة بذلك !

ولكني أقول من كان من الناس ينسى ذلك ويغفله فان الا « فاتيس »

اعني الشاعر او النبي باحدى اللغات القديمة لم ينسه ولم يغفله ولكنه نفذ اليه ببصيرته وانما أرسله الله ليفعل ذلك وليكشف من سر الله ما غمض هذه هي ابداء رسالته الى الناس أن يجلو لنا غامض السر — ذلك السر الذي هو اليه أقرب وبه أعرف من سائر الخلق فاذا نسوه فقد ذكره مسوقا الى ذكره بأقوى دافع من ذات نفسه عائشا فيه من حيث لم يرد ولم يشعر فهو ليس بتابع لمعتاد القول ولكنما رجل نظارة مبتدىء محقق فهو لا يستطيع الا ان يكون مخلصا ومن عاش من الناس وسط الظواهر فهو العائش في صميم الحقائق المجتهد في الله الجادّ في شؤون الحياة والكائنات ولو عبث العالم طرا فالاخلاص أول اسباب شاعريته ونبوته وهكذا يشترك الشاعر والنبي في ادراك سر الله الجلي فهما من حيث ذلك واحد

أما الفرق بينهما فذاك : وهو أن النبي قد تناول هذا السرّ المقدس من وجهة الخير والشر — المحظور والمباح وتناوله الشاعر من وجهة الجمال والحسن والجلال وما شاكل فأحدهما الهادي الى ما نفعل وثانيهما الدّال على ما نعشق على انهما بعد متداخلان وفرعان متعانقان لا يمكن الفصل بينهما وفصم عروتهما ولا يخلو النبي أيضاً من تتبع الجمال ايان كان والا فكيف له أن يبصرنا ما يجب علينا اتيانه ولقد جاء في التوراة — وهو قول نبي — آية جديرة ان تحسب كابدع ما نظم شاعر وهي « انظر الى زهر الرياض فانك لا تراه يكدح ولا يغزل ولا ينسج وهو مع ذلك قد كسي من ثياب البهجة وبرود الحسن مالم يكسه سليمان في ريعان سلطانه » أليست هذه الآية ثمرة البصيرة النافذة الى أعمق اعماق الجمال ؟ « زهر الرياض » — رافل من فنون ألوانه في أقشب من مطارف الامراء وآنق

من حلل الملوك وهي بعد نابتة من الثرى المتواضع والتراب المتطامن كأنها عيون الملاح ترنو اليك من خلال بحر الجمال الباطن وهل كان للارض أن تصوغ هذه الازهار لو لم يكن الجمال جوهرها رغماً من ظاهرها الجعد المتلبد ومن ثم قال « جيتا » قولا استنكره الكثيرون وهو « الجمال أفضل من الخير والجمال يشتمل على الخير وأكثر » وانما قصد الى الجمال الحق الذي يفضل الجمال الكاذب كما تفضل حدائق الجنة غابات « بولونيا » وحسبنا ذلك بيانا للفرق بين الشاعر والنبي

قليل في شعراء الاعصر القديمة والحديثة من يحسبهم الناس كاملين قد بلغوا الغاية القصوى وهذا القول وايم الله ان كان ظاهره الصدق فهو في الواقع اخدوعة اذ الحقيقة انه ليس في جميع الشعراء كامل وانما الشعر عرق يجري في طبيعة كل امرئ لا يخلو منه فرد وكل انسان يجيد فهم قصيدة فهو اثناء اعتها شاعر وما الفؤاد الذي يرتاع لتلاوة جحيم « دانتي » الا من طينة فؤاد ذلك الشاعر وان كان بعد اقل شاعرية ولم يك غير شاكسبير بقادر على اشتقاق قصة هامليت من تلك الحكاية القديمة — حكاية الشاعر « ساكسوجراماتيكاس » ولكنه ليس من انسان الا ويستطيع ان يصنع قصة ما من تلك الحكاية يكون مقدارها من الجودة والرداءة بمقدار ما وهبه الله من قوة الخيال أو ضعفه وارى التعريفات كلها اختيارية ذوقية ما لم يكن هنالك فرق محدود كما بين المربع والدائرة فكل رجل فاق حظه من المزية الشعرية حظوظ سائر قومه وجيله حتى نصع امره بينهم كالغرة في الفرس البهيم والابلق وسط الدهم كان جديراً ان يسموه شاعراً وكذلك شأن انتقادهم اكابر شعراء العالم فان من رأوه

من الشعراء قد برز في مضمار الشعر حتى بز القرناء وحلق في سماء الخيال حتى علا النظراء اجمعوا على اجلاله وسموه شاعراً عاما على ان مثل هذا الحكم ليس في الحقيقة الا مسألة ذوق ورأيا خاصا فان في جميع الشعراء بل في جميع الناس معنى من الشعور العام أو الشاعرية العامة لم يخل فرد من ذلك وسرعان ما ينسي الناس معظم الشعراء ثم لا تحسبن ان الاعاظم الافضلين منهم: امثال شاكسبير وهوميروس: الاملاقين من النسيان حظوظهم ولا بد من يوم يصبح امرهم فيه نسياً منسيا

ولسائل ان يسأل أي فرق هنالك بين الشعر الحر وبين الحر من الكلام غير الشعري فالاجوبة على ذلك كثيرة ولا سيما ما كتبه نقاد الالمان في ذلك الصدد وفيها الذي لا يفهم لاول وهلة فمن ذلك قولهم ان الشاعر تكون روحه عديمة النهاية ثم هو ينفض هذه الخاصية اعني عدم النهاية على كل شيء يصفه او يصوره فهذا الكلام وان لم يكن بحكم ولكنه جدير بالذكر اذ كان انما قيل في موضوع مبهم مثل الشعر ثم هو لا يخلو من بعض المعنى اذا تؤمل وتدبر اما أنا فاني اجد معنى جما في التعريف القديم للشعر وهو انه الكلام الموزون المودع شيئاً من الموسيقى حتى لهو ضرب من الغناء وحقا لو اضطر الانسان الى اعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزا ذلك التعريف القديم فاذا كان نظمك موسيقيا لا في اللفظ فقط بل في اللب والمادة وفي جميع الافكار والمعاني والنظام والنسق فهو شعر والا فلا والمعنى الموسيقي هو ما اذا خرج من ذهن نفذ الى لباب الشيء وادرك مكنون سره اعني النغمة الكامنة في جوفه — أعني ما يستتر في ضمير ذلك الشيء من موسيقى الائتلاف والوئام — من ذلك الموسيقى الذي ليس الا

بفضله يوجد ذلك الشيء ويكون أهلاً لأن يوجد في هذه الدنيا ولقد يمكننا القول بان لباب كل شيء موسيقي أعني انه اذا بدا للناس بدا في منطق موسيقي أي بدا في صوت الغناء واني أرى معنى الغناء عويصاً عميقاً اذ أين ذلك الذي يستطيع ان يصف لنا تأثير الغناء بالقلم أو باللسان والغناء ضرب من الكلام المستحيل النطق والمتناهي العمق الذي يذهب بنا الى شواطيء المجهول فيتركنا ننظر برهة في ذلك البحر !

اجل ان في جميع الكلام حتى في أكثره استعمالا لشيئاً من النغم والغناء وليس ثمت قرية في العالم مهما حقرت الا ولأهلها لهجة قد خص بها منطقهم وكلامهم — فهذه اللهجة هي النغمة التي يغني بها أولئك القوم ما يقولونه من الكلام ؛ نعم ان اللهجة ضرب من النشيد والترنم وما من قوم الا ولهم لهجة خصوا بها وان كانو لا يفطنون الا للهجات غيرهم ثم اذكروا أيضاً ان كل كلام صادر عن انفعال فانه يلبس بطبيعته ثوباً موسيقياً بل أرى كلام الغضبان صوتاً من الغناء وهكذا كل لباب وصميم وشيء عميق فهو غناء بل يظهر لي ان الغناء هو لبابنا الجوهري وان كل ما فينا بعد ذلك اللباب أو الغناء فانما هو لفائف وقشور وأغلفة ! نعم الغناء هو أول عناصرنا وعناصر جميع الاشياء ولقد كانت اليونان تقول في خرافاتها ان للفلك في مسيره موسيقى ولعل ذلك كان دليلاً على ما كانوا يشعرون به من تركيب الكائنات الباطني ونظامها الداخلي وان روح أصواتها وتعبيراتها لم يك الا غناء وموسيقى وعلى ذلك فنسمي الشعر : فكراً موسيقياً : والشاعر هو ذاك الذي يفكر على هذه الصورة واساس ذلك هو في الحقيقة قوة الذهن وانه الاخلاص ونفاذ البصيرة هما اللذان يجعلان المرء شاعراً

أنظر الى صميم الاشياء يكن نظرك موسيقيا فان قلب الطبيعة هو الموسيقى لو أمكنك ان تنفذ اليه

ويظهر لي ان الشاعر — كاشف أسرار الوجود بنغماته — ينزل من نفوس الناس منزلة منحطة جدا عن منزلة النبي اذ يرون عمله تافهاً ووظيفته صغيرة فكان البطل عندهم أولا الها ثم نبياً ثم شاعراً أليس في ذلك دليل على انحدار الرجل العظيم في انظارنا على توالي الزمن فانا نراه أولا الها ثم ذا وحي الهي ثم لا نرى فيه بعد ذلك الا ناظم اشعار جميلة ورجلا نابغة وبارعا وما أشبه! هذا هو الظاهر لي ولكني أحمل نفسي على الاعتقاد بان الامر خلاف ذلك شعوراً مني بانه لا يزال في بني آدم الاجلال المفرط — لم ينقص مثقال ذرة — للعظمة والبطولة في أية هيئة بدت وأي اسم أعطيت

وقد اعلم انه اذا كنا الآن لا نرى في الرجل العظيم الها ولا نبيا فما ذلك أن رأينا في الله وفي ينبوع الضياء الاقدس الاعلى ومنبع العظمة والعقل الاوفر الاوفى قد اتضع وخبث بل بالعكس لأنه قد سما وطاب وجدير بكم ان تعوا ذلك وتذكروه ولا انكر ان الشك والكفر والاستخفاف آفات هذه العصور قد أحدثت ضرراً عظيماً في هذا الامر الاجلّ الاعلى باضعافها في نفوس الناس اجلالهم للبطل حتى أصبح معظمهم ينكرون وجود العظماء المستحقين للاجلال وهذه وابيكم الأم العقائد وانكاها وأوخمها مغبة ولن يكون مع اعتقادها الا اليأس المطلق من الانسانية وسائر أمورها وأشيائها ومع كل ذلك فانظروا الى نابليون ضابط صغير على طائفة من جند المدافع هذا هو ظاهر نابليون ولكنه مع ذلك قد أصاب من طاعة رجاله وتقديسهم اياه ما لم يصبه كثير من الانبياء وجبابرة الملوك ثم

انظروا الى الشاعر بارنز كيف كان اذا اطرد به مجرى الحديث استوقف الاميرات وخدم الاصطبلات بسحر بيانه فلم يبق منهم الا من شعر بان لذلك الرجل فتنة وجلالا لم يروهما لاحد غيره وانه هكذا تكون الرجال والا فلا! فترون من ذلك انه قد كان يكمن في قلوب هؤلاء القوم وان لم تصرح به السنتهم ويلمح من خلال حركاتهم وان لم يظهر ساطعاً جلياً انهم كانوا يرون عظمة وقوة وجلالة لايجدونها لسائر الرجال في ذلك الفلاّح الكثيف الحاجبين الوقاد المقلتين صاحب الكلمات التي تستوكف الاعين تارة بهوامر الدموع وطوراً تقوم بالضحك الشديد حنايا الضلوع اولا نشعر نحن ايضاً بذلك؟ ولكنه لو طهر الله نفوس الناس من ادران الشك والاستخفاف والعبث وسائر هاتيك الرذائل — وسيفعل الله ذلك يوما ما — نعم لو ابدلت القلوب من رذيلة الايمان بالمظاهر الكاذبة فضيلة الايمان بالجواهر الصادقة اذن فاي منزلة تكون لمثل الشاعر بارنز في نفوسنا وأي محبة واكبار وتمجيد

وعلى كل ذلك الا ترون ان لدينا شاعرين هما وان لم ينالا منزلة الالوهية فقد نالا في هذه العصور على ما بها من رذائل الاستخفاف والنكران والشك منزلة التقديس والولاية نعم ان شاكسبير ودانتي لوليان من أولياء الشعر حرام على كل انسان ان ينال مقامهما الشريف بادنى اساءة وهذه نتيجة وصل اليها العالم بالالهام والفطرة رغماً مما قام في طريقه من ظلمات الجهل والشك وعقبات الجحود والكفر ويفصل هذين الشاعرين من الزمن مسافة قصية وكلاهما قائم في فضاء الدهر كراهب في فضاء القفر له مملكة من الوحدة ودولة من الوحشة غريب في جيله وقومه

غربته العلى على كثرة الاهـ ـل فأضحى في الاقربين غريباً

لا مثيل لهما في سائر الشعراء تباركاً عن الانداد والاقران يحفهما في نظر العالم نور من الجلال ورونق من الكمال فهما مقدسان وان لم يتول تقديسهما بطارقة وقسوس وهكذا ترون كيف ان ما اودع نفوس البشر من فطرة اجلال البطل ما يزال يحيى في قلوبهم برغم انتشار السخرية والاستخفاف واستيلاء الجحود والكفر وسنلقي نظرة في تاريخ هذين البطلين

لقد ألفت عدة تراجم لدانتي وجملة حواش وشروح لكتابه ولكنها على العموم قليلة الثمرة أما تاريخ حياته فقلما يعرف عنه وقد فقد معظمه حتى لا يمكن تداركه لم يك دانتي في زمانه الا رجلا صغير الشأن شريداً طريداً مكسور الفؤاد مهيض الجناح قليلا اهتمام الناس به مدة حياته وأسوأ من ذلك ان معظم انباء ذلك الخمول والبلاء تراها على علاتها قد بادت على ممر خمسة قرون وعلى كثرة ما كتب عنه من التراجم والشروح فكتابه هو جل ما نعرفه عنه كتابه وصورته المنسوبة الى المصوّر « جيوتو » التي إما نظرت اليها لم يسعك الا الشهادة لصانعها بالاحسان والاجادة أيّاً كان أما أنا فأرى ذلك الوجه أمس الوجوه لكبدي وأقرعها لاحشائي وأرى آية الحزن والالم وآية الفوز كذلك والظفر على صحيفة ذلك الوجه البادي في رقعة المصور منفرداً وحيداً لا يحفه شيء من الاثاث والمتاع الا ما يرفرف عليه من روح الوحشة — أرى كل ذلك عنوانا على تاريخ دانتي ! وظني انه اشجى وجه صور من عالم الحقيقة — وجه محزن مفتت للفؤاد اساس معانيه الرقة والرحمة والحنان لا كما تكون في الرجل بل كما تكون في الطفل ولكن قد خالط هذه المعاني الرقيقة معان أقسى وأمرّ معاني

وحشة وسخط وألم في تجلد وتعزز ويأس في رفعة وكبرياء روح رقيقة هواء قد لبست آية اليأس والقسوة والاستبداد والعبوس والاكفهرار كأنما تنظر اليك من وراء سجن من الثلج ! وقد قلصت شفتاه احتقاراً وازدراء — لا كازدراء الانس بل كازدراء الآلهة — للشيء الذي يذيب حشاه ويأكل فؤاده — كأن ذلك الشيء هو أحقر ما يكون وأدنى وكأن صاحب الوجه هو اشرف من ذلك الشيء وان كان يتجرع منه من البلاء ويسام به سوء العذاب انما هو وجه رجل منابذ للدنيا مناصب لها معارض لاحكامها قد صبّ عليها غارة شعواء وأقام لها من الحرب سوقا بضاعتها أبداً نافقة ورحى ما تبرح العمر دائرة وهل هي الا محبة تحولت حنقاً — لا يفتر ولا يستريح — متمهلا مطرداً ساكتاً كحنق اله ! ثم ترى للعين نظرة اندهاش واستفهام كأنها تسأل لماذا خلق الله الدنيا على هذه الصفة ؟ هذا هو دانتي هذا هو صوت عشر قرون خرس هذا هو الرجل الذي صدح لنا صوتاً عن الجحيم والجنة !

وأرى هناك مطابقة بين ما نعرفه عن حياة دانتي وبين صورته وكتابه ولد هذا الشاعر بمدينة فلورنس من اعمال ايطاليا في عام ١٢٦٥ وعلم وثقف على احسن نظام كان اذ ذاك وكان فيما تلقاه كثير من الفقه والمنطق والادب اللاتيني — وقدم راسخة في بعض ابواب العلم ولم يدع دانتي فيما نظن شيئاً يتعلم حتى حصله وكان ذا فهم صفيّ مهذب وذكاء مشتعل وعقل راجح وكان قد اتقن من العلم ماجاء في الازمان القريبة من عصره فأما مابعد عنه في أقاصي الغابر فلم يجد اليه سبيلا لخلو عصره من المطبوعات ومن أسباب التواصل وسلك في حياته المذاهب المعتادة فصحب جيش بلاده

في حربين وذهب مرة سفيراً الى بعض الولايات وأصبح بفضل ذكائه وجدّه احد القضاة الاكابر وهو في الخامسة والثلاثين من عمره وكان قد عرف في طفولته صبية حسناء في مثل سنه ومنزلته وكان يراها أحيانا وكانت تمتد بينهما صلات على بعد وكلكم يعرف ما كان من أمره معها وما كان من الشتات والفرقة ومن اقترانها برجل غيره ووفاتها بعد ذلك بقليل وهي تشغل جزأ عظيما من كتاب دانتي ومن حياته ايضاً ويظهر لي انه لم يحبب قط غيرها انسانا وكان حبا من صميم الاحشاء وان فؤاده مابرح يناجيها والقبر ما بينه وبينها وينزع اليها وهي مع الله ماتت وزوج من امرأة أخرى ولكنه لم يسعد وشتان ما بينه وبين السعادة.

ولسنا متوجعين لدانتي آسفين لما أصابه فانه لولا تلك المصائب لما كان دانتي الا احد قضاة بلده ولخسر العالم كلمات من ابرع ما أنشد وما تغنّى به نعم لقد كان يزيد قضاة « فلورنس » واحداً ولكن العشرة القرون الخرس كانت تستمر على خرسها والعشرة القرون التالية المصغية (لانه سيتم طبعاً بعد تاريخ وفاة دانتي عشرة قرون واكثر) تحرم تلك القصيدة الرائعة — كتاب دانتي وتخسر لذيذ مسموعها! نعم لا أسف ولا حرقة ولا حسرة وكيف وانما أراد الله لذلك الشاعر حياة اشرف واسمى ولعلنا لا نعرف أيها الاسعد الآ هنأ — عيشته تلك المرّة الالمية أم عيشا هادئا عاديا والسعادة والشقاء سرٌّ من الاسرار يعي به البشر وكلهم فيه خابط عشواء وحاطب ليل

وبينا دانتي عائش في وطنه قائم بوظيفة القضاء اذ ثارت فتنة أدت الى نفيه وسائر حزبه فكتب عليه منذ ذاك الشقاء والويل وانتزعت املاكه

وأصبح وهو

ناء عن الاهل صفر الكف منفرد   كالسيف عرّى متناه عن الخلل

وكان يشعر وفي حشاه جمرة تتوقد بان مالقيه من أفحش الظلم وأفظع الجور وحاول جهده أن يرجع الى وطنه وثروته ولم يدع وسيلة الا اتخذها حتى السلاح ولكن عبثاً حاول وما زاده اجتهاده الا خطباً على خطب ومحنة فوق محنة فاهدر دمه ونودي متى قبض عليه أعدم احراقا هكذا وجد في بعض الآثار والفى أيضاً رسالة تاريخها واقع بعد هذه الحوادث بعدة سنين رداً من دانتي على اقتراح قدمه اليه قضاة بلده يعدونه العفو والعودة الى منصبه واملاكه اذا هو قبل ان يقدم معذرة وغرامة فأجاب في عزة وكبرياء « اذا انا لم ارجع بريء الساحة موفور الكرامة فلا رجعت أبداً »

وكذلك راح دانتي فى هذه الارض الرحبة الفضاء بلا دار ينتقل من مضيف الى مضيف ومن محل الى محل منطبقاً عليه قوله : آدما أوعر المسلك وما أخشن الطريق ! » ولم يك دانتي بالجليس الممتع وانى يكون كذلك من ظل وهو كسير القلب كسيف البال كلا ولا كان دانتي صاحب الطبع الحاد والفؤاد الجادّ والاحزان والاشجان بجدير أن يلهي الغير بفكاهته ويضحكهم بنادرته وقد روى عنه بترارك انه لما كان في بلاط الامير « كانديلا سكالا » وقد لامه ذلك الامير على اطراقه واكتئابه وصمته اجابه بجواب خشن وكان الامير اذ ذاك وسط مجانه ومزاحه يضحكونه بغرائب النوادر فأقبل على دانتي يقول له « أليس عجيباً ان نرى ذلك الماجن المسكين يجتهد ليجعل في مقاله متاعا ولذة وأنت على مابك من عقل وحكمة تطوى اليوم فاليوم والشهر فالشهر مطرقاً صامتاً لاتفوه بكلمة يكون

لنا فيها مستمتع ومستلذ ؟ » فقال دانتي « لا عجب او لا تذكر المثل : ان الطيور على اشكالها تقع » فمثل هذا الرجل الكبير صاحب الاجوبة المسكتات والكلمات الموجعات والصمت والاطراق لم يك ممن تروج بضاعتهم بأفنية الملوك وكذلك مازالت الايام بدانتي حتى افهمته انه اصبح ولا مأوى له على ظهر الارض ولا ملاذ ولا ملجأ ولا أمل وان الدنيا قد نبذته ولفظته ليضرب في انحائها شريداً

كأنما هو في حل ومرتحل موكل بفضاء الارض يذرعه

وانه ليس تحت نجوم الفلك قلب ينبض رحمة له أو حشا يخفق وجدا عليه وانه لا خل ولا صاحب ولا سلوة ولا عزاء .

وكذلك كلما صدت عنه الدنيا وتجافت جنح بالطبع الى الآخرة وتوجه وامتلأ خياله بصورة العالم الابدي — ذلك العالم الحق الذي ليست هذه الدنيا وبلدانها ومناصبها ومصائبها الا ظلا كاذبا يرفرف عليه وناجته نفسه : اما وطنك « فلورنس » فلست ناظراً آخر الابد واما الجحيم والجنة فسوف ترى : وماذا وطنك والامراء وماذا العالم والحياة ! تلك لاشيء ! وكذلك اذ اصبح دانتي في الدنيا بلا مأوى جعل مأواه في عالم الآخرة الرائع الهائل وكذلك أصبح لا يرى حقيقة غير الآخرة فصارت مسرح خواطره ومراح افكاره والآخرة سواء حسبها الناس شيئاً معنويا اوشيئاً حسياً فانها ما برحت اهم أمورهم ولكن دانتي كان يعتقد انها حسية تنظر بالعين وتوطأ بالقدم وتمس باليد وكذلك كانت عقيدة تلك العصور فلم يشك دانتي في انه سيبصر طبقات الجحيم وينظر بها بركة « ماليبولج » كما لا يشك أحدكم في انه يبصر القسطنطينية لو أصبح على شاطىء البوسفور

فلما افعم فؤاد دانتي من هذه الافكار والخواطر وطال عليه تأملها في سكوت وتدبرها في صمت طفح بها اناء صدره وفاض فبرزت للعالم في ذلك الشعر الباهر والغناء الساحر كتابه المسمى القصة المقدسة اشرف الكتب الحديثة وأشهرها .

ولقد كان من أقوى أسباب العزاء لدانتي بل من اعظم دواعي الفخر انه استطاع ان يخرج ذلك الكتاب الاجل في منفاه ومحنته وانه لم يك في طاقة « فلورنس » ولا في قدرة أي رجل أو رجال أن يحولوا بينه وبين اتيان تلك المأثرة الكبرى والمفخرة العظمى أو يعينوه عليها وكان يشعر بعض الشعور انه عمل جليل كأجل مايستطيعه امرؤ وكان ذلك البطل الضخم يقول في شدة بأسائه وازمة نكرائه اذا أمضيت عزمك ظفرت كل من سار على الدرب وصل وكانت مؤنة الكتابة كبيرة عليه جدا وكان نصبها شاقا حتى قال : هذا الكتاب الذي تركني عدة أعوام في هزال » أجل لقد أحرز دانتي قصبات السبق بالكد والالم لا بالدعة واللعب — بل بالجد العنتمي والجهد الناصب كيف لا وانما بدم فؤاده سطر ذلك الكتاب وخطه وكذلك معظم الكتب الجليلة تنقش بدماء كتابها والكتاب مودع سيرته جميعها وكانت وفاته بعد ان أكمله بمدة يسيرة ولما يطعن في السن — وانما قضي في السادسة والخمسين من عمره — ضحية الحزن والكمد — هكذا يقال وهو الآن مدفون حيث لاقى منيته في بلدة « رافينا » ولما مر على وفاته قرن طلب ابناء وطنه الجثة من اهالي « رافينا » فابوا كل الاباء وعلى قبر دانتي هذه الآية : ها انا ذا — دانتي — مدفون بعيدا عن وطني ومسقط رأسي

قلت ان قصيدة دانتي غناء وقد سماها « تيك » غناء لغزاً عميقاً وما عدا بذلك عين الحقيقة وقد قال « كولرج » في بعض كتاباته ان كل جملة موسيقية التركيب يجري في اثناء لفظها حلو النغم فلا بد من ان تكون ذات معنى جليل شريف لانه مازال ابداً بين الجسم والروح — بين اللفظ والمعنى الفة وشبه والشعر القديم الجيد — شعر هو ميروس مثلا كله غناء بل كل شعر حر غناء وان كل شعر لا يصلح ان يتغنى به فما هو بشعر ولكنه قطعة نثر فصلت في لفظ طنان فيه عقوق لقواعد النحو واذى ومصاب على القراء واذا كان في رأس أحد الناس خاطر فما باله لا يبديه في عبارة سهلة قريبة — أعني في جملة نثرية ؟ بل ما باله لا يستريح أو يخرجه ملتوياً معقداً تطن به القافية اما انه لا حق له قط في النظم والغناء بالقوافي حتى تملك فؤاده حرارة الانفعال وموسيقى الوجد فيصبح صوت منطقه بفضل موسيقية افكاره وعمقها وعظمتها موسيقياً اذن فله علينا ان ندعوه شاعراً ونصغي اليه على انه غريد الناطقين وهزار اللافظين والادعياء في ذلك كثيرون ولذلك كانت قراءة النظم على القارئ الاريب عملا شاقا ان لم نقل عملا لا يطاق ! وما اقبح النظم الذي لم يكن هنالك ضرورة الى نظمه — الذي كان اولى له ان يلقي الينا معناه في وضوح واختصار من غير تقطيع ولا رنة ولا طنين واني انصح الى كل من أمكنه ان يقول افكاره ان لا يغنيها وان يفهم انه لا مجال في الاحوال الجدية وبين القوم الجادين للطنين بافكاره والتلاعب بها مادامت ليست مما تقذفه الجنان برغم صاحبه شعرا وكما ان الغناء الحر يلذنا ويطربنا فكذلك الكاذب منه يؤلمنا ويوجعنا ولا يقع منا الا موقع الضوضاء الممقوتة المنكرة ولا نراه الا كطنين الذباب أو دوي النحل

وحسب دانتي فخراً أن أقول ان قصته هي غناء حسن بلى اني لاحس الوزن الموسيقي يطرد في جميع لفظها فكأنها نشيد من الاناشيد ولعل لمزية اللغة الطليانية دخلا في ذلك بل ارى حركة اللسان في تلاوتها تجري على ميزان فكأنها ضرب من الرقص ولكن السبب الاكبر في ذلك هو خروجها من أعماق الفؤاد فجوهرها ومادتها من الموسيقى وهي بفضل عمقها وحرارتها واخلاصها موسيقية وانك ما تعمقت قط الا أصبت الموسيقى في كل شيء ثم لا تنس ما بالقصة من حسن الائتلاف والتوازن والتناسب وهذا أيضاً من جنس الموسيقى وكأنما اركانها الثلاثة : الجحيم ومكان التطهير والجنة في تواجهها الاركان الثلاثة لقصر مشيد وكأنها كنيسة قدسية عامة باذخة على وجهها آية الروع والجلال والهيبة هذا هو العالم الذي خلقه دانتي وملاه بالارواح بين منعم ومعذب — هذا عالم الارواح خلقه دانتي ! وهي أشد أشعار الدنيا اخلاصاً فالاخلاص هنا ايضاً مقياس الفضل ولقد خرجت من لباب لبه فهي ما تزال تبلغ لباب البابنا

افرغت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبة الى كل نفس

وكان أهل فيرونا اذا بصروا به في احدى الطرقات قالوا : ها هو الرجل الذي كان في جهنم ! بلى وخالق الخلق لقد كان في جهنم — في جحيم الحزن والكربة والبلاء والقصص التي تخرج من القلوب مقدسة لا يكون مصدرها الا الشقاء والبث واللوعة أو ليس الفكر والعمل الحر ايّا كان والفضيلة العليا — أفليست كل هذه بنات الألم ؟ فكأنها نجمت من الزوبعة السوداء — أليست مجهود صادقاً كمجهود الاسير اذ يحاول خلاصه ؟ وما زال الالم مصفاة النفوس وراووق الطباع

وقد هذبتك الحادثات وربما   صفا الذهب الابريز قبلك بالسباك

بلى ليخيل الي ان شعر دانتي قد سبك في تنوّر روحه وبودقة قلبه ألم يتركه « مهزولاً » عدة سنين ؟ وان الدقة لتعتور قصته جميعها لم تغادر منها فقرة ولا جملة فتراها لذلك أصدق ما يكون وأجلى وأنصع وتراها متجاوبة الاقسام ينزل كل جزء من اجزائها في موقعه كأنه حجر المرمر المحكم نحته واجيد صقله وهل هي الاروح دانتي تتضمن روح القرون الوسطى قد برزت للعيوّن في ابدع قوالب الشعر واعجب صوره وتالله ما هو بالعمل السهل وانما أمر عظيم وخطب جلل ولكنه أمر نفذ وعمل أكمل

ولعل الحدة هي أكبر مميزات دانتي فما هو بالرجل الواسع الصدر السمح النفس ولكنه رجل ضيق العطن متحزب وبعض هذا راجع الى طبيعة العصر وبعضه الى طبيعة الرجل فترى ان ملكات دانتي وقواه الذهنية قد تجمعت وتكاثفت حتى أصبحت حدّة نارية وشعوراً عميقا فهو ينفذ في جسم كل شيء حتى يرسب في قرارته ولست والله أعرف في الوجود شيئاً له مثل هذه الحدّة أنظروا الى تصويره الاشياء تروا أن له أقوى قوة بصرية فاذا نظر الى الشيء عرف حقيقته فأداها وحدها وتذكرون صفته لقاعة «دايت» بالجحيم اذ قال « ذروة حمراء : حديدة محماة جمرية التوقد مخروطية تتوهج فى ظلمة كثيفة طخياء » ما انصع هذا الوصف وما ابين وما اوضحه لاول وهلة ثم الى الابد ! وهذا عنوان الرجل فان فى دانتي لاخصر ايجاز واقتضاب فى دقة وأحكام وانه ليقذف بالكلمة يصيب بها كبد الحقيقة وكأنها طعنة الفارس الكمي — ثم وراء هذه سكوت أفصح والله من القول

والشعر لمح تكفي اشارته   وليس بالهذر طولت خطبه

ثم ما أرشق تشبيهاته وما أدقها وما أحكمها حتى ليخيل اليّ أنه يحز في الشيء بقلم من نار فيقول عن المارد المتفخ حينما ارعوى لزجر فرجيل « انه كان كالشراع انحطم عموده بغتة فهوى » ويذكر أحد المعذبين فيقول « بوجه مشوي » ثم انظروا ما ذكره من « الثلج النارى » المتساقط على المعذبين « ثلج نارى بلا ريح بطيء مصمم دائب لايني ولا ينتهي » ولا احسب هذا التصوير الا قطعة من صميم عقل الرجل وفيه يتجلي لنا ذلك الطبع الطبياني الحاد السريع النارى الصامت الشديد القوي وحركاته الوشيكة المقتضبة وثوراته الساكتة الكظيمة

لان التصوير وان لم يكن الا من القوى الظاهرية السطحية ولكنه خارج كسائر القوى من جوهر النفس وعنوان على الرجل جميعه أوجد رجلا يحسن الوصف توجد رجلاً فاضلاً ذا قيمة فانه ما كان ليتبين حقيقة الشيء لو لم يكن في فؤاده حب يلقيه على ذلك الشيء فيكون سبباً الى التعمق فيه وانعام النظر — لو لم يكن ذا جد واخلاص والرجل العديم الفضل لا يستطيع ان يصف لك شيئاً فانه بضعفه ولؤمه لا يمكنه أن يتعدى الظواهر ولا يقف الا عند الاكاذيب والاباطيل أولا يمكننا القول بان آية الذهن هو قدرته على استبانة حقائق الاشياء ؟ — استبانتها بالامتزاج بها الناشيء عن محبتها والانجذاب نحوها وكذلك الطبيعة لا تكشف اسرارها الا للولوع بها الذي كله اخلاص لها وصبابة اليها وقدما كان الحب اول هاد الى خبايا الحقائق الحب الصادق الصاحى الراكز على اساس العقل والحكمة لا الكاذب الثمل الطائر باجنحة الخديعة والطيش لان الحب

الصادق يستدعى رقة الشعور وسداده والشعور الرقيق المسدد هو مقلة النفس المستجلية للغوامض المستبطنة الدخائل ولن ترى الرجل البليد الاحساس الكليل الحب الا محجوبا عن اسرار الامور لا يلابس منها سوى القشور وهذا هو الواقع حتى في المسائل العملية فالرجل الذكى الاريب هو ما أبصر من الامر المراد اتيانه النقطة الجوهرية فامسك بها وصفح عن كل ماعداها

وليس الوضوح والاختصار والصدق والجلاء الناصع الذي كأنه وهج الحريق في الليل البهيم هو كل مايمتاز به وصف دانتي وتصويره بل تراه أيضاً شريفاً جليلا كيفما قلبته ومن أى ناحية اتيته ثمرة روح شريفة جليلة انظروا الى ماورد بالقصة من حديث الغادة « فرانسسكا » وعاشقها — ذلك الحديث المذيب الفؤاد المفتت الاكباد تجدوه كأنه منسوج من الوان قزح على رقعة من السواد الابدىّ او كأنه صوت ناى جم النواح مبحوح الانين يناجي حبات القلوب باديا فيه رقة الشكوى وذلة الولهى ورنة الثكلى وأشجي ما فيه ان الحبيبين يلقيان عذاب الجحيم معاً فحبذا ذلك الاجتماع سلوة في الشقاء وعزاء في الضراء لقد كان الشاعر صديق والد « فرنسسكا » هذه وربما جلست تلك الفتاة على ركبة دانتي صبية بريئة من كل عيب حسناء سمحاء ولكنها اذ اذنبت في حياتها ابى دانتي الا عدل الجزاء فجعلها في جحيمه بحيث تعلمون ولكنه شفع العقوبة بما ترون من نعمة الوصل ومنة الاجتماع بحبيبها يا لها رحمة في قسوة وعفو فى شدة وتلك شيمة الطبيعة وما قصر عن اداركها دانتي وما أفيل رأى القائلين بأن كتاب دانتي لم يك الا هجاء فاحشا أراد أن يسيء به الى من أعياه

مؤاخذتهم والانتقام منهم وأحسب لو أن رجلا حمل في قلبه حنان الأم الرؤوم ورأفتها فذاك هو دانتي ولكن من لم يعرف القسوة لم يعرف الرحمة أيضا والذي تخاله منه رحمة هو في الحقيقة جبن أو تصنع للرحمة قصد الافتخار وما أعرف في العالم رجلا ارحم من دانتي ولا أكثر حباً وان بين جنبيه لحشا خفاقا ووجداً واشفاقا وفؤاداً ملتاعا وولهاً ونزاعا كحنين النايات والعيدان ليناً ليناً او كمهجة الطفل ويشوب كل ذلك مرارة الحنق ووعورة البأس والعناد ! سخط على عمى الحظ وعثرة الجد وجور القضاء ولؤم الزمن وصبابة وحنين الى حبيبته « بياتريس » ولقاؤهما فى الجنة ونظره فى عينيها النجلاوين تشرقان بشعاع النور المقدس — وقربه منها — من الغادة التي طهرتها حياض الفردوس وصفاء الابدية كل هذا شبيه عندي بأغاني الملائكة ولعله اصفى ما نطق به امرؤ فى هذه الحياة الدنيا من آيات الحب الطاهر

وأرى هذا الرجل الحاد حاداً فى كل شيء فلقد نفذ بحدته الى كل جوهر ولب وما عمق نظره في التصوير وعمق نظره فى البرهان والدليل الا مايعتور جميع ملكاته من الحدة وهو فوق كل ذلك كبير من حيث الصلاح والتقى وذاك اساسه وعنصره فاحتقاره للدنيئة عظيم وأسفه على أولى البؤس والبلاء عظيم كعظمة حبه ووده وهل الاسف والاحتقار الا حب قلب عن جهته وأحيل عن طبيعته ويقول فى كتابه عن الجناة المجرمين حين يمر بهم فى الجحيم « لسنا متكلمين عنهم وحسبنا نظرة اليهم ثم نضرب صفحاً » ياله احتقار في ترفع ونفرة فى سكوت وانفة فى صمت واعراض ثم قوله يذكر فئة من المعذبين « لقد انقطع أملهم حتى من الموت » ليخيل

الى ان دانتي يعرض بنفسه في هذه الجملة فلقد أتى عليه حين من الدهر كان قد يئس من الراحة حتى راحة الموت ولعله جاءه بعد ذلك يوم برق فيه لفؤاده المكلوم شعاع أمل انه سيلقى بعد كل ذلك الجهد والمصاب والكمد راحة القبر وان القضاء نفسه لا يمكنه ان يحرمه هذه النعمة » مثل هذه الكلمات كانت في ذلك الرجل وأراه في الحدة والشدة والجد والعمق مقطوع القرين معدوم النظير الا في انبياء بني اسرائيل فاما اردت مثل كلامه فانظر في التوراة العبرانية

ولا اوافق قوما يفضلون الجحيم في قصة دانتي على قسميها الآخرين ومرجع هذا التفضيل هو في ظني « بيرونية »[1] في الذوق والمشرب ولعل القسم الثاني «مكان التطهير» ابرع من الجحيم واسمي اجل ما أشرف ذلك الجبل — جبل التطهير — فهو رمز لاشرف أفكار هذا العصر — رمز لبراءة الانسان بالتوبة واذا كانت الذنوب من وخامة العاقبة كما تعلمون والجحيم من العذاب والالم كما تعهدون أليس جديرا ان يكون في التوبة منجاة للمذنب وبراءة ؟ والتوبة أجل أعمال النصرانية ثم ما أبدع ما وصفها دانتي وأبرع اذ قال انه بعد خروجه من الجحيم أبصر على مدى العين بريق امواه تترقرق ولمع أمواج تهتز وتخفق في بريق الصباح ولمع الضحى فهذه صورة تدل على تحسن الحال وهذا ولا شك فجر الامل والرجاء قد لاح والامل حيّ لا يموت وأشد ما يكون في الحزن كالشهاب أسطع ما يكون في فحمة الديجور

كالكوكب الدري أخلص ضوءه حلك الدجى حتى تألق وانجلى

(١) نسبة الى بيرون يراد طريقة بيرون وهي كراهة العالم

وهناك جبل يقوم في سفحه ويصعد في أوعاره المذنبون التائبون وقمة الجبل في عليين دونها باب الجنة وماتني أنفاس هؤلاء التائبين المستغفرين تتصاعد الى عرش الله ويقولون لدانتي حين يرونه : استغفر لنا ربك : ولا يأتلون في ذلك الجبل صعوداً وارتقاء ومشقة وعناء وقد أدنى الكلال خطاهم وانضى الكد أبدانهم واسنّوا وشاخوا في ذلك الصعود ولما يبلغوا القمة ولكنهم مواظبون وجادُّون حتى يبلغوها وعندها باب الفردوس ورحمة من ربهم وغفران سيدخلونها خالدين وكلما بلغ القمة واحد عم الفرح الجميع وترنح الجبل طربا ووجف سرورا وهتفت الملائكة بنشيد مقدس ! فهذا في نظري تصوير شريف لمعنى شريف

ولكن أركان القصة الثلاثة متعاونة متوازرة ولا غنى لواحدة عن الاخريين وأرى «الفردوس» أحد أركانها موسيقيا صامتاً وغناء ساكتاً وهي المكفرة لسيئة الجحيم والجحيم لولاها ضرب من الباطل ومن الثلاثة يتألف عالم الآخرة كما كانت تمثله نصرانية القرون الوسطى وهو شيء جليل حر الجوهر طول الدهر ولعله لم يتمثل في نفس انسان كما تمثل في نفس دانتي اذ سطعت حقيقته في ضميره ونقشت صورته على لوح خاطره كالوحي في الحجر وما دانتي الا نبي أرسله الله ليبين هذه الحقيقة للناس وينقشها على جبهة الدهر وما أغرب والله سهولة انتقاله وسرعة تخلصه في مبدأ القصة من ذكر الحقائق العادية الى العالم الخفي حتى لنجدنا بعد سبعة أبيات أو ثمانية وسط عالم الارواح ونسير فيه كأنما نسير بين أشياء ملموسة لاريب فيها ! وكذلك كانت في نظر دانتي وما كانت الحياة الدنيا عنده الا سبيلا الى حياة أخرى خير وأبقى ولم تكن الدنيا في

نظر دانتي بأقل غرابة من الآخرة ولا الآخرة بأقل حقاً من الدنيا واذا كانت الآخرة عنده هي عالم أرواح فالدنيا كذلك في نظره عالم أرواح أو ليس في كل امرئ روح؟ نعم لقد كان ذلك بيناً له جلياً ولقد كان يعتقده وينظره فهو من أجل ذلك شاعره والاخلاص كما قلت أكبر صفات الشاعر

وجحيم دانتي وجنته ومطهره انما هي في الحقيقة رمز وتمثيل لعقيدته في الكون ولعل ناقداً يقوم فيقول لنا ما قصة دانتي الا العوبة شعرية وضرب من اللهو والعبث كلا والله انما هي أشرف وعاء ضمن روح النصرانية وهي تمثل باجسم رموز التمثيل ما أحسه دانتي من ان الخير والشر هما قطبا هذا الوجود اللذين عليهما مدار كل شيء وان الخلاف بينهما ليس هو ان الخير أفضل من الشر — مذهب الماديين الذين يرجعون في كل أمر الى الحساب والوزن والمكسب والخسارة — بل ان الخير هو الصالح فقط والفرض والواجب وان الشر هو الخبيث المحرم اتيانه تحريماً كلياً لا مقارنة بينهما ولا قياس ولا تفضيل فاحدهما للآخر كالحياة للموت — كالجنة للنار نعم ماشعر دانتي الا رمز لذلك ورمز للعدل السرمدي والتوبة والندم للنصرانية باكملها كما كانت في تلك القرون — رمز ولكنها في نظر دانتي ونظر تلك الاجيال عين الحقيقة التي لاريب فيها ولا شك ولا نزاع التي يعتقدها الناس من صميم افئدتهم ولقد قلنا قبل ان الناس ما كانوا قط مؤمنين بالرموز الشعرية والاقاصيص المنظومة ولا أحسب ان أهل عصرنا هذا يحسبون قصة دانتي مجرد قصة قصد بها الانتقام ممن أساءوا اليه ومجرد عبث وصنعة فاذا رأى ذلك أهل العصور الآتية

فشد ما يخطئون وقد قلنا عن الوثنية انها البيان الحق لما كان يجيش في صدر المتوحش من وقع مشاهد الكون وتأثير روائعه — بيان كان في وقته حقاً صادقاً وليس بخاو الآن من فضل وقيمة لنا ولكن انظروا الفرق بين الوثنيه والنصرانية — فرقاً كبيراً لم تكن الوثنية الا تمثيلاً لظواهر الكون وأفعال الطبيعة ولحياة الانسان وطبائع الاشياء وتقلباتها وتصرفات شؤونهما واختلاطها في هذه الدنيا وأما النصرانية فتمثل قانون الواجب الانساني — قانون الاخلاق والآداب فكانت احداهما للطبيعة الحسية بيانا عاجزا ساذجا لافكار الانسان الاولية اذ كان أهمّ الفضائل هي الشجاعة — الاستعلاء على الخوف ولم تكن الاخرى للعالم الحسي بل للعالم الاخلاقي فان لم يكن من الفرق سوى ذلك فأى فضل بين وارتقاء عظيم

وهكذا وجدت القرون العشر الصامتة التي سبقت عصر دانتي صوتها في ذلك الشاعر الكبير ولسانها و « القصة المقدسة » من يراع دانتي ولكنها في الحقيقة املاء عشرة قرون نصرانية وانما أتمها دانتي واكملها وتلك مازالت الحال وكذلك الحدّاد بآلاته وأدواته وصنعته وحذقه — قل والله نصيبه هو فيما يأتيك به من بدائع صنعته وانما معظم الفضل لجميع من سلف من واضعي الصنعة ومبتدعي أساليبها وأبوابها وكلهم قد صنع معه ماصنع وتلك هي الحال في كل أمر فدانتي هو لسان القرون الوسطى ومن خلال سطوره يلذ آذاننا صوت افكار تلك العصور كما لو كان أعذب النغم وأشهى الغناء ويرن في مسامعنا موسيقيا أبدياً مادعا الله داع وما ترنم في الايك مسجاع وما أفكاره تلك السامية الجميلة الرائعة الا ثمرة مافكر جميع الصالحين من قبله أو لو افضل والله أولئك وهل خلا هو من

الفضـل ؟ اما انه لو لم ينطق لبقي الطيب الكثير من تلكم الافكار كامناً مكتوما — لا أقول ميتاً : بل حياً صامتاً

وعلى كل حال أليس هذا الغناء اللغزى هو غناء روح من أكبر الارواح وتمثيل حقيقة من أكبر الحقائق ؟ والنصرانية كما يغنيها دانتي شيء خلاف الوثنية الشمالية وخلاف النصرانية التي هدمها الاسلام بقرى الشام — وانما هي اجل فكرة اعتقدها الناس انبرى لها ذلك الشاعر فغناها وألبسها ثوباً لا يبليه الدهر

: ابقى على الزمن الباقي من الزمن : أليس خليقاً بنا أن نفرح بذلك الكتاب ونغتبط ؟ وظني به سيبقى الآلاف المؤلفة من السنين لان فرقاً عظيما بين ماخرج من اعمق اعماق النفس وما صدر من خوارج اجزائها فالخارجي هو سحابة صيف ومسألة تولد مع الصبح وتموت مع المساء وتزول كالظلال بزوال الاهواء والاميال وما تزال تتلون وتتشكل بتلون الصروف وتشكل الاحوال وأما الداخلي فانه سواء اليوم وفي غد وآخر الابد وما يزال ذووا النفوس الحرة والقلوب البارة في كل زمان ومكان يجدون في دانتي هـذا أخا وصديقاً وخلا شفيقاً لما بين روحه وأرواحهم من النسب وبين قلبه وقلوبهم من الصلة والسبب

أو لم يكن نسب هناك فماؤنا ماء تحدر من غمام واحد

كيف لا ولما كانت نفوسهم ونفسه شعبا متفرعة من اصل واحد أصبح الالم الذي يقدح في نفسه يقدح كذلك في نفوسهم والامل الذي يدب في روحه يدب أيضاً في أرواحهم فقلبه وقلوبهم كالناي والعيدان اذا حن وهتف خفقت جوابا وانّت واعولت وذلكم نابليون كان يرتاح في

منفاه بسانت هلينا الى قصيد هوميروس ويسر جداً بما فيه من الحق والصدق وبين القارئ والمقروء كما تعلمون عدد السنين وأقوال أنبياء الله الاقدمين ما تبرح تخالط نفوسنا لخروجها من نفوس قائليها وصدور الكلام من اعماق الروح هو سر خلوده الوحيد ودانتي في عمق الاخلاص كأحد هؤلاء الانبياء وأقواله كأقوالهم خارجة من القلب ولا عجب اذا كان الله قد قضى لكتابه أن يكون أخلد شيء أخرجته أوربا لانه ليس أخلد من كلمة الحق شيء وكل ما بالقارة الاوربية من كنائس ومعابد ونحاس وحديد ومباني مشيّدة وثيقة فمهما بلغت من المتانة والرسوخ فهى قصيرة العمر في جانب غناء قلبي كهذا وظني انه سيبقى حبيباً الى القلوب شهياً الى النفوس وقد زالت جميع هذه الاشياء عن أوضاعها ولبست هيئات محدثة وتألفت في تراكيب جديدة وانعدمت ذواتها وان لم تنعدم مادتها وان ماصنعت أوروبا وما أتت لكثير جداً : مدن كبيرة ودول مجيدة وعقائد وشرائع وطوائف آراء وأعمال ولكنها لم تصنع من قبيل آية دانتي الا شيئاً قليلاً وذالكم هوميروس حيّ للآن يخاطبكم وجهاً لوجه ولكن أين دولة اليونان ؟ بادت من القرون العديدة وذهبت وزالت ولم يبق منها الا كثبان انقاض ان تسلها عن سالف مجدها لم تحر غير السكوت جوابا . حلم كان ومضى . دولة أصبحت في الثرى . كأنها رفات أميرها اغاممنون ! وكذلك قد كانت اليونان . وهى اليوم لا تكون الا ما نطقت

وماذا نقول للقوم السائلين « ما فوائد دانتي ! » انه سؤال غريب لا يسعنا امامه الا الضحك والاستغراب . حسبنا القول بأن العقل الذى

امكنه ان ينغمس في عنصر النغم والغناء ثم يغني لنا من ثمت غناء حسنا جدير أن يكون قد أثر أكبر الاثر في صميم الحياة وقلب الوجود . وأنه مازال طول الدهر ينبوع الغذاء لما في النفوس من جذور كل خير ومكرمة يغذيها بطريقة لا يهتدى الى قياسها ووزنها علماء الاقتصاد بمقاييسهم وموازينهم !وهل تقدر فائدة الشمس بمقدار ماتسقط عنا من نفقات الشمع والبترول؟ والخلاصة ان دانتي اجل من ان تقدر قيمته

وعلى العموم فما كانت الرجال وأعمالهم لتقاس بما نسميه تأثيرهم في الدنيا — بما نراه نحن انه تأثيرهم . — تأثير ؟ فائدة ؟ نتيجة ؟ عبث كل هذا وباطل ! ليصنع كل امرء صنعه فما ثمرته الا حسب عناية غيره . وسيثمر ثمرته وليس يهمنا أخرجت أعماله ترفل فى حلة الملك والدولة وترن من ضجيج الحروب وصدى الوقائع بما يملأ صدور الجرائد والتواريخ التى هى جرائد مصفّاة . ام خرجت عارية من كل هذه — خفية صامتة . — نعم ماذا يهم ذلك ؟ ليست هذه الظواهر هي الثمرة الحقيقية . وما قيمة الملك أو الخليفة الا ما احسن واذا كانت أعمال الملك أو الخليفة لم تعد على الناس بالخير والمنفعة فانها كالهباء وما ذلك الملك الا اكذوبة وباطل وحرض هالك وسقط متاع مهما احدثت اعماله في الجو من الضجة والجلبة ومهما فلل من مضارب السيوف وادار من أقداح الحتوف : ومهما قبض من الآجال . والاموال . وملك من اعنة الرجال . والاحوال . هذا الملك في الحقيقة لم يكن . الا فلتكبروا معى دولة السكوت وعالم الصمت ! حياهما الله من عالم ودولة ؟ لا يريان بالحس ولا يدركان باللمس . وهما مع ذلك انفع من الصراخ واجدى . وخير من الضجة وابقى .

وكما ان الله ارسل دانتي ليصور لنا في اشجن الغناء والنغم ديانة القرون الوسطى أو حياتها الباطنة . فكذلك ارسل شاكسبير ليصور حياتها الظاهرة الخارجية كما كانت اذ ذاك وما بها من مظاهر الفروسية والنجدة والمروءة وشتى الاهواء والمشارب والمطامع والمطامح والاساليب الدنيوية للتفكير والعمل والرأي وكما انا نبصر في هوميروس يونان القديمة . فكذلك سيكون شاكسبير ودانتي بعد الآف السنين المعرض الواضح لاوروبا الحديثة تجلى فيه دينية ودنيوية نعم لئن يك دانتي ادى الينا العقيدة أو الروح فقد أعطانا شاكسبير العمل أو البدن وكأن الله ابى الا ان نعطي البدن أيضا فاعطاناه على لسان شاكسبير وكذلك لما بلغت حياة القرون الوسطى — تلك الحياة الشريفة العالية — حد الكمال وآذنت بالاضمحلال السريع أو البطيء كما نراها الآن في كل مكان ارسل شاكسبير بعينه البصيرة وصوته المطرب الرنان لينظر تلك الحياة وليتغنى بها غناء يبقى ما ترنم النسيم في الشجر . وغرد البلبل في القمر . رجلان كفؤان — دانتي عميق حاد فائر كأنه ما بجوف الارض من النار وشاكسبير واسع هادىء بعيد مرمى البصر قصي مدى النظر . كأنه الشمس نور الارض الظاهرى . أحدهما ثمرة ايطاليا . والثاني بحمد الله ثمرة بلادنا

وعجيب والله كيف ساقت الصدفة الينا ذلك الرجل . وظني ان شاكسبير هذا قد كان من العظمة والسكينة والكمال والاستغناء بالنفس بحيث انه لو لم يخرج من قريته بسبب ما أتى من سرقة الغزلان لكان له في عيشة القرى وسكنى الريف مقنع عن كل ما عداهما وكان قد عاش ومات ولم تفتح اغلاق خزائنه . ولم تكشف اسرار دفائنه . فحرم العالم أكبر شعرائه قاطبة نعم لولا تشرده عن وطنه لذاك الحادث لاكتفى بالغابات والسموات

والريف والعيش القروى . ولكن ان كان شاكسبير هذا قد جاءنا عفوا . الم يجيء ذلك العصر — عصر اليصابات — أيضا عفواً كأنما من تلقاء نفسه ؟ وهكذا صروف الزمن واحوال الدهر تقبل وتدبر وتموت وتحيي وتذبل وتنضر كالشجرة التي جعلها الوثنيون الشمال رمزا للحياة الدنيا — ولكنها تذبل وتنضر وتلقى اوراقها وتورق بقوانين ازلية ونواميس ابدية . لا تظهر عليها ورقة الاعيقات : لا يظهر عليها بطل الاعقيات . عجيب والله ما بين جميع الاشياء والكائنات من الاسباب والروابط فما من ورقة ذابلة تعفن على ظهر الطريق الا وهى جزء متداخل في نظام الكائنات اجمع مستحيل فصله عن سائر الاجزاء . وليست كلمة أو فعلة لرجل ما الا ومنشؤها العالم اجمع ولا بد ان تعود بالتاثير آجلا أو عاجلا ظاهرا أو باطنا في العالم اجمع . اجل . هي شجرة « اجدرازيل » التي أصلها في مملكة الموت وذرى فروعها في الجنان !

وعهد اليصابات هذا وشاكسبيره من بعض الوجود ثمرة العصور السالفة — وينسب الى كاثوليكية القرون الوسطى . وانما نشأت هذه الحياة الظاهرية العملية التى تغنى بها شاكسبير من العقيدة المسيحية التي سجع بها دانتى . لان الدين كان اذ ذاك كما هو الآن وكما يكون في كل آن روح العمل — كان الحقيقة الاولى الجوهرية في حياة البشر . ومن العجب ان ظهور شاكسبير لم يكن الا بعد أن نسخت اللوائح البرلمانية تلك الكاثوليكية التى شاكسبير من ثمراتها — بقدر ما في استطاعة تلك اللوائح ان تنسخ دينا وثيق العرى — ومع ذلك فقد ظهر شاكسبير برغم البرلمانات ولوائحها . لقد ارسلته الطبيعة حين شاءت ولم تبال باللوائح والبرلمانات . فان الملوك والاميرات مذهبا وللطبيعة كذلك مذهبا . واللوائح البرلمانية حقيرة برغم

ماتحدث من الجلجلة والدوى . اذ اى لائحةأومناظرة كانت قادرة على اخراج شاكسبير هذا ؟ كلا ولا الولائم بالقصور ولا افتتاح صحائف الاشتراك ولا بيع الاسهم ولا غير ذلك من الطنين الحق أو الباطل ! انما جاد ذلك العصر الاليصاباتى بمجده وشرفه من غير ما طلائع ولا رواد . ولا احتفال لاستقباله ولا استعداد . وجاء معه شاكسبير منحة الطبيعة وجائزة الدهر . أداه الينا الحظ في سكوت . فتناولناه في سكوت . كأنما هو شيء صغير الشأن قليل الخطر . وانه في الواقع النعمة لاتقدر . والهبة لايحد مقدارها ولايحصر

ان صفوة الادباء في جميع الاقطار الاوروبية واعاظم الفحول من النقاد والكتاب والشعراء قد أوشكوا ان يجمعوا على ان شاكسبير سيد شعراء العالم على الاطلاق . والحق أقول انى لا أعرف قط ما يقارب تلك البصيرة النافذة والذهن القوى اذا تأملنا جميع صفاته في أى انسان آخر . تبارك والله وتعالى عن الشبه ذلك العمق الساكن والنفس الجذلة الصافية تتراآى في جوفها صور جميع الاشياء مبينة واضحة كأنها البحر العميق الصفى ! وقد قيل ان في تركيب روايات شاكسبير فضلا عن سائر الفضائل والمزايا آية على فهم مماثل لما جاء في كتاب بالون « النظام الجديد » « نوفام أو رجنام » وهذا حق . ولا غرابة فيه . وربما كان ابين اذا نظرنا الى الحوادث التاريخية أو الجغرافية العارية الجافة التي احدث منها شاكسبير رواياته البارعة الرائعة واجتهد أحدنا ان يصنع من تلك المواد اليابسة الميتة ماصنع ذلك الشاعر الاكبر ! حجارة واخشاب وحدايد متراكم بعضها فوق بعض في افسد اختلاط وتشويش شاد منها ذلك الرجل قصرا موثق الاركان . موثق البنيان . تتلى في اصغر اجزائه آية الاحكام والصنعة . حيثما القيت البصر لم تلق الا اتقانا

واحسانا . فكأنما ظهر في الدنيا وحده بقانون ابدى في فطرته وبناموس الطبيعة السرمدى وماهو الاأن ننظر اليه حتي ننسى الانقاض المبعثرة والاخلاط المشوشة التي صيغ منها وصور . وان كمال تلك الصنعة التي كأنها صنعة الطبيعة نفسها لتخفى فضل الصانع وتغيبه . ولنا أن نصف شاكسبير فى ذلك بأنه اكمل من كل انسان وفوق كل امرىء بطبقات . فانه ليدرك كأنما بالغريزة والفطرة مقتضيات الحال والمواد التي يصوغ منها شعره ومقدار قوته وعلاقة ما بينها وبين تلك المواد والاحوال . وما نظرته فى ذلك بالسريعة القصيرة ولا غَناء في تلك . وانما نظرة طويلة جمة الشعاع غزيرة الضياء ينير اشراقها الموضوع كله — وعين ذات ابصار دائب دائم . ساج ساكن أوبالاختصار عقل كبير . وعسي اصح قياس لمقدار عقل الرجل هو ان تجعله يصف لك فى قصة أمرا جليلا كان ابصره فتنظر اى تمثيل وصورة يقدم لك. واى حادثة هى فى نظره اعظم واجل فيبرزها وأى امر ادني وأقل فيخفيه وماهو أحسن ابتداء واستهلالواعجب تخلص وإنتقال . وماذا ابرع تقسيم وتبويب .وابدع تنسيق وترتيب وكيف يكون حسن الغاية . وجودة النهاية؟فاذاحملت الرجل على ابداء كل ذلك جهدت قوى نظره اشد الجهد . وكددت اسباب عقله منتهى الكد . اذ لا بد له ان يفهم الشيء الذي يحاوله . ويبصر الامر الذي يزاوله . وعلى قدر عمق النظر يكون فضل الجواب . أتراه يضع الكلام فى مواضعه ؟ ويجعل اللفظ الى لفقه وقرينه . والمعني الى شكله ونسيبه . وهل ارسل روح النظام في تلك الانقاض المبعثرة والاخلاط المشوشة فرد الفوضي نظاما . والخلاف وئاما . والف اعناق الشوارد . وجمع شمل البدائد ؟ وهل امكنه ان يقول للشيء كن فيكون ؟ هل امكنه ان يقول ليكن ثمت ضياء

يحول به عالم السديم نظاما ؛ اما انه ليستطيع ذلك لو كان الضياء في عقله والشعاع في نفسه

ومن أسباب عظمة شاكسبير أيضاً براعة تصويره للاشخاص والاشياء لا سيما الاشخاص . نعم لشد ما تجلى عظمته في ذلك وتستبين . ولا أحسب ان انساناً يماثله في تلك القوة المخترعة الثاقبة الهادئة . فاذا نظر الى شيء لم ينظر منه الى ذلك الوجه أو ذاك بل الى صميم لبه . فكان ذلك المنظور يتحلل امامه في ذوب من الضياء فتنكشف له دخائل تركيبه وبواطن بنائه . نحن نسمي ذلك ابداعاً واختراعاً وخلقاً — خلقاً شعرياً وما هو لو تأملت الا النظر الدقيق المستوعب للشيء . المحيط بظاهره وباطنه . ومتى وجد ذلك النظر الثاقب المحيط استدعى بطبيعته اللفظ اللائق فجاء من تلقاء نفسه مسرعاً . ثم اما ترون في شاكسبير ايضاً فضائل الحكمة والعظة والعبرة والشجاعة والمروءة والصراحة والحلم والعفو والسداد والصدق وتلك القوة الكبيرة والهمة العظيمة المذللة العقبات الحازمة المشقات الخروج من كل قحمة عزّاء . وورطة نكراء . عظمة ويمين الله في سعة السموات والارضين . وعقل يمثل لك الحقائق كما هي لا كما يحرّفها الذهن المنحرف عن الجادة ويحورها الفكر المصدود عن القصد . فكأنما والله عقل شاكسبير المرآة المستوية اذا كانت أذهان غيره من الكتاب والشعراء المرايا المقعرة الحدباء . أعني ان شاكسبير رجل يعدل في النظر ويسوّى في الرأى بين جميع الاشياء والبشر — رجل كريم عادل . براعة والله وقوة وجلال وعظمة من شاكسبير استيعاب بصره لجميع أصناف الرجال من هامليت الى أوثيلو الى فولستاف الى روميو الى كوريالانس وتأديته اياهم في أكمل خلقهم وصفاتهم

والتسوية بينهم في حبه ومعذرته . وسعته اياهم جميعاً بلطفه ورحمته — حبذا هو أخو البشر وشقيق الانسان . وما كان ذهن باكون ليقاس بذهن ذلك الشاعر فان الاول على كماله وعظمته من طينة أدنى من طينة الثاني طينة أرضية مادية حقيرة بالقياس الى ذهن الشاعر الاكبر . واني لا أجد لشاكسبير في التاريخ الحديث مثيلا قط وليس منذ أيامه حتى الآن من يذكرنيه الا رجلا واحدا هو « جيتا » فانه أيضاً نظار الى حقائق الامور وجواهر الاشياء ويمكنك ان تقول فيه ما قاله هو في شاكسبير اذ قال « أشخاص شاكسبير كالساعات الشفافة الوجوه — بينما تريك الساعة في وجوهها اذا هي أيضاً تريك اللوالب والآلات في ضمائرها المكشوفة واحشائها »

العين البصيرة . هذه هي الكشافة لبواطن الامور والكامن في ألبابها من النظام والائتلاف — الكشافة لما أودعته الطبيعة أجواف الاشياء من الاغراض — من المعاني الموسيقية تحت تلك الظواهر الجافة الخشنة . نعم لقد أرادت الطبيعة بكل شيء مهما قبح ظاهره غرضاً هو للعين البصيرة واضح بين . أفهل هذه الاشياء خبيثة دنيئة ؟ انك قد تضحك من تلك الاشياء . وقد تبكي . وقد تمد بينك وبينها الصلات والاسباب كيفما كانت . أو على الاقل يمكنك ان تصد عنها وتنصرف . وتعرض وتنحرف . حتى يحين ان تقتلها وتمحوها ! والعقل الكبير هو أول مواهب الشاعر . فاذا أوتي ذلك فقد صار شاعراً — شاعراً بالقول . فان لم يؤته ذلك فشاعرا بالفعل . وكونه يكتب أولا يكتب — ثم يكتب شعراً أو نثراً هذا أمر ثانوي يتوقف على الصدف — ربما على أدنى الصدف . ولكن القوة التي

تمكنه من أن يبصر ألباب الاشياء والمودع ضمائرها من النظام (لان لكل كائن نظاما فى جوفه وائتلافا موسيقياً فى ضميره والا فما كان يتماسك ويكون) ما هي بنتيجة عادات ولا صدف ولكنها منحة الطبيعة وأول مزايا الرجل العظيم كيفما كان . ولذلك أول ما نقول للشاعر بل لكل انسان هو — انظر ! فاذا عجزت عن ذلك فلا فائدة هنالك فى استمرارك على نظم القريض وتفصيل القوافى ولا حاجة هناك الى ذلك الطنين والدويّ وتسمية نفسك شاعراً . وأولى لك ان تقطع من ذلك الامل وتنفض يدك من هذه الامنية . فاذا شئت فان لك في غير الشعر مجالا ومندوحة — في التجارة مثلا أو الصناعة أو الزراعة . وحسبك ذلك . وأنت فاضل ما أجدت صنعتك وأحسنت عملك أيّا كان بشرط أن يكون حلالاً طيباً كريماً . ولا عار في العمل المتقن ما لم يكن خبيثاً . والاتقان نتيجة العقل . فالعقل هو أجلّ النعم كما فقده أشد المحن

لكل داء دواء يستطب به   الا الحماقة أعيت من يداويها

والحقيقة ان قيمة المرء بمقدار بصيرته ولو سئلت ان اعرّف ملكات شاكسبير فقلت ارباء عقله على كل عقل لكنت قد ادركت الغاية وبلغت النهاية وما هي فى الحقيقة تلك الملكات التى نذكرها كأنها اشياء شتى كأن للمرء ذهناً وخيالا وادراكا مثلما له يدان ورجلان وقدمان وهذه غلطة مبينة ثم نسمع أيضاً ان للمرء « طبيعة ذهنية » و« طبيعة اخلاقية » كأن هذين شعبتان كل في ناحية أما انه لا باعث على استعمال تلك الالفاظ المختلفة الا ضرورة النطق وأرانا اذ كنا لا بد ناطقين ومتخاطبين فلا مناص من استعمال تلك الكلمات المتفرقة ولكن لا ينبغي أن تجمد

الكلمات حتى تصير أشياء . فان ذلك هو السبب الى خطئنا في هذا الامر وضلالنا وانما يجب علينا أن لا نزال نذكر انهذه الاقسام ليست في الحقيقة الا اسماء وان طبيعة المرء الروحانية — القوة الحية الكامنة فيه — هي شيء واحد لا ينقسم ولا يتشعب وان ما نسميه خيالا وادراكاً وذهناً ومفكرة وبصيرة وغير ذلك انما هي صور مختلفة لتلك القوة المبصرة وكلها شديد اتصال بعضها ببعض دليل بعضها على بعض حتى لو عرفنا أحدها لامكننا أن نعرف الباقي وما أخلاق المرء الا ناحية من تلك القوة الحية التي بها يعمل وبها يكون وكل أفعال المرء لو تفقهون دليل عليه حتى ليمكنك أن تعرف عن هذا الرجل كيف يكون بلاؤه في الحرب من لهجة حديثه وطريقة غنائه فان جبنه أو اقدامه ليبدو لك في خلال لفظه وما كلمة الرجل أو رأيه بأقل نما عن شجاعته أو خوره من ضربته أو طعنته وهو هو بعينه واحد يظهر الملأ نفساً واحدة في صور شتى

قد يعيش الرجل من غير يدين قائما على قدميه يسعى بهما في الارض ويضرب ولكن البصيرة مستحيلة الوجود بلا خلاق والرجل الذي لا خلاق له المجرد من كل أثر للخير والبر والمكرمة هو معدوم البصيرة بالمرة لا يرى شيئاً حق الرؤية ولا يعرف شيئاً حق المعرفة لان المعرفة الصادقة لشيء ما تستوجب المحبة لذلك الشيء والانعطاف نحوه اعني الاتصال به الصلة الكريمة الصادقة واذا لم يكن من العدل بحيث لا يزال ينتصف لكل شيء من نفسه ويأخذ الحق منها لغيرها ويقمعها ويقدعها ويذلها ويقهرها ويكون من الشجاعة والمروءة والتقى بحيث يميل الى الحق على ما فيه من عذاب ومضض فكيف يجد الى العلم بالحقائق سبيلا ؟ وانما الطبيعة

وحقائقها للخبيث الاثيم الخسيس كتاب مختوم . وما يعرف مثل هذا من الطبيعة الا قشورا وأباطيل وخبائث مما يستخدمه فى أغراض ساعته وما مثله الا كمثل الثعلب . أو ما يعرف الثعلب شيئاً من الطبيعة ؟ نعم يعرف اين توجد الاوزّ ! وكذلك الثعلب الآدمي وما اكثره في كل زمن وبقعة اتراه يعرف الا هذا أو مثل هذا ؟ كلا بل ان اشتمام الثعلب ريح الدجاج واهتدائه اليها فضيلة ثعلبية . ولو انه أضاع أوقاته حزينا آسفاً مطرقا يفكر في نحسه وشقائه وظلم القضاء له وجور الدهر واشتغال الحظ عنه بغيره من ناعمات الثعالب ذوات اليسر والرغد . ولو لم يكن عنده جرأة واقدام وعزم وحزم وغير ذلك من المحامد والمناقب الثعلبية لما أصاب دهره من الدجاج ولا ريشة .

فاذا قلت اذن ان شاكسبير اكبر الاذهان فقد قلت كل مايقال عنه على ان في ذلك الذهن الكبير مزية لعل الناس لم يدركوها بعد هو ماأسميه ذهناً غير متعمد . وفيه من الفضل اكثر مما يشعر به صاحبه . وقد قال نوفاليس ما روايات شاكسبير الا ثمرة الطبيعة . ولها جلال الطبيعة وعمقها . وأرى ذلك صوابا وحقاً . فما صناعته بصناعة انما هي وحي يتدفق به طبعه عفوا ويهطل به خاطره سحاً دراكا

ويدر درك للآلي يبغونه عفواً بلا مسح ولا ابساس

شيء يحصل بلا كد ولا نصب . ولا جهد ولا تعب . يذوب كدمعة المحزون غير معتصر . ويفيض كمنحة الجواد غير معتسر . ويجيء كوداد المحب غير معتنف ولا مقتسر . ويسقط من تلقاء نفسه كالطل في السحر وغناء الحمام في الشجر . او كشذا المسك يفوح وينتشر . وسنا البدر يلوح

ويشتهر لا تكلف ولا تعمل ولا تصنع ولا تمحل وانما هو نبات ينبت من جوف الطبيعة فيخترق روح ذلك الرجل أو صوت الطبيعة يخرج الينا من فم ذلك الرجل أو ان شاكسبير ناى تتناوله الطبيعة فتترنم فيه باشجي نغماتها وتخرج منه أشهى أصواتها ولعل الامم التي ستجيء بعد آلاف السنين ستجد في شاكسبير هذا معاني جديدة وبيانا لالغاز حياتهم وانها لنعمة الطبيعة على الرجل العظيم الصادق ان تجعله جزأً منها. فمؤلفات هذا الرجل مهما تعمد ان يجيدها ويتقنها تخرج من مجاهل اعماق نفسه عفوا لا اثر فيها للصنعة والتكلف — كالدوحة نابتة من الثرى وكالجبال والامواه اذ تلبس اشكالا خاصة منطبقة على قوانين الطبيعة . موافقة لسنة الحق أيا كان . ومع ما اخرج ذلك الرجل من بدائع الآيات ارأيتموه يتسخط ويتشكي ويتلهف ويتشهي أعهدتموه يتألم ويتحسر . ويتوجع ويتضجر . ام كان خلوا من الالم والبرح والكمد والترح . كلا ولكنه ستار للشجو كتوم للمصيبة وكم خفي في تلك السريرة من الآلام والمحن فلم يظهر الا ثمارها من بارع الكلم . ورائع الحكم . كانها الجذور وكانها الأغذية النباتية والقوى الكونية الخفية الفعل المستورة الاثر ! عظيم والله الكلام ولكن الصمت اعظم

وعلى العموم فسكينة هذا الشاعر الجذلة الفرحة هي من جلائل الصفات ولا انعي على دانتي كآبته وشقوته فانها حرب بلا ظفر ولكنها حرب صادقة وهي أهم المسائل وأخطر الامور وأرى شاكسبير يعد أعظم من دانتي من حيث أنه جاهد فظفر ولا يخالجكم الشك في انه قد كان له حظه من الهموم والاحزان وقسطه من القروح والاشجان وأغانيه تشف عما كابد من غصص الزمن وتجرع من مرارة المحن

وغامس من حومة الخطب وكافح من غمرة الكرب يكدح في بحر الشقاء ويضرب ويطفو به ذلك العباب ويرسب حتى بلغ شاطىء الامن ونجاه الله من الحين وقد افال الرأى من زعم ان عيش شاكسبير كان خلوا من الاسى صفواً من القذى لم يرد منه الاعذبا زلالا وفراتا سلسالا وان شاكسبير لم يك الا بلبلا بروضة الصفاء افنى عمره سجعاً وتثويبا وبلغ أجله شدوا وتطريبا سعيد الفال مغبوط الحال ناعم البال هادىء البلبال شأن البلابل والقمارىّ اللواتى هنّ

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ولا دائرات الدهر كيف تدور

كلاّ وأبيكم ما كان امرؤ قط هكذا وأنّى لرجل ان ينتقل من سرقة الغزلان الى كتابة مبكيات كمبكيات شاكسبير من غير أن يكون قد ذاق الحزن ولبس الشجى بل كيف يتأتي لرجل أن يصور أمثال هامليت وكوريا لاناس وماكبيث وغير هذه من القلوب الكبيرة المتألمة الا وقد عرف قلبه الكبير الألم ؟ ثم انظروا كيف جمع بين ذلك وبين الضحك الغزير الطافح ؟ وقد تقول ولا حرج ان المبالغة عنده مقصورة على فن الفكاهة رهن بباب الضحك وكثير في رواياته اللفظ الموجع والقول المقذع والكلم النافذ المحرق ولكنه عند حد وما كان قط ليغلو فى كراهة البشر ولكن ضحكه ينحط عليك كالسيل المنهمر واذا نصب من اشخاصه واحدا للفكاهة هال على رأسه مالا يحصى من فنون المزاح والمجون والقاب السخرية وما زال ينقله من الاشكال المضحكة فيما يستقصى العجب ويستنفد الاستغراب فكأنه يضحك بملء ضلوعه وقلبه ثم هو ضحك صالح لا يقصد به الى السخر من المساكين والبؤساء والضعفاء ولن يكون

الضحك من هؤلاء ضحكاً وانما هو سفالة ولؤم فان الضحك الحر الكريم من شيء ما يستلزم حبك لهذا الشيء وليس الضحك الكريم بعمعمة النار تحت القدر — تقهقه النار والقدر تفور وتلتهب ! وضحك شاكسبير ممزوج بالرحمة حتى نحو الاغبياء والادعياء وهذا الضحك في نظري كبساط الشمس على ساحة البحر المحيط

ولا مجال هنا للاسترسال في وصف كل من روايات شاكسبير على حدة وان كان لا يزال في ذلك متسع للقول ومنفسح للكلام فلو ان كل قصة من قصصه اتيح لها شارح مثل « جيتا » لكان خيراً وسيكون ذلك يوما ما وقد سمى الفيلسوف الكبير الالماني « سكليجل » رواية : هنرى الخامس وما شاكلها تاريخا جليلا وطنياً . وتذكرون ماقاله القائد « مارلبرا » من انه لم يعرف من تاريخ بريطانيا الا ماعلمه من شاكسبير وقل في كتبنا التاريخية لو تنظرون ما يوازي تلكم الروايات قيمة وفضلا وما ابدع وصفه لحرب « اجنكورت » ونعته جيش الانكليز المكدود المنهوك وساعة التصاف اذ توشك الحرب أن تبتدىء — تلك الساعة الجليلة التي يكمن في اثنائها النحس والسعد ثم تلك الشجاعة الخالدة الذكر « معشر الرماة الذين صيغت اكفهم في بريطانيا » الا تجدون في ذلك ريح الوطنية ؟ أما في ذلك مكذبة للرامين شاكسبير بفتور الوطنية وقلة النعرة اما تحسون قلب الشاعر الكبير ينبض في كل حرف من مؤلفاته العديدة نبض فؤاد هادئ قوى برىء من كل اثر للجلبة والغلواء كانما صوت نبضه رنين الحديد الصلب وظني ان في صدر شاكسبير هذا جرأة ليث وفي يمينه بطشة قسور لو اشهدته صروف الدهر ساعة الوغى !

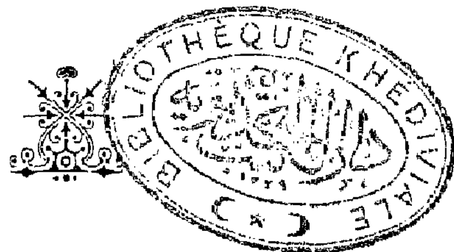
هذا هو فلاح قرية « ستراففورد » الذي ارتفع الى درجة مدير تمثيل فكفى بذلك ذل السؤال والذي رمقه اللورد سواذمبتون بعين رحمته والذي كان السير توماس حفظه الله يريد ارساله الى السجن ! انا لم نعده الها كاودين اذ هو عاش وسطنا ولكنه رغما من ضعف ايمان الازمان الحديثة بالابطال فاي اجلال واكبار لم يصبه شاكسبير هذا من ابناء اللسان الانكليزي ؟ أي رجل بل أي مليون رجل من رجالنا لا نجعلهم فداء شاكسبير الذي هو اكبر مفاخرنا وأعظم مآثرنا — مفخرة نزهي بها على الاجانب وحلية نزدان بها صدر بريطانيا انظروا ماذا يكون الجواب اذا خيرنا بين أن نترك شاكسبير او بلاد الهند — ان نكون لم نمتلك قط شاكسبير أو لم نمتلك قط امبراطورية الهند انا أعلم ان رجال السياسة والحكومة يفضلون الهند ولكنا نحن لنا الحق أيضاً في أن نختار ماتراه أفضل فنقول سواء حكمنا الهند أو لم نحكمها فلا غنى لنا عن شاكسبير ! ستذهب الهند يوما ما ولكن شاكسبير لا يذهب

بل ان لشاكسبير فضلا عن مزية المجد والفخار وتهذيب النفوس والاخلاق فائدة مادية عملية وهي انه الجامعة الكبرى والعروة الوثقى لشتى طوائف البريطان في أنحاء المعمورة وسيجيء يوم تظل جزيرتنا هذه لا تعي من أبناء بريطانيا الا الجزء الاخس وسائرهم مبعثر في نواحي الكرة مبدد في جوانبها واذا كان ذلك فما الذي يقرب بين هذي النفوس المتدابرة ويؤلف بين هاتيك القلوب المتنافرة فيخضر بينهم الثرى ويحلى ويشرق الجو بينهم ويتلالا ويصبحون بفضله أمة واحدة ؟ ماذاك الذي يكون قطباً تدور حوله مصالحهم وأوطارهم وكعبة تشرئب نحوها أعناقهم

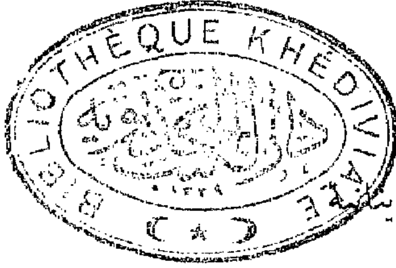
وأبصارهم ؟ وبماذا يقوم عمود صلاحهم في مستقره ونصابه ويستحكم رواق عزهم بأوتاده وأسبابه ؟ بماذا يكون ذلك ؟ ابالحكومة ولائحتها أم بالوزارة واقتراحاتها أم بالسياسة واصطلاحاتها ؟ كلا ثم كلا ! بل بشاكسبير هذا فهو الملك الاكبر الحاكم على جميع طوائف الانكليز في سائر الانحاء والارجاء الذي

يؤلف من أعناقهم فكأنما يؤلف من اعناق وحش منفّر

الذي بفضله نصبح وأمريكا شعباً واحداً على رغم ما أتته الحكومة من التفريق بيننا وبينهم وما هو في الحقيقة الا انفصال ظاهري سطحي . وشاكسبير الملك الذي يضمنا جميعاً تحت صولجان واحد وراية واحدة — الذي ليس في قدرة الحكومة ولا البرلمان كلا ولا الف حكومة والف برلمان أن تخلعه ؟ ولن يبرح الرجل الانكليزي يقول لصاحبه وجاره والمرأة الانكليزية تقول لتربها وجارتها في الهند وفي كندا وفي جامايكا وفي استراليا « نعم شاكسبير هذا رجلنا . نحن انجبناه والينا ينسب وبفؤاده نشعر وبذهنه نفكر ونحن واياه من طينة بعينها ومن دوحة واحدة . » ولأهل السياسة ورجال الحكومة ان يتدبروا ذلك لو شاؤا



المحاضرة الرابعة



البطل فى صورة قسيس

لوثر — البروتستانية — نوكس — البيوريتانية

سيكون كلامنا اليوم عن البطل فى صورة قسيس . والقسيس فى مذهبي نوع من النبي . اذلا بد من ان يكون منطوياً على نور الوحى . والقسيس دليل الناس في مذاهب الدين وقائدهم فى مناهج العبادة . والواصل بينهم وبين السر الخفى . فهو وزيرهم الروحانى اذ النبي أميرهم الروحانى والقساوسة وزراؤه . وهو (القسيس) العارج بهم الى السماء عن طريق الأرض الصاعد بهم الى الجنان على درج الصالحات ومراقي الطيبات ومعارج الخيرات والحسنات وهو أيضاً في اعتقادنا صوت من العوالم المستورة يترجم للناس أسرارها بعبارة أقرب الى الاذهان وأشبه بالدنيويات من عبارة الانبياء والرسل : يترجم أسرار السموات ـ أو ماسماه جيتا (السر الجلى) الذى لا يكاد يراه انسان فكلنا ـ الا من اصطفاه الله — ازاءه كما قيل

ياشاهداً يرنو بعينى غائب ومشاهداً للامر غير مشاهد

هو نبي عار من روعة جلال النبي وهول مهابته يشرق له فى نواحي المعيشة اليومية سراج أقل وهجاً من الشهاب النبوى واسكن لألآء هذا ما يجب ان يكون صفة القسيس الكامل . وكلنا يعلم ان الكمال نادر وانه ينبغي

الكثير من التسامح والتجاوز عند الانتقال من الشروط النظرية الى الحقائق الواقعية . فأما ان يكون قسيس مجردا من كل هذه الشروط غير محاول ان يكون كل ما وصفت ولا متيم وجه الفضل وأمد الكمال فذلك ما نحن منه براء ولا شأن لنا معه



كان لوثار ونوكس قسيسين حرفة وقد اديا الوظيفة فى أمانة وصدق وأولى بنا مع ذلك ان نعدهما حسب صورتيهما التاريخية اعني مصلحين . وربما وجد فى أيام السلم من القسوس من يساوون لوثار ونوكس فى حسن القيام بشؤون الوظيفة وصدق النهوض باعبائها ـ يستنزلون هدى الله على عبيده ويحدون بركب الفناء في سبيل الحياة الهادئة المطمئنة ولكن اذا جاء عصر أوعرت فيه تلك السبيل وأوعثت وقامت فيها القحم والعقبات . والموارط والهلكات . ودجت الخطوب واظلمت الفتن . وازمت الكروب وتشنعت المحن . فليس القسيس الذى يسير بنا في هذه الطريق سيرة النوتى فى البحر ذى الصخور والحجارة

تجافى بها النوتي حتى كأنما يسير من الاشفاق في جبل وعر

ليس الذى يساور بنا تلك القحم ويواثب . ويزاحم بنا هذه العوائق ويغالب الا أكبر من غيره — ولا سيما في نظرنا نحن — وأخطر . فهو القسيس المجاهد المقاتل لم يكن طريقه بالذلول الركوب ولا جرت سفينته على يم ساكت مطمئن تحت ريح رخاء سهوة الى مرسي الهدوء والسكينة ولكنه نزل بأباسه سوح (ساحات) القتال في زمن فتوق ثائرة وخطوب طائرة وحروب دائرة . وصروف جائرة . وأمور بائرة . ونفوس حائرة . فسنعد هذين الرجلين

أكبر فساوستنا من حيث انهما أكبر مصلحينا . أو ليس كل مصلح صادق قسيسا قبل كل شيء بطبيعته ؟ وكيف وانه بالله يستنجد ويستغيث من ظلم الظالمين . وجور الجائرين ويعلم ان بطش الله فوق كل بطش وان

يد الله كانت فوق أيديكم التى أرادت بنا مافى الظنون الكواذب

أليس هو المؤمن بالاسرار المقدسة ـ كاهناً يهتك ببصره الشبهات عن حقائقها ـ اعنى قسيساً . واذا لم يكن قسيساً قبل كل شيء فلن تراه من الاصلاح والصالحين فى شيء

وكما رأينا أعاظم الرجال في مراكزهم المختلفة يبنون الاديان ـ الاساليب الشريفة للحياة الدنيوية العقائد الحيوية الجديدة بان يتغنى بها أمثال دانتى والافعال الخليقة بأن يشدو بها أمثال شاكسبير ـ نرى أيضاً عكس ذلك أعنى هدم هاتيك الاديان . وهو أيضاً من الضرورات وحري ان يكون من أعمال الابطال ومفاخر العظماء . وعجيب ان يكون ذلك ضروريا ولكنه فى الحقيقة ضروري . حتى ترى نور الشاعر ـ ذلك النور اللين الغض يخلى مكانه لبارقات المصلح السريعة الوميض الطائرة الشعاع . ولا بد للكون من المصلح وليس يخلو التاريخ منه قط ولولا المصلحان القديس (ومينا كيس) والرجل الشديد البأس . الصعب المراس (ثيباد ارعاتس) ما ترنم دانتى . ولولا ما سبق شاكسبير من أعمال الامم ومساعي العالم من (اودين) الى معاصره (والترالى) ما نطق شاكسبير . بل ان الشاعر الكامل لدليل على ان عصره قد بلغ حد الكمال وانه قد أوشك ان ينتهى ويجيء عصر جديد ودولة جديدة وحال جديدة . فلا بد اذن من ان يوجد المصلحون فيقوموا بتلك الحركة

ولا شك انه قد كان خيراً لنا وأجمل لو أمكننا ان نفلت تلك الفتن والثورات ونحامى هذه القلاقل والاضطرابات . ونسير أبداً السير اللين الرفيق على انغام الشعراء . يروضنا شجي غنائهم . وطرب حدائهم . كما كان يفعل (اورفيس)

حيث استفز الراسيات بلحنه اورفيس واستدنى القطا الحذرات
ودعا الوحوش النافرات فأقبلت خضع الرقاب نواكس الهامات

وكان خيراً لنا اذ لم يؤاتنا غناء الشعراء لو انا سرنا فى طريق السكينة والامن يتولى قيادنا ويأخذ زمامنا قساوسة ذوو هدوء وسلم . يصلحون من أحوالنا يوماً فيوماً . لقد كان حسبنا والله ذلك . ولكن أبت سنة الطبيعة الا أمورا أخرى . اذ مابرحت تقوم العقبات وتعترض العائقات فى طريق الحياة الدينية بل يصبح الأمر الصالح الذى كان يعد من أسباب الرقي عقبة وعائقا وقيداً لا مناص من خلعه واطراحه . وفى ذلك ماFيه من الجهد الجهيد والمشقة وعجيب والله كيف نرى الخطة الدينية والنظرية الروحانية التى كانت بالامس تشمل العالم طراً وتسع الامم جميعاً ويرضي بها تمام الرضي ذهن ثاقب دقيق كذهن دانتى تصبح اليوم حديث خرافة للقرن الحاضر وموضع تكذيب وانكار . وسخر واصغار . شبيهة عندهم بنظرية (اودين) ! كان دانتي يرى تمثيل الحياة الدنيا وأفعال الله بالعباد بتلك النيران التى صورها في قصته وتلك الاودية والجبال . ولكن لوثر لم ير ذلك ولا صوبه . فكيف كان ذلك ؟ ولم لم تبق على مدى الايام كاثولوكية دانتى حتى تذهب ويعقبها بروتستانية لوثر ؟ اللهم لا شيء يبقى !

أنا لا أحفل بمسألة ارتقاء البشر وتقدم المدنية كما يتكلم فيها علماء هذا

العصر فان كلامهم فى ذلك الصدد شديد الغلو كثير الخلط والخبط مضطرب مشوش ولكني أقول على الرغم من ذلك ان ارتقاء النوع حقيقة لا شك فيها وبرهانها باد في طبيعة الاشياء . وذلك ان كل انسان فضلا عن انه متعلم فهو كذلك مخترع يتعلم بالعقل الذي وهبه الله ما صنع السلف وبنفس هذا العقل يكتشف أموراً جديدة ويبدع ويبتكر . وليس انسان قط يخلو من ملكة الابداع والاختراع . ولا رجل قط يعتقد ما كان يعتقده جده حذوك النعل بالنعل بل يفسح بالاكتشاف مجال نظره في الكون ويبعد مدى رأيه في الخلائق . والكون تعلمون عديم النهاية وما كان لرأي قط مهما انفسح ان يستوفيه ويستقصيه . ويشتمل عليه ويحتويه . أقول كل امرىء يزيد رأيه في الكون على رأى جده اذ يخطىء بعض ما كان يراه ذلك الجد ويراه غير منطبق على حقيقة حديثة الاكتشاف . هذا تاريخ كل فرد وهو يظهر فى مجرى التاريخ العام مضاعفاً أعظم تضعيف حتى يبدو في هيئة الانقلابات الكبيرة والثورات الخطيرة . ولقد كان دانتي يحسب ان في نصف الدنيا الآخر جبلا في المحيط يطهر الله فيه أرواح المذنبين قبل ادخالها الجنة وهو ما وصفه في قصته وسماه جبل التطهير . هكذا كان يرى دانتي ويعتقد . فلما ذهب كرستفور كولومباس الى ذاك النصف الآخر من الدنيا لم يجد فى بحاره ذاك الجبل الذي كان دانتي يعتقد وجوده هنالك ! افترى الناس بعد ذلك يصدقون قول دانتي ? كلا . وهذا حال سائر المعتقدات فى هذا العالم وحال ما ينشأ عنها من النظامات الدينية والدنيوية

فاذا أضفنا الى ذلك الامر المحزن وهو انه اذا مرضت القلوب ووهنت العقائد ونخر الشك في عظام اليقين فسدت عقيب ذلك أعمال المرء ونجمت

هناوهنالك الاغلاط والمظالم والمصائب ومدت الفتنة أسبابها. وأخذت الثورة أهبها. وشمرت جلبابها. وما زال من البديهي انه لا يصدق عمل المرء حتى يصدق اعتقاده. فاذا ضعف اعتقاد الانسان فلم يكن له من عقيدته هو باعث على الأعمال بل أصبح يجرى فى جميع أمره على مذهب العرف السائد وسنة العادة المتبعة مخضعاً رأيه لرأي الدنيا جاعلا ارادته رديفاً لارادة العالم وفكره جنيباً لفكر الملأ. فما هو والله اذ ذاك الا عبدا وأسيراً وبالخطأ فيما يسند اليه خليقاً وجديراً. وهو أحد سواق الفتنة. وحداة الثورة يضرب عجزها ويأخذ بناصيتها الى اليوم الموعود. والاجل المحدود. ومامن عمل يأتيه من غير صدق ولا اخلاص ناظراً الى ظاهره الكاذب فقط الا وهو اثم جديد يلد لبعض الناس جديد مصاب ومستطرف بلية. ثم تتراكم الآثام حتى لا تطاق وحتى تتفجر عن الثورة انفجار البركان. وهكذا لما أصبح الناس لا يؤمنون بكاثوليكية دانتى من حيث معانيها. ولا يقدسونها لما افسد الشك والكذب والعمل المنكر الخبيث من مبانيها. اتيح لشملها من لوثر ممزق. ولنظامها مبدد ومفرق. وقضى ربك على العيشة الاقطاعية تلك العيشة المونقة البهجة التى أبدع صفتها شاكسبير ان يكون ختامها الثورة الفرنسوية. وانما هو كما قلنا انفجار من الآثام المتراكمة كانفجار البركان ثم لا تستقر الامور الا بعد مدد طويلة من الاضطراب والقلق

وانه لمن البلية ان نقصر نظرنا من ذلك الامر على جهة واحدة فلا نبصر فى آراء البشر ونظاماتهم الا انها مشتبهة ملتبسة وقتية رهينة بالفناء والموت. والحقيقة غير ذلك. اذ نجد ان الفناء هنا انما هو فناء الثوب لا الجوهر والموت موت الجسم لا الروح. وكل اتلاف بسلاح الثورة انما هو خلق

جديد على نظام أبدع . ونطاق أوسع . فكانت الوثنية الاودينية شجاعة وبسالة . وجاءت النصرانية خشوعاً وضراعة. وما الخشوع الا ضرباً من الشجاعة أشرف وأكرم وما من رأى جال فى صدر الانسان جولة جد واخلاص عن عقيدة صدق وايمان الا وكان فى وقته نظرة صادقة من الانسان في صميم الحق فيها عنصر صدق ما يزال على تجدد الاحوال جديداً فهو ذخر لنا باق على كر الجديدين . وتعاقب الخافقين . ثم أليس من الجور والسخف ان نرى ان جميع من خلق الله من الامم في جميع الازمان والامكنة مخطئ ضال الا نحن . وانه ليس في خلق الله غابراً وحاضراً من بات على هدى من ربه الا نحن وان جميع الامم والشعوب ضلوا وخابوا لكي نصيب ونفلح نحن ـ الفئة الضئيلة القليلة . وان جميع تلك الامم انما ساروا منذ بدأ الخليقة حتى الآن مسير الجنود الروسية لم يك زحفهم نحو الخندق الا ليلقوا بأنفسهم فيه فيسدوه بأجسامهم الميتة فيكون لنا ثمت من جثثهم جسراً نعبر عليه الى المدينة المحاصرة فنأخذها ! وهذا وربكم غاية الغرور ومنتهى الباطل

وما أشد ما تمسك الناس بهذا الباطل فيحسبون انهم سائرون على جثث جميع من سلف من القرون الى أمد النصر والظفر ، ولكن ماذا عسي أن يقال اذا هم وقعوا كذلك فى الخندق وصاروا أجساداً ميتة ؟ وكذلك أرى فى فطرة الانسان انه ما برح يحسب فكره امام الافكار ورأيه خاتمة الآراء . ويمضي على هذه العقيدة . ولو أنصف لابصر ان جميع من ذهب من عباد الله الصالحين ومن حضر انما هم جنود جيش واحد أدرجوا في سلك الكتيبة تحت قيادة الله ليقاتلوا عدوا واحدا اعني به عالم الظلمات

والباطل . ففيم التناكر والتجاهل والاشتغال عن جهاد العدو المشترك بقتالنا بعضنا بعضاً لمجرد اختلاف فى اللباس والزي ؟ الا كل الازياء حسن مازرت عراه على ذى مروءة ونجدة . ومرحبا بالسلاح كله على اختلاف نوعه وشكله من العمامة العربية واليمانى المرهف . الى معول (ثور) يضرب به الجان والمردة . ومازمجرة لوثر فى حومة الحرب . والحان دانتى من اليراع والقصب . الا عونا لنا لا علينا . وكلنا تحت ذيالك القائد وذاك اللواء !

(وبعد) فلنلق نظرة فى جهاد لوثر هذا لنعلم أي ضرب من الجهاد هو وكيف كان فيه بلاؤه ولوثر لا تنسوه كان من ابطالنا الروحانيين — نبياً لأمته وزمنه

ولعل كلمة هنا عن الوثنية على سبيل المقدمة لا تكون الا فى مستقرها وموضعها . لقد كان من أهم خواص محمد (عليه السلام) ومما امتاز به الانبياء عامة شدة الانكار للوثنية . وهو أكبر مسائل الرسل . وعبادة الاوثان الميته كالهة هو مالا يسكتون عنه أبداً ولا يطيقونه . بل لا يزالون يشددون النكير عليه ويسمونه بألدغ مياسم القذع والقذف . وهو عندهم أس الذنوب ورأس الكبائر . وهذا جدير بالتأمل . وكلمة (ايدول) أصلها (ايدولون) ومعناها الشيء المنظور أعني العلامة أى الرمز فليس معناها اذن الهة بل رمزا للالهة . وجدير بنا ان نشك هل كان قط انسان مهما بلغ انحطاطه وعماه رأى في ذلك الصنم أكثر من انه رمز ؟ أنا لا أظن ان مثل ذاك الانسان كان يحسب ان الشيء الذى صنعه بيديه هو الالهة بل كل ماحسب هو انه يمثل الالهة وان الاله كائن فيه بشكل ما . واذا كان الامر كذلك حق لنا ان نسأل أليست كل عبادة أية كانت هي عبادة بالرموز أو بالاشياء المنظورة . وسواء تمثل الالهة للعين الخارجية فى صورة منظورة أو للعين الداخلية أعنى للذهن

أو للخيال فانما هو فرق سطحي لا جوهرى . اذ لا تزال تبق هذه الحقيقة وهي ان هناك شيئاً ينظر — بالعين او بالذهن — دليلا على الاله أعنى وثنا. وليس يخلو اورع الناسكين واولع المتصوفين من المثلات الذهنية للمسائل المقدسة وبها يعبد الله ولولاها ماوجد الى العبادة سبيلا : وكذلك كل العقائد والملل والنحل والتصورات المطوية على الوجدانات الدينية على هذا الحد أشياء منظورة ولا تسير العبادة قط الا بالرموز — بالاوثان وعلى ذلك نقول ان كل دين وثنية . وانما بعضها اشد وثنية والبعض اقلّ

اين اذن شرها ؟ اما انه لابد من ان تكون منطوية على شر كبير والا فما كانت ملاقية من انكار الانبياء والرسل اشدّه وابلغه . اجل لماذا نرى الوثنية بغيضة كل ذلك البغض الى الانبياء ممقوتة لديهم . ولا احسب ان اكبر ما اسخط نبيا على الوثنية وملأ صدره غيظا وحنقا ليس هو بالضبط ما كان يخطر بباله فى ذلك الصدد ويصرح به للغير . فان احط وثنى من عباد الكواكب او الاصنام كان كما رأينا خيرا من الحصان الذى لم يعبد شيئاً ! بل لقد كان فى عمله الحقير هذا نوع من الفضل الخالد . شبيه بما يحمد فى الشعراء اعنى ايناس الجمال الالهي والمعنى الكبير في النجوم وسائر الكائنات الطبيعية على الاطلاق . فلماذا يا ترى ينقم عليه النبي كل هذه النقمة ؟ ان احقر وثني عاكف على صنمه ليس اذا امتلأ صدره ايمانا بهذا الصنم الا جديرا بالرحمة لا الابغاض وان كان بعد اهلا للاحتقار والمقت والاجتناب ان شئت ليمتلىء باعتقادها قلبه وليستنر بها وعاء ذهنه الضيق المظلم او بالاختصار ليؤمن بصنمه الايمان كله يكن فى ذلك خير له او بعبارة اخري ماهو حاضر في ذاك الوقت من الخير وممكن . ثم دعه وشأنه آمنا فى سربه ماضيا علي رسله،

ولكن الوثنية تصاب بعد ذلك بآفتها الكبرى . وهى ان الايمان بها يكون قد تطرق اليه الفساد في ازمان النبوة . ويكون الكثير من الناس قد ادركوا بعض ما ادركه النبيّ من ان هذا الوثن انما هو قطعة من الخشب وينكر النبيّ هذه الوثنية . والوثنية المنكرة هي الخالية من الاخلاص والصدق لما اكلت الشكوك قلبها ونخبت الشبهات لبها . فبينا يتشبث بها الوثني اذ يخيل اليه انه يتشبث بطيف الخيال . واشباح الظلال . وهذا لعمرى من شر البلية وأسوأ المحنة . ولقد قال كولريج « انكم لا تعتقدون وانما تعتقدون انكم تعتقدون » وذلك هو الفصل الاخير من رواية الاديان والعقائد . وآية دنو الموت واقتراب الهلاك . وهو شبيه بما نسميه اليوم اتباع التقاليد وتقديس العادات وليس فى طاقة الانسان ان يأتى جناية افظع . وموبقة اشنع . ولا اثما اكبر — وجرما انكر — وما هي الا رقدة العقل وشلل النفس . وضياع الاخلاص والصدق . فلا عجب اذن ان ينكر الحر ذلك ويمقته ويبرأ الي الله منه

ولا اجد لوثر فى امر الاصنام وتكسيرها الا كأي نبي من الانبياء . وما كان بغض محمد (عليه السلام) لآلهة قريش المصنوعة من الخشب والشمع باكثر من كراهة لوثر لمسألة غفران ذنوب الموتى وادواتها من الجلد والحبر كما كان يجريها بطارقة الكاثوليكية . وانه لشأن البطل أيا كان وفى كل زمان ومكان ان يرجع الى الحقيقة ويعتمد علي الاشياء لا علي ظواهر الاشياء . وبقدر حبه لحقائق الاشياء واجلاله اياها اجلالا ناطقا يصدح به صوت الشعر ويسجع او اجلالا مفحما يجيش به الجنان ويعجز عنه اللسان . يكون مقته وكرهه لظواهر الاشياء مهما صقل التمويه من اطرافها وهذّب التزويق من حواشيها

ومهما ايدتها قريش أو عززتها قساوسة الكاثوليكية . والبروتستانتيه عمل جليل جدير بفاعله ان يسمى نبياً . وهي في نظري نبوة القرن السادس عشر واول ضربة في مفاصل عقيدة اصابها الدهر بداء الكذب والوثنية وهي تمهيد لجديد صالح مستقبل سيكون حقا ويكون مقدساً !

يظن الذي لا يدقق النظر ان من شأن البروتستانتية محوها لما نسميه عبادة الابطال وجعلها أساس الخير الديني والدنيوي ترك الثقة بزعماء الدين وعدم الايمان بهم وطالما نسمع ان البروتستانتية اوفدت عصراً جديداً شديد الخلاف لجميع ما سبقه من العصور — « عصر الرأى الشخصي » كما يسمونه واذ كانت البروتستانتية ثوراناً ضد البابا أصبح كل فرد بابا لنفسه . وعلم فيما علم ان من اول واجباته عدم الثقة بأى بابا أو امام ديني ! وعلى ذلك نسمع القائلين يقولون او لم تصبح الرابطة الدينية وكل انقياد لزعامة دينية بعد ذلك من المستحيلات ؟ انا لا انكر ان البروتستانتية لم تك الا ثورة ضد أئمة الدين من بابا وبطاريق وما اليهما . كما لا انكر ان البيورتانية الانكليزية التي كانت ثورة ضد الملوك والامراء انما هي الفصل الثاني من الرواية التي أول فصولها البروتستانتية . وان الفصل الثالث من هذه الرواية هو الثورة الفرنسوية الهائلة التي كان من شأنها فيما يرى ويظن انها نسخت جميع الزعامات الدنيوية والدينية — الارضية والسماوية — او جعلت امر نسخها قضاء لابد من تنفيذه والبروتستانتية هي الجذر الذي عنه تفرع تاريخ اوروبا الحديث وتشعب . لأن الروحانيات ما برحت تتقمص في العمليات والروحاني مبدأ العملي . وقد أصبحنا الآن وملء آذاننا صيحات « بالمساواة » « باللاخاء » « باللحرية والاستقلال : » واصبحنا ولدينا بدل الملوك اوعية اوراق الانتخابات

وأصوات الانتخاب وكأنما قد ذهب من الدنيا بتاتاً طاعة الانسان للانسان في الدنيويات والدينيات ولو ان الحقيقة كذلك لتناهي يأسي من الدنيا وارتفت صبابة رجائي . ولكن أرسخ عقائدى ان الأمر ليس كذلك . ولولا الحكام أخيار الحكام ـ الدنيويون والدينيون لأصبح أمر الناس فوضي . وشر الامور الفوضى . ولكني أرى البروتستانتية رغماً مما أحدثت من الديموقراطية الفوضوية منشأ ملوكية حرة صادقة ومنشأ نظام . وصلاح وأحكام . وأراها ثورة ضد أشرار الملوك وكاذبيهم . وأراها الخطوة الاولى الى اقامة أحرار الملوك بيننا وصلاحهم ! وهذا يحتاج الى قليل من الشرح

ولنذكر أولا ان أمر « الرأى الشخصي » في العبادة لم يك بالأمر الجديد في العالم ولكنه كان في تلك المدة جديداً . نعم ليس في البروتستانتية شيء جديد في جنسه وانما هي رجعة الى الحق والجوهر بعد الاقامة على الباطل والظاهر الكاذب شأن كل رقي وتعليم صالح . ولا أحسب الا ان حرية الرأى الشخصي ما برحت في الناس من قديم الازل لم يخل منها جيل من الاجيال . وما أظن ان دانتي كان قد عمد الى عينيه فقلعهما ولا الى حركات ذهنه فغلها وقيدها . ولقد كان في كاثوليكيته تلك حراً طليقاً وان أصبح قوم في أغلالها من بعده مكبلين وفي أصفادها موثقين . حرية الرأي؟ ماذا أسمع ؟ كلا والله ما كان قط في قدرة السلاسل والاغلال ولا أي قوة بشرية ترغم انساناً على الايمان بهذا الامر أو الكفر بذاك . وانما رأيه في ذلك سراجه الدائم الاشتعال الذي لا يخبو الا مع أفول كوكب حياته . وبه يستنير ويهتدى بفضل الله وحده ! وان أشقى الضالين الذى يأمر بالاعتقاد الاعمى والطاعة المهينة لا بد من ان يكون قد أقنع نفسه أولا بأنه لا حق لها في

طلب الاقناع . نعم و « رأيه الشخصي » هو الذي أشار عليه بذلك كاصوب ما يؤتى فمثل هذا الرجل حر الرأى فى ضلاله ولكنه حر الرأى . وهو فوق ذلك مخلص . وما دام في قلب المرء اخلاص فالرأي الشخصي جاره في ذلك القلب وحليفه . والرجل المخلص يعتقد بملء رأيه وبجميع ما هو مطوى عليه من النور والهدي . بينا ترى الرجل الكاذب الذي يحاول جهده ان « يعتقد انه يعتقد » يسلك طريقاً آخر . فالاول تقول البروتستانتية « خيراً صنعت ! » وتقول للآخر « ويل لك ! » فما هو كما ترون بالقول الجديد ولا الخطة العذراء . وانما كما قلت عودة الى جميع ما قيل من أقوال القدماء « كن حراً . كن صادقاً . كن مخلصاً » لقد كان محمد (عليه السلام) يؤمن بملء قلبه . وكذلك كان اودين . وكذاك جميع المسلمين والنصارى وصادقى الوثنيين . لقد رأى كل فريق منهم مذهبه الذى تبعه « برأيه الشخصي »

وانى لأقول ولا حرج ان الاستمرار على أعمال الرأى الشخصي لا ينتهي قط بالاستبداد الانانى والتفرق والتقاطع بل ينتهي بعكس ذلك بطبيعة الحال . وليست الفوضى من نتائج البحث الحر والفحص الصادق ولكنها نتيجة الخطأ والكذب وضعف الايمان وما ثورة المرء ضد الباطل الا ميلا منه الي ناحية الحق. وجنوحاً الى اللحاق بزمرة اهل الصلاح والتقى . فأما أهل المظاهر الكاذبة فمحال ان يكون بينهم صلة أو رابطة . وكيف وفى جوف كل منهم فؤاد ميت لا عاطفة فيه على حقيقة شيء والا آمن بالحقائق لا بالاباطيل . واذا اقفر القلب من العاطفة على الاشياء افترجو ان يكون منه على اخوانه الآدميين عاطفة ؟ كلا انه لا يأتلف بالناس — انه رجل فوضوى . والوحدة أيدكم الله والجامعة لا تكون الا بين اخوان الصدق

واولى الاخلاص .

أما من حيث قولهم ان كل انسان يعبد الله « برأيه الشخصي » فان معظم الناس ليس لهم آراء شخصية وانما الرأى هبة الله يهبها لاعاظم الرجال ثم لا بأس على غير العظماء ان يعتقدوا رأى العظيم ويستشعروه حتى لكأنهم مبتكرونه وقانصوا شريدته . ومخترعونه ونابشوا دفينته . وحسب المرء من الابتكار والاختراع . والاكتشاف والابتداع . ان يصح ايقانه . ويصدق ايمانه . فاذا كان ذلك . فما ضره ان لم يكن من الرأي بمنزلة كاشف خبيئته . وفاض لطيمته . ومن كان كذلك فهو الحر الصادق المخلص بل ان له فوق ذلك من فضيلة الاكتشاف والابتكار بمقدار ماهو فاهم للرأى الذى يعتقده ويستنبطه . فان فهمك لرأى عظيم من العظماء ضرب من الشركة مع ذلك العظيم فى احداثه . وكذلك لكل امرئ ان يكون متى شاء مخلصاً صادقاً اعنى مبتكراً بمعنى ما . بل لقد أوجد الله اممًا وشعوباً كل افرادها مؤمن صادق تلك امم الحق وشعوب الايمان وقرون الصدق والصلاح وأعصر البر والفلاح . أعصر مباركة وافرة الثمرات . كثيرة الخيرات . جمة المبرات . اذ كل فرد يقوم على اس الحقيقة لا الباطل فكل شجرة عمل يانعة الثمر . وكل لقحة صنع غزيرة الدر . وحاصل الجميع جم وافر . بما كان كل فرد يضرب الى ناحية واحدة . ويؤم غرضاً بذاته واملاً بعينه . هذه أعصر الربح لا الخسران وازمن المزيد لا النقصان

ولد لوثر ببلدة ايزليبن بمقاطعة ساكسونيا من ولايات جرمانيا لعشر خلون من شهر نوفمبر ١٤٨٣ وقد لبست تلك البلدة بمولده حلة فخار تبقى ما لبس النهار حلة الشمس وتاج مجد يدوم ما كلل البدر هامة الليل . وكانت

أمه وأبوه وهو صانع فقير في بعض معادن البقعة المسماة « موهيرا » قد ذهبا الى سوق ايزليبن الشتوى فأخذ السيدة المخاض فى حومة السوق وغماره . فعاذت بدار حقيرة وولدت غلاماً سمي مارتين لوثر . عجيب والله ذلك لو تدبرتمونه . لقد ذهبت هذه المرأة « فرو لوثر » وبعلها الى ذاك السوق لتقضي حاجاً من البيع والشراء — علّه لتبيع ثمت ما كانت نسجت من ثياب الصوف ولتشترى ذخيرة الشتاء لدارها الحقيرة . ولعل فى ذلك اليوم لم يك فى طول الارض وعرضها اثنان هما أصغر شأناً وأخمل ذكراً وأقل خطراً من ذلك العامل الفقير وزوجه .

ومع ذلك فماذا ملوك الارض وسلاطين العالم وباباته وبطارقته فى جانب ذينك الاثنين ! لقد ولد اليوم بطل جليل . وشب لله شهاب وقاد سوف يمتد على مئات القرون المقبلة شعاعه . فى ذلك اليوم ولد بطل أطال سكان الارض ارتقابه . وخوله التاريخ احتفاءه وترحابه . عجيب والله وغريب وخطير على الغرابة وكبير ! وفيه ذكرى لميلاد اقدم عصراً . واسمى منزلة وأرفع قدرا وقع منذ الف وثمانمائة عام . وهو حادث الصمت ازاءه أولى من الكلام . وما عساه يقال في مثل ذلك المقام ! ويزعم الناس بعد لوثر ومولده ان الارض قد صفرت من المعجزات . وانفضت من الآيات كلا وأسماء الله انما العالم عريق فى الاعجاز والمعجزة من نبات ذيا كم الثرى

وأرى انه كان ملائماً جداً لوظيفة لوثر فى هذا العالم وحكمة من الله بالغة أن ولد ذلك الرجل فقيراً وربى فقيراً كافقر عباده . وكان ايام تلمذته يشحذ القوت متسولا بالغناء من دار الى دار . وكان البؤس رفيقه والكرب شقيقه والشقاء أبداً مجاهره وجهاً لوجه والدنيا تكاشفه الكره والعداوة لا تخادعه

قط بزخارف الباطل والكذب . وبوارق الامل الخلب. وهكذا شب لوثر بين حقائق الاشياء المرة المضيضة لا ظواهرها الحلوة المصقولة غلاماً خشن الهيئة ضعيف المنة فى جوفه روح كبيرة نهمة كلها ذكاء وشعور شب فى ملتطم أمواج البلاء . ومصطدم أواذي الشقاء ولكن ذلك خير مدراس له تعلم فيه سنة الحق وألف صحبة الحقائق . وهذا واجبه فى الحياة ان يعرف الحقيقة ثم يرجع اليها العالم الضال عما قد طال فى الباطل لجاجه. واشتد بالزور والكذب الهاجه ! غلام نشأ فى مهد العواصف وربى في حجر القر والزمهرير . وغذته مرضعات الهم والنكد . وغازلته بنات الباساء والكمد . فخرج من أحشاء وطنه خروج «ثور »(١) من ضمير اسكاندينافيا. وكيف وانه ماانفك يضرب فى شياطين الافك والزور . وابالسة المنكر والفجور . كما كان يفعل « ثور» بالجان والمردة حتي هزم كتائب الكذب والمحال وكشف جنود البدع والضلال

ولعل الامر الذى كان عليه متحول مجرى حياته هو موت صديقه « الكسيس » بالصاعقة . لقد كان لوثر أظهر فى زمن طفولته وصباه أشد الميل للدرس والمذاكرة رغماً من كارثات الفقر ورجا ابواه ان يكون له فى الرقي قسمة فأركباه طريق الدراسة القضائية لانها الطريق اذ ذاك الى النهضة والصعود . فرضي لوثر بذلك رضى كره وأساغه مساغ الشجي وأغضي منه على القذى .

فلما كان في التاسعة عشرة وقد شخص هو وصديق له « الكسيس » ليزورا أبويه في بلدة « مانسفيلد » ثارت زوبعة ورمت بالصاعقة فأصابت صديقه فاذا هو تحت قدميه ميت فناجاه مناجى العبرة من اعماق نفسه « تبا لهذه

(١) آله الرعد عند الامم الشمالية الوثنية وقد مر ذكره

الدنيا وقبحاً لهذي الدار . ويابؤس للحياة ويارحمتا للانسان ! ماهذه الحياة ؟ اتزول فى لفتة الجيد ولمح البصر وتذهب كالقرطاس طوته ألسنة النيران فتضيع فى مجاهل الابد ؟ ماذا الدنيا وماذا الدول والممالك والسلاطين والقياصرة ؟ كلهم في التراب تراب ! بينماهم في حلل عزهم رافلون . على الارائك متكئون . تفغر الارض فاها فاذا هم في بطنها ثاوون . وبالعفر والرغام مكحولون . والمدر والحجارة موسدون . بلى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . ثم ان لوثر عزم من ساعته على الانقطاع لله وعبادته طول عمره وأصبح قسيس كنيسة القديس اوجاستين ببلدة « ارفورت » برغم أبيه والكثيرين من معارفه

ولعل هذا أول شعاع برق في تاريخ الرجل ولكنه شعاع وسط ظلمات . وقد حدث عن نفسه انه كان فى تلك المدة قسيساً صالحا يجد ويجتهد ليؤدي وظيفته وليدرك السعادة ولكن عبثاً حاول فما خف مصابه ولا قلت شقوته ولكن تضاعف عليه البلاء حتى جاوز كل حد . وما اشقاه لا من كدّ في عمله ولا نصب ولا من مهانة العمل وذله أتاه البلاء . وانما لسقوط نفسه اذ ذاك في اسحق مهاوي الشك والخوف — الشك فى انه على الهدى والخوف من عذاب الله فى الآخرة . وقد قام بخاطره انه قد دنا أجله وشر من ذلك انه قد دنا عذابه الابدي . أليس فى ذلك دليل على خشوع الرجل وضراعته واخلاصه ؟ لعله جعل يقول في نفسه « من انت أيها المسكين حتى تدخل الجنة ؟ أنت الذى ماعرفت الا الشقاء والهوان . كلا ذلك مقام دونه الشمس . » ولم يكد يفهم كيف ان فى الصوم والتهجد وتكاليف الدين والكنيسة منجاة للمرء من النار . فمن ثم هوت نفسه فى

اعتم ظلمات البؤس وجعل كأنما يزيح به على شفا جرف هار .

وكان عثوره على نسخة قديمة من الانجيل في مكتبة ارفورت حسنة من اكبر حسنات الزمن . ولم يك قط قبلها ابصر الانجيل فلقنه درساً خلاف درس الصيام والتهجد وأعانه على ذلك أخ في الله قسيس فعلم لوثر ان المنقذ للانسان من وهدة البلاء ليس هو نشيد الصلوات . وترتيل الآيات . وانما هو الله ومرحمته . وذلك اقرب الى العقل وأوقع في الجنان . فاعتصم من رحمة الله بأوثق عروة . وأنشب من مغفرة الله في ارسي طود وهضبة . ولا بدع ان جعل يقدس الانجيل الذى اسدى اليه تلك المنة فأجله كما يجل مثله كلام الخالق . وعزم على ان لا يحيد عنه اصبعاً وقد كان منه ذلك حتى لقى ربه

فكان ذلك خلاصه من اسر الشكوك والريب ومنجاته من مرتطم الخوف والجزع وانتقاله من الضلال الى الهدى . فازدادت نفسه من يوم الى آخر غبطة وصفاء . وراحة ورخاء . وكانت النتيجة الطبيعية انه أظهر للملأ ما كان مكتتماً قبل في زوايا صدره من المواهب الالهية . والصفات العلية . فأعظمه الرؤساء وبوأه من الدرج ماهو أهله ووكلوا به أمر البعث فكلما آب من رحلة كلفوه أخرى . ثقة منهم فيه بالحزم والصدق . ثم اختاره أمير المقاطعة « فريدريك الملقب بالعاقل » وكان عاقلا عادلا استاذاً في جامعة « وتنبرج » فاحسن اداء ذلك العمل كما احسن البلاء في جميع ما نيط به من الامور وجعل من يوم الى آخر يعلو في انظار الناس ويتغلغل في نفوسهم.

وكان في السابعة والعشرين من عمره ان رأى مدينة روما لأول مرة

وكان أتاها برسالة كما قلت من ديره . ولا إخال الا ان لوثر عجب كل العجب لما ابصر من حال البابا « يولوس الثاني » وسائر احوال روما اذ ذاك . وكان ظنه انه قد اتى المدينة المقدسة . عرش ولي الله في الارض وإمام الناس وهاديهم سواء السبيل فاذا هو بين فسق وفجور . وغفلة وغرور . وويل وثبور . وبين اثم ووزر . وبلاء وشر . وباطل ومنكر . وما احسب الا ان هذه الحال السيئة قد بعثت خاطره في اودية الفكر وشعاب الظن ولكنها كانت هواجس لم يرفعها قلبه الى لسانه . ولا اسلمها وجدانه الى بيانه . لقد علم انه لا يبصر امامه هدى ولا حقا . ولكن ماله ولذاك ؟ وانّي لرجل ضعيف مثله ان يصلح عالما ويقلب دنيا ، حقا ان لمثل هذا العمل لانسانا غيره اعظم قدرا . واكبر خطرا . وحسب لوثر ان يوفقه الله الى هداه . ويسدد الى خطة الحق خطاه . وبحسبه ان يقوم بواجبه في خفية وغموض . فاما العالم فعالم الله يفعل به مايشاء ولله في خلقه شؤون .

وكذلك ترك لوثر هذه البابوية الضالة وشأنها وعاد الى بلاده . ثم تركها وشأنها ولم يتعرض لها الا بعد ان تعرضت له . ولم ينقضّ عليها ويسطو بها حتى هاجته واستثارته . ومن اكبر فضل الله أنها هاجته واستثارته واستدعته بذلك الى شن الغارة عليها والايقاع بها . اذ ماذا كانت الحال تكون والى أي شيء كانت تصير الامور لو لم يثر لوثر ثورة الاسد المخدر في وجه ذلك المذهب الباطل فيرد عرامه ويفلّ غربه ويكف منه عن العالم شرّا مستطيرا كان يؤذن بالويل العظيم . والخطب الجسيم . والتلف العميم ؟ ماذا كان يكون الامر لو قد استمرت تلك البابوية تضرب في سنن غوايتها . وتمعن في طريق عمايتها . من غير ان تعترض لوثر في سبيله وتصادفه في منهاجه فتضطره الى

الحملة عليها ؟ انما الواضح لى انه لو لم يكن ذلك ما كان لوثر ليفوه ببنت شفة عن مفاسد روما وموبقاتها . وانما يجعل الامر فى ذلك لله شيمة الرجل المتخشع المتواضع الذي لا يرى من شأنه ان يستطيل بالتسفيه على ذوي الامر من غير ان يكون ثمت موجب أو علة . بل يرى كما قلت ان حسبه من التطفل بالنصيحة على الغير ان ينصح لنفسه ويبغي بها جادّة الحق ومنهج السداد . ولكن البابوية لم يكفها ما أتت فى سائر الجهات والامصار من التضليل والتغرير حتى هجمت على لوثر فى قريته الحقيرة فسامته خطة الخسف والضيم فأبى . وآية الرجل الشريف انه اذا سيم الخسف قال لا بملء فيه وبيان ذلك ان البابا « ليو » العاشر احتاج المال وكان مبذراً متلافا فابتغاه من وجه حرام وطريق ممقوت اذ جعل يبيع الناس عفو الله . وعفو الله لا يحتاج الى شفاعة بابا ولا بطريق . وما هو بالسلعة تباع فى السوق بالذهب والورق . وانما هي بضاعة لا ثمن لها الا الاخلاص الصريح . والتوبة النصوح . ودمع المذنب يقرع وجنتيه . وسنّه يضرس سبّابتيه . فان كان لا بد من شفيع فالسيد المسيح ومحكم التنزيل . وآيات التوراة والانجيل . ولكن البابا رأى الجهل فاشياً في الناس فأرسل فيهم رهبانه وقساوسته بتلك الاوراق المدلسة المرذولة وكان يسميها اوراق الغفران ومع كل راهب صندوق فيقول للناس « من كان له فى الجحيم صاحب أو قريب فأحب ان يغفر الله له وينقله الى الجنة فلينبذ فى هذا الصندوق قرشا . فانه لا يكاد يصل قعره حتى يطير الروح المعذب من مثواه في النار الى انضر مقامات الجنة »

ونزل أحد هؤلاء الرهبان واسمه « تتزل » على بضعة فراسخ من بلدة « وتنبرج » حيث كان لوثر فاصغي اليه كثير من العامة لسذاجتهم وبلغ

من شره ان بعض القوم نبذ طاعة لوثر في كثير من اوامره اتكالا منهم على ما اشتروه من عفو الله بالدرهم المنقود . فقدح ذلك في احشاء لوثر ورأى انه قد آن له ان يثور في وجه البابوية الكاذبة ولم يخش الراهب « تتزل » بل قال « ان يشأ ربي وربكم فلأصدعن مروته ولأحتن اثلته »

ثم كتب رسالة ابطل فيها عمل البابا وطعن في خطته وأرسل صورة منها الى بطريق مدينة « ماجد برج » شيخ النصرانية بالمانيا . وعلق صورة ممضاة باسمه بباب كنيسة (وتنبرج) فهب هذا النبأ مهب الريح في كل وجهة وطار في انحاء العالم الاوربي مطير البرق .

وادبر الراهب « تتزل » فنزل بلدة فرانكفورت الواقعة على ضفة نهر « اودار » فكتب ردودا على اقوال لوثر ونشرها فتناول تلاميذ لوثر نسخة منها فاحرقوها ببلدة « وتنبرج » وسمع البابا بذلك فقال متهكما «لا أخال ان لوثر هذا من نوابغ العالم» واستمر لوثر يكتب الردود والمطاعن وينشرها ويجيئه زعماء البابوية وانصارها وتقوم بينه وبينهم سوق المناظرة ويحمى به وبهم وطيس الجدال فيدمغ بالحق باطلهم ويدفع باليقين شبهاتهم وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى نفد صبر البابا وذهب عنه ما اتقاه التجلد من رمق الاحتمال والمطاولة فنشر لائحة كفّر فيها لوثر ورماه بالخروج والزندقة. وامر بكتاباته ان تحرق وبه ان يرسل مكبلا في الاغلال الى روما لعله ليحرق ايضاً . فيلقى من الجزاء ما لقى القسيس « هاس » من قبله . ونعم المناظرة النار ما اخصر وما اسرع وما أقرب الى الغاية وحسم النزاع ! يا للظلم ويا للفجور ! يستدعي البابا القسيس «هاس» ويعطيه عهد الله وميثاقه ان لا يمسه بسوء ولا يناله باذى . ويحضر « هاس » رجلا لا مشاغبا شديد

الخصومة ولا مشا كساً الدّ الجدال . وانما رجلا سهل الشكيمة لين العطف سلس العنان فيودعوه سجناً أضيق من بياض الميم ثلاث اذرع فى مثلها ثم يضرموه عليه نارا فيقطعوا بصوارم اللهب صوتاً ما رفع الا فى طاعة الله . لبئس والله ما يصنعون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

انا أحد الذين يفسحون ساحة العذر للوثر فى قيامه الآن ضد البابافان ذلك البابا المترف الكافر والوثنى الانيق الثوب السائغ الطعمة لما أوقد ناره لحريق مكتوبات لوثر اجيج بها حنقاً وسعر بها غيظاً وحرداً فى اشجع فؤاد كان اذ ذاك فى العالم — اشجع فؤاد واضرعه لله واشده تواضعاً . بلى لقد استعر ذلك الفؤاد وتأجج ولات حين اطفاء . وكأنى بلوثر يقول فى نفسه حينذاك « اتحرق يا هذا الرجل كتاباتى هذه وماازيد بها الا الحق والهدى ولم يعمد بها الى غير الله وتسمى نفسك بعد ذلك امام الناس وخليفة المسيح في الارض ؟ اتجعل الجواب على هذه الاوراق احراقها وما فيها الا عظة لك وحكمة وتريد ان تحرق كاتبها ؟ أأنت خليفة الله فى ارضه ؟ كلا ! انت خليفة الشيطان ومثواك مثواه ودارك مغنى لابليس وجنوده وعش لخفافيش العمه والجهالة . وجحر لهوام السفه والضلالة . وانى لأشهد على لائحتك تلك التي اصدرتها نقمة عليّ بالكذب والجور وليس لها لديّ الا النار . ولتفعل بعد ذلك ما تشاء. ثم ان لوثر جمع من شيعته وانصاره مجمعاً ورفعوا ناراً فاحرقوا فيها لائحة البابا واكثروا عليها الهتاف والصياح بمرأى من مدينة «وتنبرج» بل بمرأي من العالم اجمع . لك الله ايها البابا ! لبئسما صنعت اذ استثرت من صدور الناس تلك الصيحة . فانها صيحة استيقاظ الامم وانتباه العالم . لقد طالما اوغرت صدر المانيا حتى ضاق ذلك الصدر بما كظم. وحتى طفح ذاك

الاناء ولم يبق في قوس الصبر منزع . ولقد طال بالناس حكم الضلال وتراخت مدة الباطل وشاخت فيهم دولة الزور والبهتان وقد آن للحق ان يميل عروشها فيهدمها .

وهل كان لوثر الا من قبيل الانبياء حاطمي الاصنام ومرجعي الناس الى الحقيقة بعد طول الاقامة على الضلال . وتلك وظيفة العظماء عامة . أو لم يقل محمد (عليه السلام) للناس انما اصنامكم هذه خشب لا تضر ولا تنفع . وهل كانت مقالة لوثر للبابا اذ يقول له « ماهذه الاوراق التي تسميها اوراق العفو الاّ أكذوبة واضلولة وما انت والعفو عن الناس انما ذلك بيد الله » الا كمقالة محمد ؟ لله انت يا لوثر أي كاشف غمة . ومنقذ امة . واي مرجم شياطين . وسيف على رقاب الظالمين انت ! وبأبى انت اذ تقول ولا تبالي نيران البابا ولا جيوش السلطان « انما العفو بيد الله والامر لله وحده . وانما البابوية وما يدعونه من تلك الرعاية الروحانية افك وزور وكيف وما أراها الا اثوابا مرقوشة . واوراقا منقوشة . وما كانت تلك المواد الجامدة الميتة لتكون زعامة دينية . ورعاية روحانية . انما هي حقيقة رائعة . وما دين الله وفردوسه وجحيمه بأباطيل كتلك ولا اكاذيب . فبهذا وحده أومن وبه اعتصم وعليه أقوم وفيه أضرب اوتادى . وارسي اطوادى . وانى اذ افعل ذلك لاقوى منكم جميعاً . وعصمة الله امنع للمؤمن من جميع ما تشيدونه من القلاع والمعاقل . وبأس الله من بأسكم أشد وكيده من كيدكم أقوى . وأنا وانتم بنصر الله كما قيل

كادوا وكدت فازهقت ما دبروا ... احدى هناتك انما ازهاق

انا فى وحدتى بهدى الله قوى . وانتم في جموعكم بالضلال والكذب

ضعاف . انا من طاعة الله مدجج فى اكمل سلاح واحصن جنة وانتم من معصية الله في اسمال رثاث واطمار رعابيل منكشفوا العورات حاسروا المقاتل . وانا من تقوى الله على صخرة اصلها تحت الثرى وفرعها في السماء. وانتم في باطلكم كالمتكيء على الهواء والمعتمد على الماء .

ثم جاء بعد ذلك حفلة « ورمز » وظهور لوثر هنالك ولعل هذا كان اجلّ مشهد في تاريخ اوربا . والمنبع الذى منه فاض تاريخ المدنيــة الحديثة . والذي كان من أمر هذه الحفلة ان امبراطور المانيا شارل الخامس لما اعيته الحيل فى لوثر ولم تنفعه فيه المناقشات والمجادلات وكان قد عقد الحفلة للنظر في شؤون الولايات استدعى لوثر ليعرف ما عنده ولينتهي معه عند حال . وكان المجلس حافلا بجميع الوجوه والاشراف وامراء الدولة والولاة وزعماء الدين والملك . والى هذا الجمع الحاشد استدعي لوثر من قريته ليسأل الا يزال مصرا على رأيه ؟ فيجيب نعم أو لا . خصمان متواجهان.وقرنان متبارزان . احدهما قوة العالم وزهرة الدنيا وجيوش الارض . وثانيهما رجل فرد نجل الصانع المسكين « هانز لوثر » قائمــاً فى نصرة الحق.وقد نصح اليه الاخوان ان لا يذهب وذكروه بنبأ القسيس « هاس » ليكون فيه عبرة.ومزدجر . فاغلق دون كلامهم اذنيه ومضى على عزيمته فى الذهاب وصمم . وقال « تالله لاذهبن ولو ان بمدينة « ورمز » من الشياطين بقدر ما بها من الحصي. » . وجعل الناس يصيحون به من نوافذ الدور وشرفاتها وهو سائر الغداة الى الحفــلة ان اقم على مبدئك وتشبث برأيك ومذهبك واياك والانخذال والهزيمة . وجعلوا يتلون له آية من الانجيل في ذلك المعنى . ذلك ما طلبه اليه اهل وطنه وهل هو في الحقيقة الا طلب العالم اجمع — طلب العالم الذي

جهدته اغلال الباطل وشفته ظلمات الضلال واخذ بكظمه شيطان الجهل حتى بلغت الروح التراقي — طلب العالم يصيح بلوثر اغثنا ادركنا يا بطل الابطال فان مدار امرنا عليك . وارواحنا في يديك .

ولم يخذلهم لوثر ولا خيب فيه آمالهم . وقام في المجلس خطيباً فتكلم ساعتين كلاماً سداه الحكمة ولحمته الاخلاص والصدق. ابان فيه انه يذعن للحق وليس لغيره يذعن . وان كتاباته بعضها من املاء ضميره وبعضها مستمد من كتاب الله . فاما ما كان من بنات خاطره فذاك ملئ بالعيب والخطأ بما انه كلام بشر وأما ما كان مأخوذاً من قول الله فاساسه الحق وليس يبرأ منه يدَ الدهر . ثم سألهم ان يناضلوه بالحجة والدليل فاذا دحضوا حجته زال لهم عنها وصار الى ما يحبون الى أن قال « انا لا أخالف ما يأمرني به العقل والنهي ويوحي الى به صوت الحق من زوايا الضمير والنفس. ذلك ما فى وسعي وطاقتي وليس لى عنه محيد ولا دونه مذهب . وعلى الله اتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل . » الا ترون ايها الاخوان ان هذه كانت اخطر ساعة في التاريخ الحديث . وان عليها قامت دعائم الدستور الانكليزى وبرلماناته . والحرية الاميركية واستقلالها . والثورة الفرنسوية ونتائجها في انحاء الارض . ثم فى هذه الساعة غرست جذور تلك الحوادث الكبرى والمسائل العظمى ولو سلك لوثر فى تلك الساعة خطة أخرى لكان لها عواقب أخرى ! وكأنما العالم الاوربى كان ساعتئذ ماثلا امام لوثر يسأله هذا السؤال : اترى لا ازال فى محنة وبلاء يهوى بى النحس الى مساقط الجهل والشقاء أم يرزقني الله من ذلك الداء الشفاء . ولظلمة الباطل من نور اليقين الجلاء . فاغتبط بنعائم الراحة والصفاء . بعد مخابث العيشة الكدراء ؟

ومما يمدح به لوثر انه ثار في وجه الدين ثورته وأحدث ذلك الانقلاب العظيم من غير ان يهيج زوابع الفتنة أو يسعر نيران الهيجاء . بل حقن الدماء في الابدان . والسيوف في الاجفان . ولم يحول اليراع حساما . والقراطيس أعلاما . ولا استبدل من صرير القلم في الطروس صليل السيف في الرؤس ولا من التناضل بالاقوال . التناضل بالنبال . ولا جعل الكلوم (١) موضع الكلام . والجلاد بدل الجدال والخصام . وقلما نجد رجلا احدث أمرا جللا وهاج حركة هائلة الا غاله مما احدث غائلات . والتهمه مما اثار محن جائحات . وهذه من مستلزمات الفتن والفتوق . ومستدعيات كل خروج عن الاوضاع المألوفة ومروق . وانما وفق لوثر الى ذلك بفضل ما اوتيه من الحزم والبصيرة . والحزم رأس بوارع الخصال . وكرائم الخلال . وداعية الصلاح . وسائقة الفلاح .

ومن اكرم ما امتاز به لوثر فضيلة التسامح . وبها كان يميز الامر الاساسي الجوهري من غيره فجاءه ذات يوم عن بعض قسوس المذهب الجديد انه يعظ الناس في قلنسوته . (وكانت هذه سنة المذهب الكاثوليكي ومخالفة لمبادئ الملة الجديدة) فلم يعبأ لوثر بتلك الشكوى بل قال « وأى ضرر في القلنسوة ، دعوه يلبس قلنسوة أو ثلاثا اذا شاء . »

وقد ذكر (ريشتار) لوثر فقال لقد كانت كل كلمة من كلماته كموقعة حربية . وما اخطأ في قوله . ولعل أهم صفات لوثر هو انه كان يستطيع ان يحارب فيقهر . ويقاتل فينتصر . وانه كان قطعة من الشجاعة . وفلذة من المروءة : ولا نعلم قط في التاريخ الحديث والغابر انسانا اشجع قلبا من لوثر .

---

(١) الكلوم جمع كلم وهو الجرح

ولما قال فى مدينة « ورمز » كلمته المأثورة وهى « لو ان فى ورمز من الشياطين عدد ما بها من الحصي لما حفلتها » لم تك لمجرد الافتخار والتيه. كما يكون فى مثل تلك المواطن . ولكنه كان عن عقيدة صحيحة بان هنالك شياطين يعترضون عباد الله فى مسالكهم بالشر والاذى . ومن يذهب الى الغرفة التي كان يكتب فيها لوثر ترجمته للانجيل ير على احد حيطانها بقعة سوداء — اثر موقعة كانت له مع شيطان من الجن . وأصل ذلك ان لوثر كان جالساً فى تلك الغرفة يكتب ترجمة الانجيل وكان قد نهكه الكد واعياه الجهد . وبلغ منه المرض والصوم . وكان من اثر ذلك ان ترآى له شبح مبهم الشكل مخوف الهيئة فحسبه ابليس اتاه ليقعده عن عمله فثار لوثر ثورة جبار واخذ الدواة فرمى بها الخيال فاذا هو قد اّملس ؛ واثر الدواة فى الحائط باق الى الآن آية ودليلا على امور شتى . وان فى قدرة اى تلميذ بمدارس الطب أن يكشف لنا القناع عن هذه الحادثة ويحل لنا مشكلها . ولكن اعتقاد لوثر ان الشبح القائم امامه هو ابليس ثم نهضته فى وجه ابليس وقدفه اياه بالدواة دليل على منتهى الشجاعة واقصى غايات البأس والنجدة . ومن كان لا يهاب شياطين الجحيم وابالسة جهنم فهو احرى ان لا يهاب ملوك الارض وجبابرتها . وقد كتب مرة العبارة الآتية « الشيطان يعلم ان عملي هذا ليس بنتيجة رهبة ولا مخافة فلقد طالما رأيت الشياطين ونابذتها والدوق جورج لا يعادل شيطاناً واحداً . واين هو من سطوة الشياطين ! فليعلم هذا الدوق انى لو شئت ان ادخل بلدة «ليبزيج» لدخلتها قسرا وعنوة وجست خلالها ولو ان سماءها تمطر امثاله من الدوقات تسعة ايام ولاء . »

لك الله يالوثر اى طوفان وسيل من الدوقات تريد ان تقتحم

وشد ما يخطي الذين يحسبون ان شجاعة هذا الرجل كانت ضربا من البطش والفتك . وصنفاً من العناء والعصيان والخشونة والعجرفية . وما ابعدها عن ذلك . وانا لا انكر ان هنالك ضربا من قلة الخوف مصدره قلة العطف او قلة التفكير . وربما كان منشؤه وجود البغضاء والحنق الأعمى . كشجاعة النمر وهل ترون لشجاعة النمر قيمة ؟ اما لوثر فكان غير ذلك بتّة ولم أر تهمة اكذب من نسبة الفتك والقسوة اليه وكيف وما كان قلبه قط مجالا لغير الحب والرحمة شأن كل فؤاد ذي مروءة وبر . والنمر ان صادف قرناً اشد منه بطشاً فرّ هاربا . فما هذه بشجاعة وانما فتك وقسوة . ولست اعلم شيأ ارق وألطف مما كان يصدر عن فؤاد لوثر من انفاس المودة والعطف تلك التي كانت ارق من انفاس العاشق في الهجر . وانفاس النسيم في السحر . لله ما كان ارق هاتيك الانفاس واعنى بها كلمات الرجل وما كان اصفاها واخلصها من شوائب الرياء والكلفة واشبهها بالعذب الزلال تنفجر به الصخرة الملساء . وهل كانت كآبته واطراقه ويأسه مدة صباه الا بعض آثار التفكير والاتعاظ والعبرة مما يكون عادة في القلوب الرقيقة والنفوس الحديدة الشعور الذكية الوجدان ؟ وهي حالة يصاب بها ذووا الرقة من الشعراء وقد اصيب بها الشاعر المسكين وليم كوبر . بل لقد بلغ من رقة لوثر وتواضعه انه كان يحسبه الناظر غير المدقق رجلا ضعيفا هيابة . وعندى ان اكرم الشجاعة واسماها . بل اشدها واقواها . هي المنبعثة من فؤاد كله لين ورأفة .

وكم لنا في كتاب لوثر المسمى «حديث المائدة» ذلك الذي جمعه اصحابه بعد وفاته من اقواله وكلماته من الآيات البينات الدالة على عظمة الرجل وفضله .

فمن ذلك ما ابداه عند وفاة حفيدة له من جلَد في رقة . وصبر في حرقة . وقوله انه استودع الصبية عند الله ولكنه لا يملك مع ذلك وجداً عليها قد اوقد لوعته . وهاج غلته . وكمداً والتياعاً . وحنيناً ونزاعاً . ثم جعل وهو مشدوه (مدهوش) حائر ينظر في اعقاب روحها الصاعدة الى الله قد غابت في اثناء تلك العوالم المجهولة وراء حجب الموت . — ينظر دهشاً حائراً وحسبكم ذلك دليلا على صدق الرجل واخلاصه وعلمه انه رغماً من اختلاف الملل وافتراق النحل فانا معشر الآدميين لا نعلم شيئاً وان نعلم . وكل ما يدرك ازاء حادث الموت الذى اخترم حفيدته هو انها ستصبح عند الله وان الله ارأف بها وارحم . وان خير الامور له ان يسلم الامر لله . فالاسلام دينه ومذهبه

ومن آيات عظمته انه اطل من نافذته مرة فى جوف الليل فقال في نفسه « عجباً لهذه القبة الزرقاء وهذا الفلك الدوار وهذا السحاب الركام يا لله ما اروع وما اجلّ . على أي دعامة تقوم هذه السماء ؟ لا دعامة الا قوة الله سبحانه رفع السموات بغير عمد وأمطر من السماء ماء فأخرج به نباتاً وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها . ولما كان عائداً ذات يوم الى داره أعجبه رواء مغارس القمح فقال ما ابهج منظرها صفراء تميل فوق خضراء كأنها حقاق الذهب على قضبان الزبرجد . بركة تفطرت عنها احشاء الارض ونعمة سلّتها يد الله من اغماد الثرى

ومن آياته أيضاً انه ابصر ذات مساء عصفورا قد خيم في وكره على شجرة باحدى البساتين . فقال : عجباً لهذا العصفور ماراعه هول مافوقه من هذي السموات ان يطمئن في عشه آمن السرب . ساكن القلب . مفوضاً أمره للخالق الذى مهد له في جنابه ووطّأ له في كنفه . هذا وما زالت

شذور المزاح نفصل نظام حكمه . وما برحت نكت الفكاهة تزين ديباجة كلمه . وكذلك من كان قلبه امين النواحى رقيق الحواشي . غزير مادة الحنان والحب . وقديما كان الضحك الصريح عنوان الكرم والخير . وأمارة المروءة والبر . ثم أما ترون فى حبه الشديد للموسيقى جملة تفاصيل هذه الاميال الكريمة . ومجمع تفاريق هذه النزعات العالية . وكم من معنى لطيف . يعيا به البيان . ووجدان شريف . يعجز عن تأديته اللسان . أداه الينا لسان مزماره . وباحت به مناطق اوتاره . وكان يقول ان الشياطين لتفر من نغماته وتفقد عند وجود ألحانه ونبراته . فلله انت أيها البطل من جامع الضدين . ومؤلف النقيضين . بأس تسطو به على الجن وأبالستها . ورقة جذبت بميك نحو الانغام ومطرباتها . والالحان ومرقصاتها . لهما والله قطبان لروحك العظيمة . وبين هذين القطبين مجال لكل كريمة من الخصال . ومضطرب لكل شريفة من الخلال .

وأرى فى وجهه لوثر عنوانا على خلقه . فهو وجه خشن الملامح تعرف فى نتوء عظامه ووعورة أركانه معانى البأس والقوة . والنشاط والهمة . وفي العينين حزن في صبر ووجد فى سكينة . وكآبة لا تكيف ورقة لا توصف وتلك أصل كل عاطفة رقيقة . ومنها يستفيد ذلك الوجه ما يرى فيه من سيماء الشرف والنبل . وقد قلنا ان الضحك كان مغروسا فى طينة الرجل ولكن تلك الطينة كانت فوق ذلك مسقية بالدموع نهلا . وكأن فيها ينابيع الدمع وبحاره . وخلجه وأنهاره . وكان اساس حياته الحزن والجهد والاخلاص والجد . ولقد قال فى أخريات عمره بعد مظافره وانتصاراته انه قد مل البقاء وسئم تكاليف الحياة . وان له عند الله أمنية هي ان يريحه

من متاعب الوجود ويقبضه اليه . ومن عابه بكلمته هذه واعتدها عليه فقد اخطأ ! وما احسب الا ان لوثر كان رجلا كبيراً — كبير القلب كبير العقل كبير النفس — رجلا من خيرة رجالنا وصفوتهم . ولا أراه الا كالجبل الاشم اصم الصخور صلد الصفا وفى نقره وثغباته الماء الزلال . العذب السلسال . وعلى جوانبه الرياض تبتسم نضارة . وترف بهجة وغضارة . الى زهر وريحان . وفاكهة ألوان . وقصارى القول انه بطل ونبي . ونتيج الطبيعة وسليل الحقيقة والجدير ان يحمد الله عليه هذه الاجيال . ومن سوف يدرج على هذه الارض من غابر الناس ويدب .

ثم ان مذهب لوثر تفرق شعباً فأكرم شعبه وأطيب فروعه ذلك الذى نبت في انكلترا أعني الملة البيوريتانية فأما في جرمانيا ذاتها فان البروتستانية اخذت تضمحل حتى تحولت عن منزلة الاديان الى مواطن الجدل والمخاصمة وزالت عن القلب الى اللسان . وعن العقيدة الى الحجة والبرهان . بل مازال بها الاضمحلال حتى صارت فولتيرية وانتهت الى تلك المباحثات الجدلية التي كانت أيام الثورة الفرنسوية . أما فى بلادنا (بريطانيا) فقد أخذت البروتستانتية صورة أخرى هى البيوريتانية ثم غولى بالبيوريتانية حتي صارت الملة المسماة (البريزباتيريانية) وهي الكنيسة القومية لاهالي اسكوتلاندة . وهي ملة حق صريحة وعقيدة محضة صادقة مغرسها القلب وثمارها جمة فى انحاء العالم البريطانى . وحقيق بنا ان نذكر كلمة عن مؤسس هذه الملة الامام (نوكس) ذلك الشجاع النبيل . وقبل ذلك نذكر كلمة عن البيوريتانية ومعناها البروتستانتية فى انكلترا ومنها نشأت البريزباتيريانية — مذهب القسيس نوكس

في عام ١٥٢٥ رحـل القسيس الانكليزى وليم تيندال الى بلدة لوثر (وتنبرج) منجذباً اليهـا بشهرة ذلك البطل الـكبير وخطورة مذهبه وكان القسيس تيندال شديد التدين والتقى ناقماً على الـكاثوليكية فرحّـب بمذهب لوثر أى ترحيب وكان قبل رحلته الى جرمانيا بطويل قال لأحد القسوس الجدليين (ان يطـل الله مدتى لأتركـن راعي الغنم وهو أعلم بكتاب الله منك) . ولما ذهب الى بلدة لوثر وجدها محط الرحال وملتقى الرجال قد ازدحمت بالقاصدين من كل صوب وحدب وجلهم من الطلبة . قد اخلصوا لله وتفانوا في حبه فلم يكن لحالهم تلك مثيل الا حالة الصليبيين ولا لبلدة لوثر شبيهاً الا مدينة بيت المقدس . وكانوا اذا دنوا من البلدة هتفوا بحمدالله وصاحوا غبطة وسرورا . وهنالك ترجم تيندال الانجيل وأرسل ستة آلاف نسخة منه الى انكلترا . ولم يك هذا الـكتاب قاصراً على ترجمة الانجيل بل كان بما ضمن من أقوال لوثر كأنه قطعة من الحركة اللوثرية فقابلته الـكنيسة الانكليزية بأشد المقت والانكار . وأمرت بعدد كبير من نسخه ان تحرق فأحرقت في مدافن كنيسة سانت بول بعين الوزير ولزى . ولكن ذلك لم يمنع ارباب المذهب الجديد من تهريب العـدد الوفير من تلك النسخ ومن الرسائل المهيجة التي كان يكتبها لوثر وأنصاره الى الاقطار الانكليزية ونشرها بين طبقات الفقراء من العمال والصناع والباعة . وكان المتولي لذلك جمعيـة اسمها (الاخوان النصارى) مؤلفة من بعض تجار لندن وأهلها مركزها لندن ولكن رسلها تنتشر فى سائر البقاع البريطانية . فوجدت هذه النسخ سبيلها الى الجامعتين كامبرج واكسفورد حيث كانت النهضـة العلمية قد فتحت عيون القرائح الى المسائل الدينية وبعثت الطلبة على الاشتغال بالمناظرات

الفقهية والالهية . وكانت كامبريج قد رميت بالزندقة وسرت منها العدوى الى اختها اكسفورد وكان من أمر ذلك الهياج الذى اعقب انتشار النسخ المذكورة ما الجأ الوزير ولزى الى مؤاخذة الهائجين فزجّ عدة من قسوس اكسفورد في السجن واحرقت كتبهم ولكن ولزى لم يتجاوز فى عقابهم ذلك الحد رغماً مما ملكهم من الذعر والفرق . وانما صرفته شؤون السياسة عن مسائل الدين .

وكان لانتشار الانجيل بين سكان بريطانيا من التغير الاخلاقي ما لم يسبق له مثال في تاريخ البشر . اذ اصبحت انكلترا امة كتاب — وهذا الكتاب هو الانجيل . ثم أصبح الانجيل كتاب كل انكليزى يتلي في الكنائس وفى المساكن وحيثما وقعت كلماته قرعت آذانا لم تخلقها كثرة الاعادة ولا بلّدها طول التكرار فحركت من النفوس ما حركت . وهزت من كل جنان اريحيته . وهاجت من كل قلب غيرته فى الله وصبوته. وحب الأمة للانجيل راجع الى علة خلاف السبب الدينى . وذلك انه كاد يكون اول كتاب ادبى نظر فيه الشعب الانكليزى وتنزه فى رياضه وجناته.وجنى ازهاره وثمراته . ولم يك قبل ترجمة الانجيل لدى الانكليز من اسفار الادب الاّ ما كان كتبه « ويكليف » وكاد ان ينسي والا ما نظمه الشاعر (تشوسار)وكان لا يعرفه الا الاقلون . ثم لم يوجد قبل ترجمة الانجيل فى اللسان الانكليزى تاريخ قط ولا رواية ولا قصة ولا شعر الا منظومات تشوسار . فلا غرو ان اصبح الشعب الانكليزي يرهف الاذان لاستماع عبارات الانجيل فيجد ابهج مستمتع فيما بذلك الكتاب المقدس من الروايات والقصص واغانى الحرب واناشيد الدعاء والتراجم والسير ومواعظ الرسل

ومزاجر الأنبياء . وحكايات الاسفار البرية والاخطار البحرية . وجولات القسوس في بلاد الوثنية . وفى المناظرات الفلسفية وتصورات الكهنة . فقد كان اذ ذاك نهضتان — علمية احدثها ظهور دفائن العلوم القديمة اليونانية — ودينية احدثها كشف خبايا الآيات العبرانية . والثانية أبعد اشواطاً وامدّ انفاساً . وأعمق جذوراً واطول اغراساً من حيث انها نهضة شملت الخاص والعام فى حين انحصار الاولى فى دوائر العلمية المتأدبين . وذلك انه لما لم يك فى طاقة الترجمة ان تنقل الى الانكليزية براعات اللسان اليونانى تركت عرائس ذلك اللسان مخبوءة في خدورها فلم يستطع استجلاءها الا الواقفون على اسرار اليونانية وهم قليل . ولكن الآيات العبرانية كانت اسمح ما يكون قياداً في عنان الترجمة حتى أصبحت فى ثوب الانكليزية مثلها في حلتها العبرانية حسناً وبهاء . وبهجة ورواء . بل اصبحت اشرف ما لدينا من تحف اليراع الانكليزى واكرم نفائسه . واسلوبها ميزان الاساليب في الانشاء ونظامها معيار النظم فى الكتابة . بل ان أثره فى نفوسهم ككتاب ادبى . واذا تذكرنا ما هو مبثوث فى عُرض كلامنا العادى من كلمات كبار مؤلفينا — اعنى تلك الشذور التى تسربت الى احاديثنا من دواوين شاكسبير وملتون وصحائف دكنز وثكرى ادركنا كيف كان اللسان الانكليزى فى تلك الاوقات يأخذ من ترجمة الانجيل زخارفه وحليه.

وأعظم من أثر الانجيل فى الادب ولغة المحاورة أثره فى اخلاق القوم. لقد كان الانجيل يفعل بالالباب اذ ذاك ما تفعله الآن الجرائد الدينية والمقالات والرسائل والمحاضرات والخطب والمواعظ . وكان من أثره انه بدل اراء الجمهور فيما يتعلق بمسائل الحياة واحوال الانسان. وبعث فى جسم

كل طبقة من طبقات الامة روحاً جديدة اخلاقية وأخرى دينية . ونفض الدين صبغته على الكتابة فما من رسالة تصدر الا وبها عرق زاخر بالورع والتقى وهكذا خلفت الكتابات الدينية في ذاك الوقت ما كان يشغل العصر السابق من مترجمات الآداب الطليانية واللاتينية. وقد قال جروشاس وذكر انكلترا . « اصبحت السيادة فيها للدين . » وقصارى القول ان البلاد امست وهي كنيسة كبيرة . ومسئلة الموت وما وراء الموت تلك المعضلة التى اعتاصت على ذوى الالباب و أُلي النهي فى عصر شاكسبير فما عرفوا لها حلا عادت الآن نصب عين الفلاح والتاجر يطالب نفسه بحلها. ولم تك البيوريتانية فى أول أمرها تقشفاً وتعصباً . ولم تعد الى ملاهي اربابها وملاذهم فتلغيها وتبطلها وانما كان البيوريتانى في أول الامر كما قيل

فلله مني جانب لا اضيعه وللهو مني والخلاعة جانب

فمن ادلة ذلك ان احدى السيدات لما صورت زوجها القائد هاتشنسون وكان بيوريتانيا وجهت جل عنايتها الى ابراز جماله كما كان ايام صباه ولو كان أمر التقشف والورع امكن في نفوسهم اذ ذاك من أمر الزخرف والزينة لكان لها مندوحة عن فعلها ذاك . ولكن السيدة مالت الى ابداء ثغره الوضاح . كاللآلئ النُسق والاقاح . وجبين كأنه المصباح. أو فلق الاصباح. ولمّة . حالكة مدلهمّة . فهي كما قيل

وجاء بها ثور ترف كأنها سلاسل برق لينها وانسكابها

هذا وقد كان السيد المذكور مع حسن تدينه وصحة تقواه مولعا بالصيد والقنص . مغرما بالمسابقة والرقص . كلفا بالفنون الجميلة . ما تزال تستخفه قصيدة . وتستفزه صورة . وتستبيه نغمة . وتطبيه دمية . وكان ربما

نزل بستانه فسقى وعلّ . وغرس واستأصل . وأصلح وشذّب . ونقح وهذّب .

وكان البيورتانى بعدُ عزوفا عن الفحشاء والمنكر . قد صرف صبواته عن الحرام الى الحلال . وعدل بصباباته عن مراتع الوخامة والوبال . الى مقامات الشرف والكمال . فكان أبا رحيما . وخلا حميما . وزوجا شفيقا . وأخا رفيقا . ولم يك قط فى فتنة النساء ما يحرك شهوته بل كان غضيض الجفن عن كل ما يريب شامس العطف عن المغريات تجده الفتنة باصعب مرام واوعر ملتمس . عفيف النفس عفيف الطرف . طيب معقد الازار . يقف من النساء عند محاسن الحديث والسمر . ويقنع منهن بشهرة السمع دون البصر .

وكان البيورتانى حسن القصد فى اموره قليل السرف يباكر شؤنه والبركة في البكور . لا ونية عنده ولا فتور . مشمرا من ذيله . منكمشا فى عمله . وكان احسن ما وفق اليه من المحامد فضيلة المساواة وذلك ان اخاءهم فى الله انساهم ما كان قبل راسخا في نفوسهم من تفاوت الدرجات . وتفاضل المقامات . حتى كان احقر فلاح يعتقد ان الله قد شرفه وقدسه . وحتى صار اكبر الوجوه والاعيان يوقر مساكين الابرار . وصعاليك الاتقياء الاخيار . ولكن افراطهم ذلك في حب الفضيلة والتقى وان عاد بالقوة على اخلاقهم فانه ضيق دائرة رحمتهم وفهمهم . وقد ظهر اثر ذلك في الشاعر الكبير البيورتانى ملتون — في احتشامه وانقباضه واحتقاره لآراء الغوغاء (كما كان يسميهم) وعزوفه عما يحيط به من اساليب الحياة الغليظة الخشنة . بل لقد كان على فرط حبه شاكسبير لا يظهر ارتياحا الى مجون ذلك الشاعر

الاكبر ومزاحه. واذا كانت هذه حال ملتون وهو يعد سيد شعراء عصره وعصارة قومه. فكيف كانت الحال مع من هم اقل ادبا وعلما. واجمد قريحة واكثف فهما. ثم لقد آل ذلك التشدد في التدين والافراط فى التورع بهؤلاء القوم الى اجمد اساليب الحياة وامرّها واكرهها وابعدها من الالفة وحسن العشرة. واصبح البيوريتانى وليست الرابطة بينه وبين الغير هي رابطة الانسانية ولكن نسب التورع والتدين بين طائفة المتدينين المتورعين اصفياء الله واوليائه. وكل من خرج عن دائرة هؤلاء الابرار المصطفين فليس منهم ولا هم منه. وانما هم منه ابرياء. وان نفور البيوريتانيين من المخالفين لمذهبهم هو السبب فيما نرى من الخلاف الشديد بين رقة قلوبهم وبين غلظة ما قد يأتون من وحشي الفعال. وهذا كروموبل تراه بينما قد ادمى حشاه موت ابنه حتي حرمه الغبطة والسرور بانتصاره الباهر فى واقعة « بطحاء مارستون » فعاد من المعترك فائزا بكتائب وظافرا كمنهزم — تراه مع ذلك يهش ويبش لدن يوقع امضاءه على الامر الصادر باعدام الملك « شارل الاول » وما ذلك الا لاعتقاده ان ذلك الامير المنكود الحظ من المعشر الضالين وليس هو لغلظ في كبده او فظاظة فى طبعه. وكان من اثر تفانيهم فى الله ان ماتت فيهم فضيلة التسامح والتساهل حتى في اصغر الاشياء وهكذا تحولت حقائر الامور في حرارة التدين ووهيج الغيرة جسائم وعظائم واصبح احدهم يؤلمه من رؤية فطيرة العيد او كعكته ما يؤلمه من رؤية الخبائث والمفاسق. وباتت الحياة وهي عبء من الاعباء وسخرة خالية من اللذة وكالفة قفر من البهجة. وقام بدل مباهج العهد اليصاباتى ومفارحه ومآنسه وممارحه مرارة البيوريتانية وجدها. وعبوسها واربدادها.

ولقد كان البيوريتاني مصابا فوق كل ذلك بمخافة عذاب النار وهول القيامة . ويقضي الكثير من وقته نهب هاتيك الوساوس. وتلك الهواجس وكان في شدة حرصهم على الورع والتقى مايخيل اليهم ان حياة الناس العادية نوع من الاثم والخطيئة . ولقد قال احد كبار البيوريتانية اوليفار كروميل « لشد ماغويت وضللت ايام الشباب » وما ادراك ماهذا الضلال وما تلك الغواية . هي انه كان يباشر الطيب الحلال من ملاهي الشباب ولذاته . ويعوزه ركانة حلم الكهل ورزانة عقل الشيخ ولا بأس على الشاب في ان لا يكون كذلك . ثم انظر الى جون بنيان صاحب الكتاب الجليل « سيرة الحاج » كيف حدث عن نفسه فقال « لما كنت صبياً في التاسعة من عمري كانت تحضرني خواطر الموت وهواجس النار والحشر والجنة وما اشبه ذلك فكانت مبعث رعب لي ومثار قلق وكرب تعتريني اثناء لعبي مع الصبية عظة من الله ومزجرة ولكني كنت اهملها وآبى الا اقامة على ذنوبي ومآثمي . » افتدرى ماهي تلك الذنوب التي ابى الا الاقامة عليها ؟ هي نوع من لعب الاطفال وصنف من الرقص فأما عيبه الحقيقي وهو الاكثار من الحلف فقد كان اقلع عنه عملا بنصيحة عجوز رأت منه ذلك فانكرته وكان له ولوع شديد بسماع الاجراس تقرع وكان يحسب ذلك مأثما فكان لا يزال يذهب الى موضع تلك الاجراس من الكنيسة فيقف تحتها وهي تقرع حتى يخيل اليه ان الله سيرميه بأحدها فيفر هاربا. وانصرف حينا عن الرقص والالعاب ثم عاد اليها وفي ذلك يقول « لقد صرفتني عظة رجل من القسوس عن الالعاب ثم ما لبثت ان استهوتني بلذاتها فاني ذات يوم لألاعب قطتي وقد لطمتها لطمة وهممت ان ألطمها الثانية واذا بصوت من السماء قد

نفذ الى صميم قلبي وكأنما يقول : ايهما تفضل وتختار ترك الذنوب ونعيم الجنة أم الاقامة عليها وعذاب النار ؟ : فاصابتني لذلك دهشة وأطلقت القطة ورفعت طرفي الى السماء . وكأنما رأيت بعيني ذهني السيد المسيح ينظر الى كالغاضب عليّ وكأنه يتهددني بعقوبة صارمة ان انا لم اقلع عن تلك الذنوب والآثام »

وكذلك كانت البيوريتانية مزيجا من النقص والفضل . وخليطا من السخف والنبل . ولنا ان نذم من تلك الملة عيوبها ماشئنا ولكنه لا يسعنا مع ذلك الا الاعتراف بانه لا يزال فيها ولن يزال جوهر من الحق . وهي بعد غرس غرسته الطبيعة وما ان تزال تتفقده فهو ينمو ثم ينمو . وطالما قلت ان الحياة معترك فما فاز فيها وظفر فهو حق وما خاب وانهزم فهو باطل فالقوة مقياس الفضل . خذ مثلا عظمة امريكا الحالية وانظر ماذا كان اصلها ومنشؤها . الله يعلم ان منشأها لم يك الا فئة ضعيفة بيوريتانية من اهالى هولاندة اضرّ بهم جور السلطان وشفهم ظلم الحكومة فخرجوا من ديارهم وهاجروا منذ قرنين الى امريكا فى تلك السفينة الصغيرة المسماة زهرة الربيع ؛ ولو كان لنا خيال اليونان وشاعريتهم لقلنا في ذلك الحادث القصيد المحبّر ولكن حسبنا ان الطبيعة كتبت في الحادث المذكور قصيدتها الغراء بحروف الحقائق الناصعة على صفحة العالم . ولقد كان بامريكا قبل تلك الفئة البيوريتانية جماعة من النزلاء مبعثرون هنا وهنالك ولكنهم لم يكونوا الا كجسم ميت فلما نزلت تلك الفئة فيهم كانت كأنها الروح دبت فى الجثة الهامدة فاحيتها . نعم لقد ضاقت بهؤلاء القوم بلادهم فعزموا على انتجاع امريكا . وما ادراك ماذا كانت اميركا اذ ذاك ؟ غابات خضر وآجام سود مسدودة عذراء

لم تفترعها قدم ولا فتحت اغلاقها يدان. مستبهمة المعالم طامسة الاعلام. وامم همج وحشية. ولكن هذا كله اخف وطأة من الحكومات الظالمة. والملوك الغاشمة. وقد علموا انه مهما يكن من صعوبة جانب الطبيعة هنالك فان فى الرياضة ما يذلل أنفها. ويلين عطفها. ويستغزر درها. ويستدر خيرها. وانهم سيجدون من الارض وطاء. ومن السماء غطاء. ثم تطمئن بهم النوى ويستقرون فى حيث تنام عنهم الحادثات وتلهو صروف الدهر. فيقضون اعمارهم بالعبادة والتقى ويتزودون من دنياهم لآخرتهم. ولما صحت منهم النيات على ذلك وصدقت العزائم اخذوا عددهم وشحنوا امتعتهم واستأجروا مركباً — السفينة الصغيرة المسماة زهرة الربيع — واستقبلوا بها عباب اليم.

ولما نزلوا السفينة اقاموا بها شعائر الوداع والتشييع على صورة دينية ولا غرو فقد كان عملهم هذا دينياً — وان تشأ فقل ضرباً من الصلاة والعبادة. فصحبهم قسيسهم الى جوف السفينة وشيعهم كذلك اخوانهم الباقون بعدهم. وابتهلوا جميعاً الى رازق النسر في السماء والحوت في بطن الماء. ان ينظر اليهم بعين عنايته. ويسقيهم من صوب نعمته. ويظلهم بجناح رعايته. ويكون لهم فى بلاد الغربة. وديار الوحشة. حرزاً منيعاً. وروضاً مريعاً. وكنا دفيئاً. ووثاراً وطيئاً. نعم لقد كان لهذه الفئة البيوريتانية شأن كبير وقد جعل الله على ايديهم نفاذ امر من اجل اموره. وان كان قدرهم اذ ذاك لم يك الا صغيراً فاول النار شرر. وأول الغيث قطر. وكل شيء حق فهما ضؤل وضعف فسيريكه الدهر يوماً ما ضخما جسيماً.

مثل الهلال بدا فلم يبرح به صوغ الليالى فيه حتى اقمرا

والبيوريتانية وان سخر منها الناس سلفاً فلا يستطيعون ان يسخروا

منها الآن وكيف وقد اخذت عددها ولبست سلاحها وحملت الحذق واللباقة فى اصابعها العشر والبطش والقوة فى قوائمها الاربع . وأصبح فى وسعها نزف البحار . ونسف الجبال . وتسخير البخار . وتسيير الجوار المنشآت كالأعلام . فهى الآن من أشد قوى العالم !

ولست أرى فى تاريخ اسكوتلاندة عصراً جديراً بالذكر الا ذلك الذى حدثت فيه بيوريتانية « نوكس » وما ظنك ببلاد قفرة لا تغبها المشاحنات من أهلها والمشاغبات والفتن والمذابح — ناس فى ادنى حضيض الغلظة والسقوط أحسن بقليل من أهالي ايرلندة الحاليين — طوائف من جياع الامراء والسادة ابى عليهم جهلهم وحماقتهم ان يعرفوا كيف يتقاسمون فيما بينهم تلك الغنائم التى سلبوها جماعة فقرائهم وعمالهم. ولكنهم كالجمهوريات الكولومبية الحالية لا يستطيعون ان يحدثوا تغييراً ما حتى يحدثوا معه ثورة عامة . ولا يجدون الى تبديل وزارة سبيلا الا شنق افراد تلك الوزارة ، اشجاعة هذه ؟ نعم ولكنها شجاعة متوحشين لا تمتاز عن شجاعة آبائنا الاول الوثنيين من سكان الشمال . اولئك الذين لا نجد فى مآثرهم الوحشية ومساعيهم الدموية شيئاً يذكر . اجل لقد استمرت اسكوتلاندة جسما بلا روح حتى نفخ الله فيها من نهضة نوكس روحاً . فاصبح كل فرد بها برا صالحا تقياً . وان تشأ فقل بطلا ورسولا نبياً .

ومما يقال فى مدح هذا الرجل انه لم يطلب تلك المرتبة بحيلة. ولا بلغها بوسيلة . وانما اتته من تلقاء نفسها وذلك بعد ان اوفى على عقد الاربعين وكان من امره انه عاش طول تلك المدة غامض الشأن فقضى ايام صباه فى المدارس ثم تخرج منها قسيساً واعتنق المذهب الجديد — مذهب

لوثر وقد قنع من التداخل فى شؤون الغير بالاقبال على نفسه يصلح من شأنها ويحملها على المنهج القويم وكان يكتسب بالقاء الدروس فى الاسرات الكريمة . يشرح مبادىء مذهبه اذا سئل . ثابتاً على الحق يصدع به متى دعت الحال . غير حاسب انه يستطيع اكثر من ذلك . وعلى هذه الصورة قضي أربعين من عمره . فلما كان ذات يوم وقد اشتد الحصار على جماعة الخوارج المصلحين وكان نوكس بينهم وقد اخذ رئيسهم يخطبهم يربط نافر جأشهم ويفتل مرر عزائمهم . ويستنهض عاثر هممهم . قال فيما قال انه لا بأس ان يكون من القوم من يعمل عمله من عظة الناس ونشر المذهب . وانه جدير بكل من وهبه الله قلباً حافظاً ولساناً ناطقاً ان يكد فى نشر الحق لسانه ويبح في الارشادالى الصواب .وان جون نوكس هوذلكم الرجل ثم التفت الى القوم فقال«أو ليس هو كما وصفت.اذن فما قعوده عن الارشاد والنصيحة ؟ » فوافقه الجمع على مقالته وقالوا انه عمل غير صالح . فاضطر نوكس الى الوقوف للكلام ولكنه ارتج عليه فلبث برهة صامتاً حائراً ثم اجهش بالبكاء وخرج من المجلس يعدو ودموعه على وجنتيه أشد عدواً

ومن ذلك الوقت فصاعداً ثار ثورته واشعل المذهب البيوريتانى فى قلوب الناس اشعالا . حتى عادت الامة الاسكوتلاندية امة قسوس وعادت البلاد وكأنها كنسية . وبدأ الناس يحيون . واعتقادى ان كل ما جاء بعد ذلك من آداب اسكوتلاندة وافكارها وصناعاتها اثر من آثار تلك النهضة بل ان من آثارهاايضاًونتائجها اولئك الرجال الذين هم فخر الامةالاسكوتلاندية: جيمس وات.وداڤيد(داود)هيوم ووالترسكوت وروبرت بارنز : وانى لاجد نوكس ومذهبه ينفثان قوتهما وسرهما فى قلب كل واحد من اولئك الابطال

وهاتيك العوارض . وارى انها ما كانت تكون قط لولا البيوريتانية . نعم لقد فاضت تلك الثورة الدينية الاسكوتلاندية بالخير العميم على جميع انحاء الدولة البريطانية . وذلك انها شبت جمرة في كنيسة ادنبرج (عاصمة اسكوتلاندة) فاذا هي قد صارت حريقاً اسرع في كل جانب من جوانب بريطانيا . وبعد ان دارت رحى الجهاد خمسين عاما زف الله الى البلاد عروس الحرية متعة هنية . وهبة سنية . والفضل في ذلك للذين جاهدوا لنا وكافحوا . ولم ينعموا بثمرة كدهم . ونعمنا بها دونهم . وما تلك بالقسمة العدل ان يصطلوا نار الجحيم ونستصبح نحن بنورها . وأن كل جني النحل وهم يكابدون لذع ابرها . وتلك حال هي كما قلت اشبه بحال الجيش الزاحف على قلعة محصورة تبادر مقدمته الخندق المحفور فتسدها بجثثها لكي يجوز الباقون على تلك الاجسام كأنها قنطرة فيفتحون القلعة ويملكونها فسبحان قاسم الحظوظ لهؤلاء النصر والظفر . ولاولئك الموت الاحمر . وكم من رجل كنوكس وكروموبل كافحوا وجاهدوا . وقاسوا وكابدوا . ولاقوا الشدة والبرحاء . والكرب والبلاء . بل اللوم والتفنيد . والهجو والتنديد قبل ان يسوق الله للبلاد الحرية ترفل في الاوراق الرسمية . والمواد البرلمانية .

وانه لمن افحش الجور ان تتناول الذرية عرض نوكس بالقدح والذم فيكون وهم كما قيل

جزى بنوه ابا الغيلان عن كبر   وحسن فعل كما يجزى سنمار

وعيب وعار ان لا تزال الاجيال تستثير صدى ذلك البطل من لحده ثم تنصبه للمحاكمة كأنه بعض الجناة المجرمين ولا جرم له الا اليد البيضاء . والهمة القعساء . والصدق الصميم . والحسب الجسيم . والا انه كان يحمل

تحت ضلوعه اشجع فؤاد في الاقطار البريطانية وانه كان ولا مشاحة انبل ابناء جلدته وانجدهم. ولو كان متقاعس الهم متقاعد العزم. للزم زاوية بيته كما فعل غيره. فلم تنتشل اسكوتلاندة من قبضة البلاء وراح هو بعرض برئ الساحة املس الجانب. ولكنه آثر المروءة مع لوم الناس على الدنيئة مع قلة اللوم. فاصبح وحده ذا الفضل العظيم على بلاده. والنعم الجليلة على العالم اجمع. فوا عجباً ان يحمل ذلك البطل على ان يستغفر لنفسه من ذنب المروءة واثم المجد وان يسأل اسكوتلاندة العفو لانه كان انفع لها من الآلاف المؤلفة ممن لم يذنبوا ذنبه فهم في مأمن من مثل مايصاب به من اللوم وفى غير حاجة الى مثل ما يقدمه من الاعذار! وهل فى العدل ان يحل ذلك برجل باع اللذة في سوق الحق بالالم والراحة بالنصب والرفاهة بالشظف والقشف ونزل المعترك بلا درع ولا جنة وأهدف للسهام صدره. واحتمل في الله النفي والاسر يسام العذاب ألواناً ويعرض للرعود القواصف. والرياح العواصف. الى غير ذلك من ضروب المحن وصنوف البلاء. ولكن ليقل الناس فيه مايقولون فليس والله يعنيه قولهم وهو يعلم من نفسه ما لا يعلمون. وان كان يعنينا نحن ان ندفع الظلم عن رجل لا نزال نرتع فى غرس يديه وان نقشع ضباب التهمة عن شمس حقيقته

وأرى ان اول شروطنا في البطولة اعنى الاخلاص ينطبق تماماً على نوكس وليس احد ينكر انه مهما تكن عيوبه وعوراته فلقد كان من اشد الناس اخلاصاً. وكيف وانما كان بالحق لا غيره يتشبث وذلك بفطرة فيه وغريزة. ثم يرى كل ماعدا الحق شبحاً باطلا فيدعه. ولما نفي اسيراً مع اصحابه الى سجون نهر اللوار بفرنسا بعد سقوط حصنهم اثر حصار طويل

جاءهم احد السجانين يوما بصورة مريم وسألهم ان يركعوا لها . فقال نوكس « اتزعم هذه امّ المسيح ؟ كلا ماهذه الا قطعة خشب عليها ألوان وصبغ ! وأولى بها ان تطفو على مياه هذا النهر . ثم تناولها فألقى بها في اليم . ولم يكن مثل هذا المزح بالشيء الرخيص اذ ذاك . ولكن نوكس لا يبالى في سبيل الحق ماذا يبذل .

وكان يسلّي صحبه في النكراء . ويعزيهم فى المحنة السوداء . ويقول لهم سيظهر الله الحق مهما لج به الخفاء . والحق ابلج . والباطل لجلج . وأخو الباطل على الايام مقهور . وصاحب الحق على كر العصور منصور ، والحق سنة الديان والباطل مسلك الشيطان ولا بد من يوم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق فمثل هذا البطل ممن لاحياة له الا في عنصر الحقيقة فهو يتشبث باعطافها كما ينشب الغريق في اطراف الصخرة الركود وما احسب الاّ ان الله قد طبع فؤاد هـذا البطل على غرار افئدة الانبياء فهو نبي القلب وان لم يكن نبي الاشان وما اصـدق ما كتب « مورتون » على قبره حيث كتب « تحت هذه الصفائح رجل كان لا يهاب وجه انسان » وهو اشبه المحدثين بالانبياء الاولين من رسل بنى اسرائيل له مالهم من شدة التمسك بطريقته والتفانى فى الله وتضحية كل شيء في تلك السبيل . وشدة الانحاء باللائمة على كل من شذ عن الصراط السوى والخطة المثلى . فيا له من نبي عتيق فى ثياب قسيس محدث . وما ينبغي لنا الا ان نعده كذلك . ولا نأسف انه كان كذلك .

وقد انكر الناس سيرته مع الملكة ماري وغلظة خطابه لها وخشونة نصحه . هكذا يزعم الناس ولكن من قرأ تاريخ هذه الحوادث وجد الامر

على خلاف مازعمون ولم يرَ لنصائح الرجل ومقالاته من الغلظة ما ينسب اليها . بل انى لأراها من اللين على قدر ما كانت تسمح به الحال اذ ذاك ! ولم يمثل نوكس امام الملكة ليعطيها ملق الحاشية وانما لأمر غير ذلك كان مثوله هنالك . ومن قرأ محاوراته معها فلم يرَ فيها الا قحة سوقي لأميرة اخطأ وجه الحقيقة وأشوى مقتل الصواب. لانه كان من المستحيل اذ ذاك ان يجمع جامع بين التأدب في حضرة الاميرة وبين مصلحة الامة الاسكوتلاندية وشرفها .ومن كان همه حينئذ ان يحمي البلاد من ايدي الاجانب من امراء فرنسا ويربأ بها عن ان تكون مدبا لمكايد امثال « دى جيز » ومسرحا لمطامعهم ويعزف بدين الله عن مساقط الذلة ومواطئ الاقدام ومواطن الكذب والضلال فغير ملىء ان يتذرع بحلاوة الملق وعذوبة الاطراء الى الحظوة لدى الاميرة والحال عندها . وما اصدق قول «مورتون» حيث يقول «لان تبكي النساء خير من ان تخضل اللحى بدموع الرجال » . وماذا كان نوكس يفعل وقد رأى الاوطان . قد خانها الاعوان . ونام عنها الانصار وتواكل من اشرافها وتخاذل من عيونها وأعلامها من كان يرجى للكريهة ويدّخر للجلّى؟ اكان يقعد عنها فيمن تقاعد ويخنس فيمن تقاعس ويتركها نهباً لايدى الحوادث وغرضاً لسهام الخطوب ؟ كلا ماهذه شيمة الرجال. ولا تلك سجية الابطال. وهذا أمر دونه خرط القتاد .وضرب الاجياد . وقالت له الاميرة مارى حين جاء ينصحها « من هذا الذى قد بلغ من جرأته انه تكلف نصيحة وجوه هذه المملكة وأميرتها ؟ » فاجاب « سيدتى ! رجل من رعايا هذه المملكة وأبنائها . » جواب اصاب والله المفصل وقرطس الغرض !

نحن نلوم نوكس على عدم تسامحه . ولا انكر ان التسامح محمود بشرط

ان لا يتجاوز الصغائر الى الكبائر . والقشور الى الجواهر وانما التسامح الصادق هو العدل وامتلاك النفس عند الغضب وان لا يكون المرء لئيم القدرة . فاما التسامح مطلقا بلا حد فهذا من المنكر الذى من حق النبلاء ان يترفعوا عنه.وما ارسل الله المرشدين والهداة ليتسامحوا ولكن ليجاهدوا ويكافحوا ويهزموا ويقهروا . نحن لا نتسامح في جرائم الكذب والسرقة والظلم اذ اصابتنا . وانما نخاطبها بقولنا « انت أكذوبة وأنت سرقة وأنت ظلامة لا يتسامح فيك ولا يتجاوز عنك ؛ وانما نحن فى هذا العالم لنخمد الاكاذيب ونقطع دابرها بطريقة صالحة ؛ ولست مشدداً النكير على طريقة استئصال الباطل وان شابها العيب . فحسبها ان بلغتنا الغرض من ازالة الشر ومحو الباطل . ومن هذه الوجهة اعني من وجهة محو الضلال ولو بواسطة معيبة — بالواسطة التي لم يمكن غيرها — كان نوكس عديم التسامح .

وما كان رجل اضطهد ونفى الى بلاد الغربة اسيراً سجينا ليكون فى معظم أوقاته الا مرّ الطباع وعر الناحية ؛ ولست بقائل قط ان نوكس كان في طبعه عذوبة وفي جانبه لين ودماثة ولا انه كان سيء الخلق شرس الشيمة ولم يخل قلبه من عواطف الرحمة والبر والرأفة . هذا ولقد كان في جرأته على الملكة باللوم وفي رجاحة وزنه عند اشراف اسكوتلاندة — اولئك الذين كان لهم من الكبرياء والتيه الميزان الراجح — واستطاعته ان يقبض على زمام النفوذ فى تلك البلاد الوحشية العاتية زمناً طويلا — لقد كان في كل ذلك دليل على ان الرجل لم يك حرج الصدر ضيق العطن وانما كان رجلا حمالا للعبء نهاضاً بالفادح من الامر مضطلعاً بالباهظ من الخطب ولا يكون ذلك الا لمن اوتى بسطة فى الحلم وفضلا في الذكاء والعقل . وقد

ينعون عليه تهديمه للكنائس كما لو كان ثوريا مخربا وانما أمره عكس ذلك لو انعمنا النظر ! وما هدم الزور والفساد. وغسل القلوب من كل دنس ورجس نعم ولا كان ديدنه الثورة بل النظام التام . وانما كان من سوء حظه ان أُلجيء الى الثورة في سبيل امضاء عزمه . وما كان مثل هذا الرجل ليكون الاّ عدوا للثورة والفوضي . ولكن ماذا يصنع اذا لم يجد بدا من ركوب الفتنة لبلوغ غرضه ؟ يركبها والرجل المضطر يركب الصعب وهو عالم بركوبه. هذا وانه كان على الحق . والحق هو النظام .

ومن العجيب غير المنتظر ان نوكس هذا كان فيه مزح وفكاهة. وكان بصيراً بمواضع الضحك في كل شيء. وصفحة تاريخه مخللة من سطور الفكاهة بما يلين من قسوة جدها ويحلي من مرارة وقارها . فلما تشاجر اثنان من القسوس بباب كنيسة « جلاسجو » على الاولية في الدخول من ذا يتقدم صاحبه واشتد الخصام بينهما وعلا الضجيج وتخابطا بعصويهما كان لنوكس في هذا المنظر مضحك اى مضحك! ضحك فيه مع التهكم والازدراء والمرارة شيء من الرحمة والرثاء والعطف . — لا قهقهة وانما ابتسامة تملأ العينين اشراقاً . ورجل رقيق الفؤاد . كثير الوداد . محب لبني آدم . اخ للقوى واخ للضعيف . صاحب للوضيع صاحب للشريف. وكان يتناول الكاس في حان الخمار بمدينة ادنبرج — دليل والله على رقة طبعه ولطف شمائله . وانه لم يك كما يزعم الناس بالشرس النكد الجعد الاخلاق الجهم الطلعة المكفهر الجبين المتعصب الصخّاب . كلا انه كان من اثبت الناس امراً وأرسخهم حالا . حازم بصير جلد صبور . طويل الاغضاء عن الامر الذي لا يفسد عليه امره فان عرضت مفسدات الشرف والدين قام لها على قدم. فهو كما قيل

صفوح اذا ما الذنب لم يعد حدّه الى الوتر تباع قفا الوتر ارقم .

وكما قيل

له سورة مُكتَنّة فى سكينة كما اكتن فى الغمد الجراز المهند .

لقد جاهد هذا البطل فى الله حق جهاده وركب من عيشته متن صعبة عوصاء ينافح الامراء . ويكافح الزعماء . بعزم لا تفل من حده الخطوب النوازل . وجنان ثابت على الهزاهز والزلازل .

ترى ساكن الاوصال باسط وجهه يريك الهوينا والامور تطير

كابد والله من حياته هول حروب ضُرُس . ووقائع حُمُس . ولكنه خرج منها كالصارم العضب يجول فى صفحتيه رونق الظفر . وفرند الفوز والنصر . وان كان بمضربيه فلول وثلم . وما زال الامل حليفه حتى دخل معه قبره فلما جاءته سكرة الموت واعتقل لسانه . سألوه « هل عندك أمل؟ » فرفع أصبعه يشير بها نحو السماء ثم فاض . له المجد والشرف وسقى عهده الغمام !

كلمة فى الختام عن مذهب نوكس — كان مذهبه سيادة الكنيسة على الحكومة ورئاسة القسوس على الملوك . أو بعبارة أخرى حاول ان يجعل على اسكوتلاندة حكومة دينية . وهذه في نظر الناس جريمته . وحقا لقد حاول ان يسير الناس جميعاً على كتاب الله ملوكا وسوقة وان يعلموا ان هذا قانونهم الذي ليس فوقه قانون . وشدّ ما ساءه اغتصاب جياع الاعيان امتعة الكنيسة . وقد جعل يقول ان هذه ليست ملكا مدنياً وانما ملك دينى . وحقها ان توقف على منفعة الكنيسة — على التعليم والمدارس والعبادة . فاجابه الوصي « موران » مستهزئا « هذه أحلام تقية » ذلك مذهب

« نوكس » الذى سعى فى تحقيقه . وانه وان يك اخفق فى بلوغ ذلك ولكنه لم يخفق فى احياء الدين وبعث الامة من طول رقادها مبعثاً كان أصل رقيها ونهضتها . ومجدها وعظمتها . وكيف ينعي الناس عليه مذهبه — كيف ينكرون منه محاولته ان يجعل الحكومة لله وتلك ما لا نزال نحاول ونرجو ! وما جاءت الرسل والقسوس الا لذلك . وقد أرادها « هلدبراند » وحاولها « كرومويل » وبلغها « محمد » أو لم تزل أمنية كل غيور مخلص وكل ولى تقى . وكل رسول نبي ! ولا يسعنا الا شكر ذاك القسيس البطل الذى حاول جهده تحقيق هذه الامنية . وأفنى فى طلبها أيامه بين الكدح والجد . والممارضة والرد . والنصب والسهر . والحبس والاسر

المحاضرة الخامسة

﴿ البطل في صورة كاتب ﴾

(جونسون . روسو . بارنز)

الآلهة والانبياء والشعراء والقسوس هى صور بطلية تتعلق بالازمان الماضية . وتظهر فى العصور الخالية . وقد أصبح ظهور بعضها فى العالم ضربا من المحال . فاما البطل الكاتب الذى سنتكلم عنه الآن فانه من نتائج هذه الاعصر الحديثة وسيدوم ما دامت تلك الصناعة العجيبة — الكتابة — وهاتيك الحرفة الحديثة — الطباعة — وهذا الصنف من الابطال يعد احدى نوادر الدهر .

اقول انه صنف جديد من البطولة لم يكد يتم له فى الوجود مائة عام . ولم يك قبلها رجل كبير ليعيش ويرتزق بهذا الاسلوب العجيب — ينفث وحى ضميره فى صفحات الكتب ويطيرها في انحاء الارض بأجنحة الاوراق فينال معاشا ومنزلة بما يسخو له به أهل هذا العالم جزاء عمله ذلك . وما زالت السلع والبضائع تباع ولن تزال ولكن سلعة الحكمة والفلسفة ووحي ضمائر العظماء لم تعرض قبل ذلك فى الاسواق هذا العرض المبين . ويالله من منظر عجب — منظر الكاتب فى اسماله البالية وحجرته الخاوية يسوس من وراء قبره بعد مماته من أمم العالم وأجيال الارض من ضنوا عليه أثناء حياته

بالقوت الضروري . بلى عجب وربكم وأى عجب ! ولم أرَ في ضروب البطولة وصنوف العظمة ماهو أدهش من ذلك

ووا أسفاه ان البطل ما برح من قديم الازل يلبس للناس ازياء شتى وأشكالا مستغربة . وما برحت الدنيا تحار في كنهه لغرابة منظره فلا تدرى ماذا تصنع به ! ونحن ننكر من القدماء أن يحملهم فرط الاعجاب بالبطل على أن يعدوه الها أو نبيا . وأولى بالانكار أن يرسل الله لخلقه بطلا مثل جونسون أو روسو او بارنز فتقتحمهم عيون الناس ولا يرونهم الا عجزة ومكاسيل لا فضل لهم الا بضع كلمات اكثر ما فيها انها ملهاة القوم ومدفعة لآناء السآم والملل ينبذ اليه في ثمنها من الدراهم مقدار مسكة الرمق . اليس هذا اولى بالانكار والنقمة ؟ ومنذ كان الفكر هو سائس المادة وجب علينا ان نجعل البطل الكاتب امامنا وقائدنا وان لا نقدم عليه مخلوقا مهما عظم . فهو روح العالم في اى صورة برز واى زي لبس . وما يقوله كان حتما على العالم تعلمه واعتقاده والسير على موجبه . وهيئة استقبال الدنيا اياه ومعاملتها له هي عنوان رفعتها أو ضعتها — دليل سموها او انحطاطها — مقياس قيمتها وفضلها . ونظرتنا في سيرته نظرة في لباب حياة تلك العصور التي هو ثمرتها والتي نعيش فيها نحن

والكاتب صنفان جيد ورديء شأن كل شيء في هذا الوجود . فاذا دلّ بلفظة بطل على الجودة فوظيفة الكاتب البطل بيننا وظيفة كأشرف ما يكون واعلى . فهو ينفث لنا ما اودع الله جوفه من وحيه — وهذا اكثر ما يستطيع امرؤ ان يفعله . وهو قبضة من طينة الحق وحياته قطعة من فؤاد الطبيعة الابدى . وكذلك حياة كل امرئ . ولكن الضعاف الا كثرين

لا يعلمون عن انفسهم ذلك ولا يخلصون لتلك الحقيقة . والاقوياء الاقلون اقوياء ابطال مستمرون لان هذه الحقيقة لا تبرح نصب اعينهم . والكاتب البطل مرسل الى العالم ليفهمهم ذلك حسبما يستطيع . وهي عين الوظيفة التي كان القدماء يسمون صاحبها الها أو نبياً أو قسيساً . وهي التي ما ارسل بطل الى العالم الا لكي يؤديها

وقد القى الفيلسوف الالمانى « فيشتي » منذ اربعين عاما سلسلة خطب فى موضوع « طبيعة الرجل الكاتب » فقال مطابقة لمذهب الفلسفة الروحانية التى كان هو أحد اساتذتها : ان جميع ما نبصر من الاشياء ولاسيما نحن وسائر الآدميين انما هي اثواب أو ظواهر حسية يكمن وراءها ويستتر تحتها « معنى الدنيا المقدس » وتلك هي الحقيقة المتوارية بحجب المظاهر . واغلب الناس فى عمى عن هذا المعنى وانما يعيشون بين الظواهر والقشور والماديات غير خاطر ببالهم ان تحت ذلك شيئاً مقدساً . ولكن الكاتب مبعوث من قبل الله ليرى ذلك لنفسه ثم يريناه . هذا كلام فيشتي ولا حاجة بنا الى معارضته . وانما هو اسلوبه فى بيان ما انا باذل الجهد عبثا فى بيانه . وتسمية ما لا استطيع ان اسميه وليس له حتى اللحظة اسم — اعني الحقيقة الالهية التى كلها رونق وعجب وروعة والكامنة فى كيان كل امرىء وكل شيء — وجود الاله الذي خلق كل امرىء وكل شيء . وقد علّم محمد هذا الدرس باسلوبه . ولقّاه اودين باسلوبه . وهو الدرس الذى ما زال كل ذى قلب حيّ يلقن الناس بهذه الطريقة أو تلك .

ولذلك يسمى « فيشتي » الكاتب نبياً أو قسيساً لا يزال يجلو لابصار العالم المعانى المقدسة . والكتّاب كنيسة مستمرة تعلم الناس ان الله

موجود . وان جميع الظواهر وكل ما نراه فى الكون انما هي ثوب « لمعني الدنيا المقدس » — ثوب « للسر الكامن تحت الظواهر » . فما من كاتب صادق الا وفيه سر الهي سواء اعترف بذلك الناس ام لم يعترفوا . فهو سراج يستضاء به وقسيس ينصح ويعظ . ويرشد الخلق ويهديهم على طريقهم المظلم . ومسلكهم المبهم . فى مهامى الوقت وقفار الدهر كأنه عمود من النور . ويشدد فيشتي جداً فى التمييز بين الكاتب الصادق الذى نسميه هنا الكاتب البطل وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الابطال . فمن كان من الكتاب قد اشتمل ذلك « المعنى المقدس » على جميع نفسه أو اشتمل على ناحية منها ثم لم يحاول ان يدخل البقية فى طي ذلك المعنى فهو دعي وافاك ومزور بل هو لا شيء مهما اكتسي من رونق الابهة وفخامة الجاه والمنزلة . ومثل هذا غير حقيق ان ينعم بين الناس بالسعادة ويفوز بالهناء ! هذا رأى فيشتى فى الكاتب وهو في اسلوبه عين ما نرمى اليه نحن فى اسلوبنا .

ومن هذه الوجهة ارى أن اكبر الكتاب أثناء القرن السالف هو الالمانى الكبير « جيتا » فقد قدر الله لذلك الرجل ان يشتمل عليه « المعني المقدس » ويوهب البصر النافذ الى اعماق السر المقدس . ولقد تبدو لنا الدنيا من خلال مؤلفاته عليها جلال الله ورونق القدس تشهد انها من صنع الخالق وانها هيكل الله . يحفها نور لين سماوي . ولست ارى هذه إلا نبوّة في عصور ساد فيها الكفر والالحاد وعملا من اجل اعمال تلك العصور وان كان من اسكنها واسكتها . ولولا علل عوائق لكان مثالنا على الكاتب البطل هو « جيتا » هذا . وما كنت الى شيء اشوق مني الى الخوض فى حديث بطولته . وموضوع عظمته . لانى اراه بطلا صادقاً . وعظيما جليلا .

بطلاً وعظيماً فيما قال وفعل وربما كان اشد بطولة وعظمة فيما لم يقل ولم يفعل وهو في نظري آية من آيات الله — وبطل عظيم قديم اشبه في كلامه وصمته بنبي غابر في ثياب اديب حديث يلبس اجدّ ازياء التهذيب والمدنية. وما رأينا منذ مائة وخمسين عاماً منظراً كهذا .

ولكن ضلة الجيل الحاضر في امر هذا البطل وجهلهم بحقيقته . وسوء قدرهم لقيمته . يجعل التعرض لتقديسه واجلاله ضرباً من العبث الباطل . ومهما اقل فيه فسيبقى لعظمكم لغزاً من الالغاز . ولن تدركوا من امره الا خلاف الواقع . وانما امره دفينة سيثيرها المستقبل . وحسب الساعة الحاضرة ان توقف على ثلاثة من اكبر ابطال القرن السالف : جونسون وبارنز وروسو . ثلاثة كانوا من الفقر وسوء الحال بعكس ما فيه « جيتا » اليوم من الرفه والنعمة . هؤلاء لم يظفروا ظفر جيتا ولكنهم حاربوا فصرعوا . ولم يكونوا من جالبي الضياء وانما من طالبيه . ولقد كانوا من عيشهم في ابرح برح . وآلم قرح . كانما يعانون من ايامهم سلاسل واغلالا . ويحملون من فوادح دهرهم هضابا وجبالا . فلا بدع ان تعذر عليهم ان يبرزوا من كوامن افكارهم كل خفية . او يستقصوا الغاية بكشف الغامض من ذلك (المعنى المقدس) والذي اعرضه الآن عليكم من هؤلاء الابطال هو قبورهم فانها الكثبان الاثرية التي يثوى تحتها ثلاثة من اضخم جبابرة القلم . مشهد محزن ولكنه لذيذ ممتع . فقفوا بنا على تلك القبور ملياً .

كثرت الشكوى الآن مما يسمونه اختلال نظام المجتمع وكيف ان كثيراً من العوامل الاجتماعية تسيء اداء وظائفها . وكيف ان كثيراً من القوى العمرانية الشديدة تكدح في غير مكدح وتكد في غير مكد . وتلك

شكوى لا شك في صحتها . ولكن من نظر في جهة الكتاب والكتب وجدها اشد الجميع اختلالا وفساداً بل أصل كل اختلال وفساد — وجدها كأنها قلب يصدر عنه ويرجع اليه كل اختلاط وتشوش في العالم ! ولست أرى حالا انكر من سوء مايجزي به الكتاب على جليل ما يسدونه الى الملأ . ولو غمسنا القلم في هذا المبحث غمسناه في بحر لا قرار له ولكن لا بد لنا ان نمس شاطئ الموضوع اذ كنا غير خائضين عبابه اتماماً للفائدة.وأسوأ ما كان من أمر هؤلاء الثلاثة الكتاب انهم وجدوا عملهم في هذه الحياة ومركزهم ضرباً من الفوضى . والسائح اذا صادف طريقا مذللا ومنهجاً واضحاً مضى في سننه وأمعن في قصده . فاذا اصاب عقبة لا تقتحم وسداً لا يفتتح فجعل يطعن فيه يبغي نفاذاً فأحر به ان يظل من عمله هذا في مصاب جال وأوشك ان تمر به فريسة بين مخالب الهلاك !

أدرك آباؤنا ماهنالك من الفائدة العظمى في خطاب الرجل للرجال وعظة المرء لاخوانه فأسسوا الكنائس والمساجد لذلك الغرض.فما من بقعة في العالم المتمدين الا بها منبر يستطيع منه الرجل ان يعظ باللسان اخوانه في الله . وكانوا يرون ذلك من أهم الامور وانه لاخير في الحياة من دونه . ولله ما كان أتقاه عملا وأجمله مشهدا ! فاما الآن وقد ظهرت صناعة الكتابة والطباعة فقد طرأ تغيير كلي على ذلك الامر.أو ليس الكاتب الذي يضع كتابا خطيباً ليست خطبته قاصرة على هذه البلدة أو تلك رهينة بذلك اليوم أو ذاك ولكنها خطبة لكل انسان في كل زمان ومكان ؟ وحقا انه من يخطىء في عمله فأوجب الواجبات على كاتب الكتاب ان يتوخى الصواب والسداد والخطب العظيم والطامة الكبرى ان الناس لا يحفلون البتة أصاب

كتّاب الكتب أم اخطأوا — وجد كتاب الكتب أم فقدوا . نعم قد يكون للكاتب شيء من الاهمية عند طابع الكتب الذى يرجو ان يربح مبلغاً من وراء مؤلفه . فاما عند خلافه فلا . كلا ولا يعبأ الناس من أين جاء ذلك الكاتب وأين يذهب وكيف وصل وكيف يمكن ان تسهل له طرق التقدم والاستمرار . وانما يراه المجتمع كأنما هو احدى الشواذ فيتركونه يهيم كالذى لا يدرى أين هو

انا في أمة تداركها الا ه غريب كصالح في ثمود

وصناعة الكتابة لا شك اكثر الفنون اعجازا وأعجب ما ابدع الانسان و « حروف » او دين كانت اول عمل اتاه اول ابطال العالم . وليست الكتب في هذه الاوقات الا من قبيل (حروف) اودين والكتب حرسكم الله مستودع حكمة الغابرين وفيها تجلى لنا ارواح العصور الماضية . والحقب الخالية . بعد ان فنيت اجساما . وأصبحت اوهاما وأحلاما . ولا ننكر ان الجيش اللهام . والاسطول الضخم الجسام . والمرافيء والثغور . والمدائن والقصور . اشياء رائعة جليلة . ولكن ماذا مآلها وأين مصيرها ؟ . واذا سألت اليوم عن اغاممنون وبيركليس ويونانهم رأيتها عهوداً تبكى وتذكر بعد ان كانت مشاهد تروع وتسر . ولم تنل عينك منها الا دمنا عافيات . وطلولا دارسات . ورسوما دائرات . ومعاهد خربات . كأنها صحف باليات تنشرها ايدى السحب السواكب . وتطويها اكف الرياح الغرائب . اذا نقشتها اقلام الهاطلات . مسحتها انامل السافيات

لأيدى البلى فيها سطور مبينة عبارتها ان كل بيت سيهجر .

ولكن ماذا كان من أمر مؤلفات اليونان ؟ هي اليوم عينها بالامس .

لم يغيرها الزمان . ولم ينكرها الحدثان . ولا ابلتها العصور . ولا اخلقتها الدهور . هـذا وقد خـلّد الله اليونان بين اوراقها وصحفها . وأحياها فى سطورها وحروفها . فكأنها لم تمت وانما طوتها من تلك الكتب صناديق وخزائن . وأصبحت في تلك الاسفار ودائع ودفائن . والكتاب رعاكم الله فؤاد العالم يعي كل ماطرأ عليه من حوادث وآثار . وخواطر وافكار . ووجدانات ومشاعر وفعال ومآثر . ومشاهد ومناظر . فنعم تراث الاوائل للاواخر . وتحفة الغابر للحاضر !

او مازالت الكتب تأتى بالمعجزات كالتي زعموا ان « حروف اودين » كانت تأتيها ؟ بلى حسبها ان فيها للناس دوافع ومحركات . وبواعث ومحرضات . ولن تعدم احقر قصة واسخفها اثرها الحميد فى قارئاتها ذوات الخرق والحمق من بنات الريف تفيدها بعد الزواج فى ترتيب بيتها وتنظيمه . ثم انظروا ما الذى شاد كنيسة سانت بول . هو كتاب التوراة الذى هو كلمة الرجل موسي الخارجي الطريد راعي الغنم فى صحارى الطور ! نعم لقد اقامت الكتابة فى العالم دولة المعجزات . وضمت الماضي والحاضر بأوثق العقد واوكد الصلات . ولاصقت بين الشرق والغرب . وصاقبت بين القطب والقطب . وجمعت بين طنجة وبكين فى قرن . وألفت بين نوح ونابليون في زمن . وغيّرت للناس وجوه الامور وصور الاعمال . وجدّدت شانا بعد شان . وحالا بعد حال .

فانظروا مثلا الى التعليم وما احدثت فيه الكتب من الاثر الجميل . وحسن التغيير والتبديل . لقد كانت الجامعات قبل الكتب هي الطريقة الوحيدة لاقتناء العلوم واكتساب المعارف . نشأت الجامعة حين لا كتب تذيع

وتنتشر وحين كان الرجل يريد الكتاب فيبذر الضياع والعقد . وكان ذو العلم اذا اراد ان يعطي من علمه لم يجد بدا من جمع الطلاب حوله فيلقيهم العلم فماً لفم فاذا كنت في ذلك الوقت فاحببت ان تعرف من العلم مايعرفه « ابلادرد » لم يكن امامك الا ان تذهب الى « ابلادرد » . حتى لقد بلغ قصاد ابلارد وحجاجه نحوا من ثلاثين الفاً يحتشدون حوله ليستمعوا فلسفته واذ وجد بهذا المكان هذا العديد المجمهر من طلاب العلم رآها العلماء الآخرون فرصة يحسن اغتنامها فمن وجد في نفسه الكفاءة لتدريس علم رأى ذلك المكان احق الامكنة بان يذهب اليه فيعرض في سوقه سلعة علمه وهكذا كلما زاد فيه عدد المدرسين زاد عليه الاقبال من الطلاب والمعلمين معا . وبعد ذلك اصبح المكان لايحتاج الا الى التفات السلطان اليه ليجمع تلك المدارس المتعددة في مدرسة واحدة ثم يمنحها المباني والميز والمنح ويسميها جامعة . وهذا هو في نظري منشأ الجامعات .

ولكن انتشار الكتب وسهولة اجتلابها قلب الامر قدماً لرأس . وذروة لأس . ومتى أوجدت الطباعة نسخت أمر الجامعات وعلوتها علوا مبيناً ؛ اذ لا يصبح المعلم في حاجة الى ان يجمع الطلاب حوله ليسمعوا منه وما هو الا ان تطبع الكتاب حتى يتناوله من بأقاصي الأرض غنيمة بلا عناء . ويرتشفه شربة بلارشاء — هنيئاً مريئاًوهومتكئ على اريكته. مرتفق فوق وسادته . ليقلب فيه البصر . وينعم في معانيه النظر ؛ ولا شك ان في الخطبة لمزية خاصة . حتى لقد يحسن احياناً بكتاب الكتب ان يخطبوا طلابهم أيضاً . وحسبكم ما نحن فيه الآن ؛ وأرى انه ما دام للمرء لسان فسيبقى للخطابة فضل لا ينكر . وقيمة لا تحقر . ومنطقة للكلام . خلاف منطقة

الاقلام . ولكن الحد الفاصل بين المنطقتين لم يعين حتى اللحظة . ولم توجد بعد تلك الجامعة التي يفرض معها نفوذ قوة الكتب وتأثير سلطانها . ولا عرف بعد كيف تكون تلك الجامعة وما معالمها وحدودها . فاذا كنا مفكرين فى ذلك فمثل هذه الجامعة لن تكون الا كأقدم جامعة أعنى ان يكون من شأنها تعليم القراءة — القراءة فى مختلف اللغات والعلوم — أى تعليم مبادئ كل صنف من أصناف الكتب . ولكن مأخذ العلوم ومقتبسها هو الكتب أعينها ! ومبلغنا فى العلم متوقف بعد على ما نقرأ بأنفسنا مهما صنع لنا المعلمون . وأجاد المدرسون . نخرج من ذلك على ان خير جامعة فى هذه الاوقات هي مجموعة كتب.

وأما من جهة الكنيسة فالتغيير الحادث عليها من نشر الكتب تغيير تام . والكنيسة هى جماعة القسوس والأنبياء ذوى الهداية والارشاد من يهدون بعظاتهم عباد الله الصراط المستقيم . وقد كان اللسان يوم لا كتابة ولا طباعة هو الاداة الوحيدة لبث النور والهدى . فأما وقد ذاعت الكتب فقد أصبح كل كاتب يلين من قلوب الناس ويأخذ بزمامها نحو الحق فذلك بطريق امته وامامها . وطالما قلت ان كتاب الجرائد والمجلات والرسائل والشعر والكتب هم فى الحقيقة الكنيسة العاملة الفعالة فى الامم الحاضرة . وليست الكتب خطباً لنا فقط بل هي أيضاً ضرب من ضروب العبادة وبعضها تكون قراءته أحسن صلاة لله وتسبيح . أوليس المعنى الشريف يزفه اليك البليغ فى رونق اللفظ المصقول يختال من صفاء السبك واشراق الديباجة في أكرم حلة وابهج خلعة فيمتزج بأجزاء النفس ويجرى مع الروح حتى

يظل سامعه لدنا مفاصله كأنما فترت اوصاله الكاس

يفعل بالنفس ما تفعله العبادة ، ولعل الـكثيرين لا يعرفون في هذه الاوقات الفاسدة من اساليب العبادة الا هذا الاسلوب . والشاعر الذى يريك من جمال الزهرة ما كان قبل غائباً عنك أليس كانه اطلعك على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته وشعبة من ينبوع الجمال الالهي الشامل وعلى سطر خطه القلم العلوى فى صحيفة الـكون فبدا مبيناً ناصعاً . جلياً ساطعاً . وكانما غني لنا نشيداً قدسياً فصدحنا معاً واذا كان هذا شأن من يصف زهرة الروض فـكيف الذي يتغنى لنا بمكارم اولى العزم ومآثرهم . ومناقب ذوي الفضل ومفاخرهم . مثل هذا كانما يمس اكبادنا بجذوة من مجامر المحراب . ولعلها اشرف طرق العبادة .

وما الادب الا كشف وجلاء لاسرار بدائع الله او ما يسمونه «السرّ الجلىّ» وقد عرف الادب «فيشتى» بأنه البيان المستمر لما يكمن من اسرار الله فى الاشياء الارضية العادية . فان اسرار الله ما برحت كائنة في كل شيء وما برحت تصادف من هذا الـكاتب وذاك من يبرزها فى هذه الصورة او تلك في مقادير مختلفة من الوضوح ودرجات متفاضلة من البيان كل حسب ما وهبه الله من الفضل . هذا هو الذى ما زال ذوو المواهب اللدنية من الشعراء والـكتاب والخطباء والمتكلمين يصنعونه عمداً اوعفواً . حتى لقد تجد ان شعر بيرون لا يخلو من تلك الاسرار برغم ما قد امتلأ به من زوابع الحنق وصواعق القذف والانتقام ومعاسف الغلّ والحقد والضغينة على بني البشر . وهي (الاسرار) ايضاً كائنة فى متواضع شعر بارنز ذلك الفلاح الذى كان يختلس القوافى من خلال حركات الفاس والمحراث — صاحب القصائد التي كأنها اغاريد القنبرة صاعدة من اديم التراب . الى اعلى ذوائب السحاب . والحقيقة

ان كل غناء صادق هو عبادة كما ان كل شغل صادق هو ايضاً عبادة . وما الغناء الصادق لو نظرت الا صفة للشغل الجيد الحر وتمثيل موسيقى مطرب ومن انعم النظر راى هنالك قطعاً جمة من الاناشيد الكنيسية . والصلوات الدينية . طافية على مياه ذلك البحر الخضم الذى يسمونه بحر الادب فالكتب ايضاً كنيستنا .

ننتقل الآن الى تأثير الادب في الحكومة . لقد كان البرلمان قوة عظمي تبرم أمور الرعية وتنقض . وتعقد شؤون الامة وتحل . وتصرف اعنة البلاد وتدبر . وتقطع أحكامها وتقرر . بعد طول الروية والنظر وادمان التأمل والفكر . واطالة المناقشة والمحاورة وادامة المجادلة والمناظرة ولكن انظروا الآن أما ترون ان عمل البرلمان هذا يعمل الآن خارج البرلمان في طول البلاد وعرضها بواسطة المطبوعات من جرائد ومجلات . ورسائل ومؤلفات . وان كان البرلمان لما يزل باقياً . ولقد قال بيرك ان البرلمان ثلاثة أركان ولكن بمجلس مخبرى الجرائد ركناً رابعاً أهم من تلك الاركان الثلاثة ولم تك كلمته هذه بالمجاز والاستعارة ولكنها عين الحقيقة . وقد أصبحت خطارتها اليوم أجسم منها يوم قالها بيرك . فالادب هو برلماننا أيضا . والديموقراطية ايدكم الله رهن الطباعة التي هى من نتائج الكتابة . وماهو الا ان تخترع الكتابة حتي تتبع الديموقراطية . فالكتابة تنتج الطباعة — الطباعة العامة اليومية كما نرى اليوم فيصبح كل ذي لسان بوقا يسمع الشعب وقوة وفرعا من أفرع الحكومة راجح الميزان عند وضع الشرائع والقوانين . وجميع تصاريف السلطة . ولا ينظر اليه من أى طبقة هو وماذا يملك وماذا يلبس . وانما الامر الجوهرى هو أصاحب لسان . واخو بيان . فيصغي اليه

و يقبل عليه . هذا لاغيره الامر الاساسي فالامة محكومة بكل ذي لسان من ابنائها . وهناك الدموقراطية ولا مشاحة . ضف الى ذلك انه مامن قوة موجودة في الكون الا وسيريكها الدهر يوما مافعالة معترفا بسلطانها . فهي لاتزال تعمل في خفاء . وتكد تحت غطاء . تدافع العوائق والعوائق تدافعها وتصارع الموانع والموانع تصارعها . حتى يجلوها صبح اليقين من غياهب الشبهات . وتطلقها يد النصر من سلاسل العقبات . فتذهب في شعاب الحق كل مذهب . وتضرب في مناحي الاصلاح كل مضرب . ولا تستريح الدموقراطية حتى تبرز للعيان . و يصطلي شمسها كل انسان .

او ما يزال في كل شيء دليل على ان خير ما في طاقة امرىء ان يصنع واعجب الاشياء طرا واثقلها في النفوس وزنا . واخفها على الاسماع حسنا . والطفها في النفوس مكانا . واقلها في العقول رجحانا . هو كتاب . لله تلك الرقع الواهية المرقشة المتون بلمع المداد الاسود اى جليل من الامر لم تأت واى شيء لم تصنع ولا تصنع ولن تصنع! ولا غرو فهل كانت تلك الرقع مهما حقر ظاهرها الا اشرف نتائج الذهن البشرى ؟ هي فكر الانسان — الفضيلة الحرة التى بها يصنع كل شيء . وجميع ما يفعل الانسان ويحدث انما هو ثوب فكرة . وجسم روحه رأى من آرائه فمدينة لندن هذه بجميع ما بها من منازل ودور . وحلل وقصور . وعدد وآلات . وكنائس و بيعات . وحركة وصخب . وجلبة ولجب — ما كل هذه الا فكرة او مليون فكرة الّف شملها نظام فصارت واحدة . ماهي الا روح فكرة جسيمة قد تجسدت في الطوب والحديد والخشب والتراب والدخان والقصور والبرلمانات والمركبات والمصانع وسائر ما تنظر من الاشياء وما من طوبة صنعت الا

وقد اعمل بعض الرجال فكرته كيف يصنعها وما نسميه قطعا من الورق عليها لمع من الحبر انما هو اطيب مظهر للفكر البشرى . فلا عجب ان يكون انشطها واكرمها

وقد طالما اقر الناس بفضل الكتّاب وخطارة شأنهم فى العصور الحديثة واستيلائهم على الكنيسة والبرلمان والجامعات وغيرها ولكنه اقرار لم يشفعه عون ولا مساعدة. وعسي ان يكون قد آن للعواطف ان تخلي مكانها للامدادت المادية . واذ كنا نقر ونعترف بأن للكتاب على المجتمع النعم الغراء والمنن البيضاء . وانهم يجدون به فى سبيل التقدم ويسمون به فى مراقي المدنية فما بالنا اذن نتركهم فى اسوأ حال من نكد الحياة وجحد العيش . من امرهم في حيرة عشواء وضلالة عمياء . ويقيني ان كل شيء فيه فضيلة قوة خفية فسيحسر يوماً ما لثامه ويميط قناعه ويسفر لنا ناصع الصورة . واضح الغرة . بين الاشارة جهير الصوت . فاما ان يلبس اناس زيّ الادب والكتابة ويقبضون اجرها . ويتضور من الجوع الكاتب الحقيقي صاحب الخير والمنفعة فما ذلك بعدل وانما جور وعسف . ولكن ردّ هذه المظلمة لن يكون وآ اسفاه . الا بعد الجهد الجهيد . والزمن المديد ؛ وكم دون ذلك من مشكلات ومعضلات الله وحده المعين على حلّها .

فاذا سألتموني ماهو احسن نظام تجعل عليه حالة الكتاب فى العصور الحديثة وماهي خير طريقة لتنظيم شؤونهم واستمرارها تكون على تمام مطابقة لمركزهم ولمركز المجتمع : استقلت من الاجابة على هذا السؤال لقصور مبلغ عقلي عنه . وانها لمعضلة لو تتابعت عليها عدة عقول راجحة لما استطاعت لها حلا تقريبياً فكيف بعقل واحد ؟ نعم ولا احب ان احدا يقدر ان يقول

ما هو احسن نظام لامر الكتاب . فاما اذا سأل سائل ما هو شر نظام واخبثه قلت هذا الذى هو كائن اليوم — هـذا الخلط السائد والفوضي المستحكمة . وما ابعد ماييننا وبين نظام صالح طيب .

وثمت شيء لا يفوتني ذكره وهو ان هنالك غير امر العطايا المالية أمرا اهم واعظم الا وهو اجلال الكتاب وتقديسهم وهو امر كان معدوما فى القرن الثامن عشر — قرن الجحود والكفر . فاماهبة العطايا وترتيب الرسوم فهى على ضرورتها في بعض الاحيان قلما تقربنا وحدها من النظام المطلوب لحالة الكتاب . وانى لاحد الذين اسأمهم كثرة مايلغط به من سلطان المال وفضله على كل شيء . بل انى احـد القائلين بانه لاضير على الحر ان يكون فقيرا . وانه يجب ان يكون من الفقر محك لاذهان الكتاب ومعيار لقيمهم واقدارهم . وقد اوجـدت الكنيسة النصرانية فرق الشحاذين من رجال ابرار قدرت لهم الشحذ والتسول ورأت الكنيسة ان ذلك من اسباب نشر روح الدين وتأييده . وهل اسست النصرانيـة نفسها الا على الفقر والحزن والاضطهاد والصلب وسائر أصناف الغم والمهانة ؟ ولنا ان نقول ان من لم يعرف هذه الاشياء فيتعلم منها درسها الذى لا تقدر قيمته فقد فاته من فرص التعليم أثمنها . ومن أسباب التقويم والتثقيف أمتنها . ومن فوائد التربية والتهذيب أكرمها وأحسنها . ولم تكن الشحاذة والحفاء ولبس المسوح وشد الحبال فى الأوساط بالشيء الجميل او الجليل فى اعين النـاس حتى جمله وشرفه مزاولة الكرام له . واتيان الجلة الاشراف اياه .

وليس موضوع الشحاذة من اغراض هـذا الكتاب ولكن من ذا الذى لا يقول بأن كاتبا كجونسون لم ينفعه الفقر وتفيده الفاقة ؟ ولقد كان

مثله جديراً أن يعلم ان المال او النجاح كيفما كان لم يكن الغرض الذى يسعى ليدركه. وكان مليا ان يعرف ان فؤاده لم يخل مما قد جبلت عليه سائر القلوب من الكبرياء وحب الذات بجميع شعبه وفروعه. وانه من اوجب الواجب اقتلاع هذه الاغراس اللئيمة من تربة النفس. ثم اذكروا ان بيرون مع غناه وشرف نسبه كان اقل فائدة واصغر مأثرة من بارنز مع فقره وضعة نسبه. وما يدرينا انه اذا وجد فى المستقبل البعيد ذلك النظام المنشود كان الفقر لا يزال ركناً من اهم اركانه وكان الكتاب — ابطالنا الروحانيون — لا يزالون طائفة من الشحاذين متاحا لهم العوز والتكفف حتى يجنوا امافيهما من كرائم الثمرات وينتفعوا بهما انتفاع غيرهم باليسار والغنى؟ ولا انكر ان الطيب الكثير يبلغ بالمال. ولكن ما يبلغ بالفقر أطيب وأكثر. وانما علينا ان نعرف حد المال فنقف عنده ونعلم ان ما زاد على ذلك فضول حقه الرد والرفض.

هذا ولو فرضنا وجود الامدادات المادية والرسوم المالية فأنّى لنا بمعرفة الكاتب الكبير الذى يستحقها؟ انه لا بد قبل ذلك من ان يجوز الامتحان اللائق. وأرى ان الحياة الادبية — تلك التي كلها فوضى يتلاطم موجها ويتصادم لجّها. هي نوع من الامتحان. وما زال هنالك عنصر من الحق فى قولهم ان الجهاد فى سبيل الصعود من وهاد الطبقات السفلى الى ذرى الطبقات العليا هو من الامور التي لا بد من بقائها لما يترتب عليها من استمرار رقىّ العالم. اذ انه ما زال يولد فى الطبقات السفلى من ينبغي ان يكون فى أرفع المنازل وأسمى الطبقات. ولكن كيف ينظم ذلك الجهاد؟ هذه مسألة المسائل فأما ان يترك هذا الجهاد كما هو الآن رهناً بمحاسن الصدف. فكلما أفلح فيه

كاتب من عصابة خاب الباقون . أو نجا واحد من الف هلك فى الطريق بعد التسعمائة تسعة وتسعون . ويترك مثل بارنز يجود بروحه ولا يجود عليه انسان بدرهم ومثل جونسون يزجى الوقت بين الثؤباء والمطواء في حجرته ينطبق عليه قول القائل

نلوم على تبلدها قلوبا   تلاقي من معيشتها جهادا
اذا ما النار لم تطعم وقوداً   فأوشك ان تمر بها رمادا

حتى اذا شرع يكتب راح وهو من دفعة العمل وعجلته مع البخس والوكس كأنه فى مضمار أو كأن يديه يدا عائم يكافح التيار . ويترك مثل روسو على جمر الاعسار والاحتقار يتململ ويقذف بشرر الكلم اللذاع فيؤجج الثورات الفرنسوية ـ هذا وايم الله شر النظام واسوءه . فأما النظام الاحسن فهيهات منه نحن وانى لنا به الآن !

بيد انه لا شك هناك فى ان ذلك النظام آت يحمله المستقبل البعيد فى جوفه جنيناً في رحم الزمان الآجل . وهذا ما اجرأ على ان اتنبأ به لانه لا يكاد الناس يرون فضل الشيء حتي يأخذوا فى تسهيله وتزجيته . وتنظيمه وترقيته . ثم لا يستريحون أو يروه قد بلغ منتهى ما يستطيعون ان يبلغوا به وقد قلت انه ليس فى سلطات الكنيسة والحكومات بانواعها سلطة تستحق ان تقارن بدولة الاقلام . وقد قال الوزير « بيت » وقد سئل ان يكتتب بشيء من المال للشاعر الاكبر بارنز « الادب سيد نفسه يدبر زمامها ويسوسها وليس في حاجة الى الناس » قال المستر « سوذى » نعم هو سيد نفسه يسوسها ويدبر زمامها . وهو أيضاً سيدك يسوسك ويأخذ بخطام انفك اذا أنت لم تلتفت اليه وتعرف له قدره ! »

وما معظم الضرر بواقع على الكتّاب فانهم أفراد وجزء ضئيل جدا من الجسم الكلى . وفى جهدهم ان يجاهدوا ويكابدوا . حتى يظفروا أو يموتوا فيعذروا. ولكنهم المجتمع أن يضع شهبه ومصابيحه في الذرى والغوارب وحيث ترى فتهدي . أم يجعلوها تحت أقدامهم ويبددوا جوهرها الساطع شرراً يستطير فى حيث لا مقتبس ولا متنور ويعرضوا أنفسهم بذلك لما قد عساه يحدث من الحريق . وقد حدث . والنور هـدا كم الله هو رأس المنافع وأصل الحياة وأول حاجات المجتمع وآخرها . وان دنيا يتقدمها النور لجديرة ان تظفر فى حربها مع الدهر وتكون للانسان أحسن دنيا . وعندى ان مرض الفوضي الكتابية هو أصل سائر الامراض فداوه تشف المجتمع من كل داء به وعلة . وقد بدا فى آفاق الادب بفرنسا وبروسيا تباشير نظام نقابلها بالاستبشار والهتاف لانها بشير بأن ما قد حدث فى هذين البلدين خليق ان يحدث في غيرهما .

ان أهمّ ما سمعت عن الصين أمر فيه علينا لبس وابهام ولكنه يحرك فينا أعظم الشوق على لبسه وأشكاله . وهو محاولتهم ان يختاروا ملوكهم من بين كتابهم وادبائهم . وأري انه من الخطل والخبط ان يتكاف أحدنا فهم هذا الامر فضلا عن شرحه وبيانه . وما أحسب الا ان مثل هـذه الامور لن يكون الا عديم النجح غير ان فى مجرد محاولتها فضلا كبيراً ! ويظهر ان فى جميع أنحاء الصين عناية شديدة بالبحث عن أولى الالباب فى كل جيل من الناشئة . ولكل درجة من الطلبة مدرسة فمن أظهر براعة في دنيا المدارس رفع الى أعلي منها درجة وهكذا حتى يفضى الى أشرفها منزلة ومن ثم ينقل الى مراكز الحكومة ومناصبها . وربما قلّد عملا أو ولاية . وتلك هي الطائفة

التى منها يختار الولاة والحكام مع الامل والرجاء فمهم وليس فى غيرهم ظهرت آيات الفضل وأمارات اللب والذكاء. نعم فليجرّب هؤلاء وان كانوا لمّا يزاولوا الحكم والادارة وقد يعجزون عنها ويعيون بها ولكن لهم على كل حال فهم وعقل ـ ذاك الذى لا يستطاع الحكم والادارة الا به . وليس العقل بآلة كما جرت العادة بتشبيهه ولكنه يد يمكنها ان تستعمل كل آلة . فليجرب هؤلاء الفتية ذووا الالباب فانهم أحق الناس بالتجربة . ولا احسب ان هناك شيئاً أسرّ لطلاب الاصلاح ذوي الاخلاص والغيرة من اسناد الرئاسة الى ذوى العقل . لانهم في الحقيقة ذوو العدل والبر والمروءة والرحمة فلدّوهم أموركم تظفروا بكل شيء . دعوا توليتهم تخسروا كل شيء !

ولعلكم ترون مثل هذه المسائل غريباً مما لا يجرى فى محاورات الناس ولا يدور فى مذاكراتهم . وليس العيب فى المسائل وانما فى الجيل والعصر . وانما الواجب ان تطرح هذه المسائل على بساط البحث والمناقشة حتى تنضج فتخرج الى حيز الفعل . ويسلينا بعد انا أينما القينا البصر وجدنا دليلا بيناً وبرهاناً ناطقاً على ان دولة القديم قد زالت . وان طول عمر العادة ليس فى هذا الزمن حجة على وجوب بقائها . وان الاشياء التى كانت قبل اليوم قد بليت وفقدت مزاياها ومعانيها . وان الألوف المؤلفة من الاوربيين قد أصبحوا لا يطيقون الاستمرار على أسلوب المعيشة القديم . واذا عادت الملايين من خلق الله وهم لا يستطيعون احراز المطعم ويظل ثلث الناس لا يطيقون الحصول على أردء أنواع البطاطس مدة ثلاثة ارباع العام فقد آن ولا شك للامور ان تتغير وللاحوال ان تتبدل ! هذا وحسبنا ذلك فى الكلام عن النظام المؤمل لتحسين حالة الكتاب

وان عدم ذلك النظام وان كان من آفات كتابنا الثلاثة فلم يك بعد أشد الآفات . بل كان ثمت آفة هي أصل عدم النظام وأصل كل آفة أخرى . وهى إلحاد القرن الثامن عشر وكفره . فأما خطب عدم النظام فقد كان على مضضه يمكن احتماله . وقد كان الكاتب البطل يطيق الصبر على وعوثة الطريق ووعورته . وعلى وحدة السفر ووحشته . ويثقب بعقله النافذ فى السدود المعترضة والعقبات القائمة لولا ان ذلك العقل قد فلّل من حده تأثير ما كان حوله من الكفر والالحاد . نعم لقد كانت آفته العظمى وطامته الكبرى ماساد فى تلك الازمان من شلل الارواح وموت النفوس . ولم يعدم ذلك الوسط السيء والجو الفاسد أثره الخبيث في قلوب أبطالنا الثلاثة وحسبي ان أقول عن القرن الثامن عشر انه كان عصر الحاد وقد نعته بكل خسيسة ووصفته بكل دنيئة وخبيثة . والكفر وقاكم الله جملة المحن والبلايا وجعبة الداهيات والرزايا . وليس الالحاد هو موت الاذهان فقط بل موت الاخلاق كذلك . وفيه كافة أنواع الكذب وعدم الاخلاص وخمود الارواح كما قلت . ومثل ذلك العصر أبعد العصور من فهم البطولة ومعرفة الابطال . وجوّه سامّ لهم والبطولة روح لا تنتعش الا بنسيم الايمان والتقوى . وكيف وقد كان معنى البطولة قد محي من كل خاطر وبال . وأمسى يراه كل انسان حديث خرافة وضرباً من المحال . وأصبح قد سار به القارظان . وبات فى خبر كان . وطارت به العنقاء . وتبدد فى رياح الكفر تبدد الهباء . وذاب في موج الجحود ذوب الجفاء . أو ذوب السراب المرقوق في أكناف القفرة الملساء . وقام بدل معنى البطولة معانى الشك والاستخفاف والرسوم الميتة والاصطلاحات الجامدة . وأصبح الناس فى عالم لا رعاه الله من عالم

خلو من الروعة والعجب والعظمة ـ عالم خـلا جوه من التقديس فباض فيه الشيطان وافرخ !

وما كان أخبث الافكار اذ ذاك وأخسها وأسفلها اذا قورنت بافكار قدماءالوثنيين المتوحشين لا بافكار الاتقياء دانتي وشاكسبير وملتون ! وكيف وقد كان الوثنيون يشبهون الحياة الانسانية والطبيعية بشجرة جذورها في عالم الموت وفروعها في الجنان وهي فينانة غيداء . وحفة غناء . كثيفة الورق ملتفة الاغصان . غير محصيّة الفنون والالوان . ممدودة الظلال منفسحة الافياء . قد ضربت في جميع الارجاء والانحاء وغصت بها كافة الآفاق والاجواء . فنسي كفار المدنية الحديثة ـ أهل القرن الثامن عشر هذا التشبيه وشبهوا الحياة والكون بمكينة تصل صليل الحديد وترن رنين النحاس يا لله أى فرق بين الشجرة والمكينة ! قارنوا أصلحكم الله بين هاتين . أما أنا فلست بقائل قط ان العالم مكينة ! لست بقائل انها تدور بلولب وعجل وبما تقوله الاقتصاديون من العوامل والمصالح والموانع والموازين والمقاييس . ولكني صائح بملء فمي ان هنالك أسرارا خلاف رنين آلات المصانع وضجيج صراخ البرلمانات . وان العالم على كل حال ليس بمكينة ! أفلا ترون بعد فضل آراء الوثنيين المتوحشين على آراء اولئك الجهلة المتمدنين أصحاب المذهب « المكيني » ١ ولا عجب فقد كان الوثنيون القدماء أمة مخلصة مؤمنة. ولكن هؤلاء الكفرة الاشقياء لا اخلاص لهم ولا صدق ولا مروءة ولا شعور. وكان الحق عندهم هو ما أجمع الناس على استحسانه . لا ينظرون الى لب

---

(١) نسبة الى مكينة يقولها كارليل تهكما بالقوم لانهم كانوا يزعمون ان الكون مكينة .

الشيء وحقيقته بل الى أقوال الناس فيه . فمقدارك من الفضل بعدد ماتحرز من أصوات المادحين . وكانما غاب عنهم ان الاخلاص قد يكون في هـذه الدنيا . وانه لم يصر بعد من المستحيلات . بل جهلوا معنى الاخلاص بالمرة. وكم من ساقط كاذب كان يسائل الناس من صميم قلبه سؤال مندهش غير متصنع « ألا ترونى رجلا مخلصاً ؟ » أما لو حسبت نفسك أيها اللئيم الدقيق رجلا مخلصاً لشد ما اخطأت معنى الاخـلاص. وجملة القول انه كان عصر موت لا حياة اللهم الا حياة كحياة المكينات حركة بلا روح وكان الرجل العامى حينذاك لا ينجيه من الغرق فى عباب ذلك الكفر الا ركوبه خشبة صلبة من حطام المـذهب القديم والدين القويم ـ ملة القرن السالف الذى عفا الدهر رسمه وأقام على طلله ذلك البناء الخبيث الذى كل طوبة فيه قلب كافر ونفس ملحد . وهو بعد لا يسلم من دوافع تيار الكفر وغوالب لجه وغوامر موجه . وهو هالك لا محالة الا ان يكون صارم العزم ماضي الجنان شديد الايد .فاذا كان ذلك لم تك حياته بعد الاحياة يحفها الموت ولم يستحق من الاسماء الا لقب « نصف بطل »

وكل ما وصفت الآن هو ما نسميه الشك وهو عنوان هذه الآفات وأصلها . ولو أرسلنا عنان القلم فى ذلك المضمار لاغتال شأوه ما ليس يحصي من الساعات ولكن فى قليل الكلام غنية عن كثيره . وقد يجتزأ عن طول المقال بقصيره . وان كان ذلك المسمى « الشك » هو الداء العقام وسم الحياة الذى اليه وجهت جيوش الهجاء ونثلت كنائن القذف منذ بدء الخليقة وحرب الشك واليقين هى الحرب التى لا تنتهى ! ولقـد تظلم أهل ذلك القرن الشاك أن نحاسبهم حساب المجرم وانما هي سنـة الدهر وتصرفات الحال واضمحلال

المذاهب القديمة وبلى الاراء العتيقة والاعداد والتجهيز لمذاهب سيجيء بها المستقبل البعيد خير من القديم واسمى. فكيف نأخذ القوم بذلك وانما هو قضاء محتوم. وقدر محموم. وفى الرثاء لهم ورحمتهم مندوحة عن عذلهم وتأنيبهم لو نفقه ولنعرف بعد أن اعدام الصور القديمة والاوضاع العتيقة ليس اعداما للحقائق الخالدة. وان الشك أو الالحاد على شره ونكره ليس بخاتمة وانما هو فاتحة.

ولقد انكرت فى بعض كلماتى مذهب بنتام — مذهب الماديين. وما انكارى له بطعن على مؤسسه واتباعه. واذا كان مذهب الماديين هو الجحود المحض بوجود الله واليقين الصراح بان الكون خال من كل معنى الهي وليس هو الا مادة جامدة تحرك بدوافع غريزية فيه — أقول اذا كان مذهب الماديين هو الكفر المحض فهو عندى خير من مذهب الشك بما انه استقرار وثبات فى ذلك الوضع الذى يحوم حوله أهل شك فى حيرة وتردد. ورأيى ان الاقامة على شر الطرفين. اشرف من الحيرة بين بين. ولأن يرزق المريض الشفاء أو الموت خير له من ان يظل وهو لا حي فيرجي. ولا ميت فيبكي. نعم ورأيى ان هذه المادية المكينية (١) هي اقتراب من المذهب الايمانى الجديد بما انها كانت اطراحا للتصنع والسفسطة. وكانت كقول الانسان لنفسه « لاشك فى أن هذا الكون انما هو مكينة ميتة من الحديد وما الهها الا الجاذبية والا الجوع والشره وحب الذات. فدعنا ننظر كيف يمكننا استخراج اكرم نتائجها بحسن ادارة العجلات ودقة تحريك اللوالب ! » افلا ترون بعد ذلك فى جرأة المادية على التمسك بما تعتقد معنى من توفر القوة

---

(١) المادية اعنى مذهب الماديين على حد قولهم النصرانية أى مذهب النصارى. والمكينية نسبة الى مكينة وقد مر تفسيرها

والرجولة والشجاعة . حتى ليمكنك أن تسميها نوعا من البطولة وان كانت بعد بطولة قلعت عيناها ؛ هي كما قلت الغاية القصوى لذلك الشك الذي أخذ بخناق القرن الثامن عشر — بلغها أصحابها بفضل الصراحة والصرامة والجرأة والشجاعة . ويظهر لى أن جميع الكافرين والمؤمنين باللسان لا بالقلب سيصيرون يوما ما الى المادية لو ساعدتهم جرأة وصدق نية . والمادية كما قلت بطولة عمياء وانما أشبه النوع الانسانى فى المادية بجالوت فى طاحون بيت المقدس يدور مفقوء العينين ثم لا يلبث أن ينشب يديه في أعمدة الطاحون فينهار فوقه البناء خرابا . ولكنه خراب يشفعه الخلاص .

ولكني مع ذلك أقول وأرجو أن اصادف قلوبا واعية ان كل من لم يجد فى ذلك الكون الا آلة جامدة فقد أضل سر الكون شر اضلال . ولست أرى سقطة اشنع من أن يجرد رأى الانسان فى هذه الخليقة من كل معنى الهي . فان ذلك كذب وباطل — كذب فى سويداء لبه وصميم كبده . ومن كانت هذه عقيدته فأحر به أن يخطىء الصواب فى كل شيء وأن لا يقع على سداد قط . فكل نتيجة يستنتجها أفسدتها عليه تلك الغلطة الجوهرية . فهى جديرة أن تعد فى نظرنا شر اضلولة غير مستثنين اضلولة السحر نفسها . وكيف وقد كان السحر يحمل أهله على عبادة شيطان حي . والمادية تحمل أهلها على عبادة شيطانى حديدى ميت . عجبا لهـا أ إذا جردت الكون من آلهة افلا أقل من ان تترك فيه شيطانا ؟ تبا لها لقد عرت ذلك الوجود الرائع من كل آيات الشرف والجلال والروعة والقدس . وتركته جثة بلا روح وهيكلا بلا حياة فانى للانسان بعد ذلك مساعي الابطال . ومآثر ذوى الهمم والمروآت من الرجال . وانما الذى يستفيده من ذلك المذهب الكاذب هو

أن ليس في الحياة الا حب الشهوات والملاذ ومخافة الهم والالم . وأن الحقيقة القصوى فى حياة المرء هي الحرص الممقوت على المدح والمال وسائر الماديات . أو بالاختصار هي الكفر . والكفر عقوبة نفسه .

أما الايمان فهو عندى صنع العقل الراجح ونتيجة الذهن الصحيح . وهو عملية خفية مبهمة لاتوصف . شأن كل عملية حية جوهرية . ولم نعط العقل لنعارض به ونسفسط . ونجادل ونلغط . ولكن لنرى به حقائق الاشياء فنفهم ونوقن . ثم نجعل اليقين أساسا نبني عليه الفعال . ومبدأ نستهل منه فواتح الاعمال . وليس الشك نفسه بجريمة . وكيف وما كان قط للانسان في مسائل المذاهب والعقائد ان يقع على أول مايصادف فيحتضنه ويعتقده . ولا من العقل أن يركب الرجل رأسه فى الرأى وينخرط في الأمر من غير تدبير ولا روية . وانما العاقل من بات يقسم رأيه ويشاور نفسه (١) ولا يمضى الرأى حتى ينضج ويختمر

لا كامضاء جاهل عجر فى يركب الأمر قبل شد الحزام

فاذا فعل ذلك جاء رأيه مشحوذ الغرار محصد الحبل حصيف العقيدة جديرا ان يجلى ليل الخطوب والاتراح . ويخلص بين الماء والراح . ويكشف معالم الحق الصراح . والشك والبحث والتنقيب غريزية فى نفس كل عاقل . وهي جولة العقل فى الأمر الذي يحاول ان يعرف ليعتقده . وتنبت شجرة اليقين كما ينبت غصن الشجرة من مستسر الجذور . ولكنه لما كان الواجب على المرء فى عادى الامور ان يسر شكوكه حتى يؤول بها طول النظر .

---

(١) يقال يشاور نفسه اذا جعل ينظر باًى رأييه يأتمر وذلك اذا اتجه له رأيان لايدرى على أيهما يعتمد

والتقليب اما قبولا او رفضا . فما بالكم باسمى الامور واعلاها التي يعجز عن صفة كنهها اللسان . فاما ان يبرز المرء شكوكه ويحسب ان المجادلة والمناظرة هي اقصى مبلغ قوة العقل واكرم مآثره فهذا مثل ان تقتلع الشجرة فتعكسها وتعرض على الابصار منظر جذورها القبيح بدلما كانوا يترقبونه من ناضر الورق ويانع الثمر وفينان الافرع الخضر — فتريهم منظر الموت والشقاء . موضع الحياة والنماء !

والشك كما قلت ليس في العقل فقط بل هو في النفس والاخلاق ايضا . وهو مرض الروح كافة . وانما يحى المرء باعتقاده شيئا من الاشياء لا بالمناظرة والمجادلة في جملة اشياء . ولن ترى حالا اسوأ من ان يظل الانسان وهو لا يؤمن الا بالشيء الذى يزر عليه جيبه ويلتهمه باحدى حواسه ويهضمه ! وهذه مسقطة ليس دونها وايكم مهبط ولا منحدر . وانما نسمى الاعصر التى يهوى بها الانسان لهذا الدرك امرض العصور واخسها واحقها بالحزن والبكاء وفي مثلها تشل يمين الدهر وتقرح كبد الدنيا ويجمد نبض الحياة ! وفي مثلها تغيض عيون الخير . وتطمس معالم البر . وينقطع العمل الصادق الحر . ويقوم بدله الحذق بالتقليد والمحاكاة وهو عنوان رق الانفس واسر الاذهان . وعمه البصائر والقلوب . وهنالك تنهب اموال الدنيا وتهمل واجباتها وتستلب خيراتها لا تؤدى حقوقها ولا تصلح شؤونها . وكيف وقد ذهبت الابطال . وجاء كل كاذب دجال . والحقيقة انه لم يأت منذ العهد الاخير من دولة الرومان قرن هو احفل بأهل الزور والدجل من ذلك القرن الثامن عشر . اذكروا رعاكم الله رجال ذاك القرن وانظروا ماذا كانوا يتصنعون من حمد الفضائل . وذم الرذائل . وهل رايتم عندهم الا قولا بلا

فعل . ومنطقا بلا عمل . شقشقة هادرة . وهمما فاترة . والسنة خالبة . وقلوبا كاذبة واعينا تندى ـ افئدة كالصخر اواقسى . ونفوسا وسنى . وجعجعة ولا طحنا وكأنى بهم قد حسبوا ان الغش والنفاق والكذب هي من عناصر الحق التي لا يقوم الا بها . ولقد بلغ من ذلك ان الوزير شاتام ذلك المشهور بالجرأة والشجاعة يتصنع المرض ويدخل مجلس البرلمان ملفوف الاعضاء في الخرق كأنه مكسر العظم مجبره ويشيع عن نفسه انه في اشد برحاء الداء وانه لولا حقوق الشرف والمروءة . وحرمة الاوطان لما خرج يحامل قطيع الخطو مبهور الانفاس . حتى اذا انطلقت به اشواط البيان فى ميادين المناظرة . وطارت به اجنحة البلاغة فى آفاق المناقشة والمحاورة . نسى ماقد تكلفه من التمارض فاستل ذراعه من لفافته استلال الصارم الجراز من غمده وجعل يهزه ويطوحه فعل الخطيب المصقع والمنطيق المفوه ! وكذلك ما انفك شاتام هذا منذ قرع أبواب السياسة الى ان قرع عليه الحمام ابواب الحياة وهو يمزج بين الصدق والكذب والحق والباطل . نصفه للشرف ونصفه للخسة وشطره لله وشطره للشيطان . ولعل حجته في ذلك ان الدنيا لاتنال بارضاء الناس والناس معظمهم بله مخاديع فمن أراد الدنيا فليجعل الغش والخديعة ذريعته . فكيف والحال هذه تؤدى حقوق العالم ؟ وماذا ينشأ عن ذلك المذهب العقيم من البؤس والشقاء . والمحن والارزاء .

وكأنى بك قد وقعت على أصل ادواء العالم حينما تسميه عالما كافرا — عالما عديم الاخلاص — عالم كذب وباطل — عالما شيطانيا ! وهذا هو ما أراه منبع كل آفة اجتماعية — منبع الثورات الفرنسوية

وأرى انه لا بد من تغير هذه الحال ولست اتوقع للعالم خيرا و نفعا حتى

يحدث ذلك التغير . وان أملي الوحيد في حسن المآل . وعزائي عما اراه من شقاء العيش وبؤس الحال . هو اني أرى ذلك التغيير قد بدأ وانه مستمر . واني قد اجد من آن الى آخر الرجل المؤمن الذي يعرف ان هذا العالم حق وما هو بأكذوبة ولعبة . وانه هو نفسه حي وليس بميت ولا مفلوج . وان العالم حي يخفق فيه روح الله ويجول في ارجائه رونق الجمال والجلال . وانه كحالته في اوائل الزمن وبكرة الدهر ! وعندي انه متى عرف أحد الناس ذلك عرفه الكثيرون بل عرفه الجميع على مدى الايام . وكيف وانه جلي واضح لو كشف الغبي عن قلبه الغطاء . وضرح عن انسان عينه الاقذاء ! وكأني بذلكم الرجل المؤمن وهو ينظر من دولة الكفر في اعقاب نجم آفل . وبقية ظل زائل . ويستقبل من دولة الايمان تباشير صبح اغر . ونفحات روض عاطر . ولا يرى الرسوم القديمة على متانتها الا خيالات تهم بالزوال واشباحا تشد للرحيل الرحال . وكأني بذلك المؤمن يخاطب دولة الكفر المدبرة بقوله « ما انت بحق وانما خيال زور . فاذهبي وعليك العفاء ! » نعم ستذهب دولة الالحاد بحواشيها من ماديات وكفريات ورسوم كاذبات وما ذلك القرن الثامن عشر بعد الا فلتة من فلتات الدهر لا تجيء حتى تنصرف . واني لاتفاءل للعالم باقبال السعد والنجاح . والخير والفلاح . ودولة الايمان يقوم عمودها . ويخضر عودها . ويضرب رواقها . وترف اوراقها . وعند ذلك يروح العالم بقدح رابح . وسهم راجح

بل مالنا وفوز العالم وربحه؟ لشدما لهج الناس بذكر العالم ونجاحه وخيبته وانما يجب على كل رجل ان يعرف ان له حياة تعنيه شؤونها وتؤده اعباؤها مهما يكن من امر الدنيا وسواء افلح العالم او اخفق . وان عمره انما هو لمحة بين

ابدين . وما للانسان بعدالموت الى هذه الحياةمن كرة.فجدير بنا ان لا نعيش عيشة النوكي الاصفار من كل فضل ومكرمة ولكن عيشة النبلاء العامري النفوس بالحق والهدى . وما لنا والاهتمام بالدنيا وما في نجاحها ربح لنا ولا في خيبتها خسارة . وانما همّ العاقل ان يعنى بأمر نفسه وفي ذلك مندوحة له عن غيره ومشغلة . وأحق الناس بالالتفات الي هذه النصيحة قوم أولعوا بالتطواف فى أنحاء الارض قصد ترقية الامم والشعوب والامم والشعوب اله أرحم بهم من كل مخلوق واملأ بتعليمهم وترقيتهم . وفكرة الجولان هذه من نتائج تصنع القرن السالف وكذبه فليتجنبها أهل هذا القرن . وليكن لهم فى اصلاح شؤون أنفسهم شغل عن القيام بمصالح الغير .

وفى تلك الاحوال وهاتيك الازمان كان يعيش كتابنا الثلاثة جونسون وبارنز وروسو ـ فى أزمان أصفرت الحياة أثناءها من كل أثر للحق والصدق فأما الحقائق القديمة فكانت قد هد ركنها . وخرس لسانها . وأما الجديدة فكانت اجنّة في بطن المستقبل لا جرس لها ولا نبس . ولم يك لاح فى ظلمة الكفر المطلخمة فجر اليقين وصديع الايمان ولم يك نبع فى قفار ذلك الكذب والباطل ينبوع حق كلا ولا الثورة الفرنسوية نفسها التى هي على علاتها نوع من الحق وان كان بعد حقا ملتفعاً برداء من نار جهنم ! وما أبعد ما بين سيرة لوثر ذات الغاية المحدودة وبين سيرة جونسون المحفوفة بالمزاعم والفروض التى عادت لا تقبل ولا تفهم ! لقد وجد محمد أباطيل زمنه مصنوعة من الخشب قابلة للحرق فاحرقها واخلى من عقباتها سبيله . ولكن أباطيل زمن جونسون كانت مما يحرق بالنار . فبقيت في طريقه . وما برح كل قوى من الرجال يجد الحياة ملأى من الاعمال أعنى من المصائب والآلام بما

يستفرغ جهده . فأما ان يظفر المرء مبين الظفر في عصر كعصر جونسون فذلك أصعب الصعائب . فلم يك مصاب جونسون قاصراً على العوائق وفساد النظام والفقر الذى حبس رزقه عند قرشين فى اليوم . بل لقد كان جونسون قد سلب نور روحه . فلا معالم تهديه فى الارض . وأبرح من ذلك ان أصفرت سماؤه من كل نجم ! . فلا غرو انه لم ينل النصر المبين من هؤلاء الثلاثة أحد . وحسبهم ان جاهدوا فأبلوا . ولذلك أقول عرجوا بنا على معاهد اولئك الابطال لا كابطال فازوا وظفروا بل كابطال جاهدوا فصرعوا وقد مهدوا لنا السبيل ـ ثلاثة جبابرة قاتلوا في حرب الكفر والايمان فنسفوا من جبال الباطل ما بات أثراً جسيما على قبورهم . فقفوا بنا على تلك الاجداث فان فيها عبرة وتذكرة .

لقد سبق لى الكتابة عن هؤلاء الابطال قصداً أو عرضاً ولا أراكم ألا عالمين من سيرهم مالا حاجة بنا الى ذكره . وأنما نتكلم عنهم الآن كانبياء ذلك العصر العجيب وان فى الكلام عن حالتهم وحالة عصرهم من تلك الوجهة أى من وجهة انهم أنبياؤه مجال لجملة آراء . وانى أراهم الثلاثة رجالا ذوى صدق يحاولون فى اخلاص أن يبلغوا غاية الصدق ويثبتون أقدامهم في أرسي قواعد الحق فكانت طبائعهم من اكبر البواعث على ميلهم الى سنة الحق اذ كان لهم من عظمة النفس ما لم يستطيعوا معه ان يقيموا على الباطل وقد جعلت سحب الأضاليل والأكاذيب تنهال تحت اقدامهم فلم يكن لهم الا على اديم الارض معتمد والا فلا مستقر لهم ولا مطمأن وقصارى القول انهم كانوا ابناء طبيعة في عصر كلفة وتصنع ـ كانوا رجالا مخلصين فى حين لا اخلاص ولا صدق . وفدوا بنفوسهم الشريفة على هذا العالم وقد طال

عهده بالشرف والمروءة

فأما جونسون فما زلت أراه رجلا من أعاظم رجالنا ـ قوى النفس متين الخلق شريف الطبع مفعم الفؤاد من كوامن الكرم بما عجز عن استثارته جمود العصر الذى عاش فيه ولو صادف من ايام جيله جواً أكثر نوراً وحرارة لانفجر فؤاده بأعذب ينابيع الفضل والكرم ولجاز أن يصبح ملكا جليلا أو اماماً كبيراً أو شاعراً فحلا وعندى بعد وأنه ليس من العقل أن يشكو المرء عصره وقومه ودهره ولا فائدة فى ذلك ولا ثمرة وهبْ عصره عصر خبث فما باله لا يطيبه وجيله ردىء فماله لا يحسنه وكان جونسون في شبابه معسراً رث الحال عاثر الامل منفرداً ولا تحسبوا ان سعة الرزق وفسحة النعمة كانت تجلى عن عيشه سحب الهم لو انها اتفقت له وذلك أنه كان مصاباً بالسوداء والالم الجثمانى والروحانى الناشيء من محاربة نفسه لجيوش الضلال والكفر فكان كما حدّث اليونان في خرافاتهم عن هرقل اله القوة ـ اذ قالوا أنه كان يلبس قميصاً من نار فهو منه فى عذاب أليم . وبلاء مقيم ثم لا سبيل الى نزعه وكيف وانما هو بشرته وجلدته !وعلى هذه الحال كان لا بد ان يعيش يائساً من الخلاص والنجاة

يا ابن بوران لا مفر من الا ه ولا من قضائه المحتوم

وكانى به يمشي بين القوم قد قصر خطوه المرض وتركته الوحشة غريباً فى الاقربين يحمل بين جنبيه فؤاداً ضخماً شرهاً الى المكارم منهوما بالعلي وروحاً غاصاً بخليط مشوش من مبهم الافكار والخواطر يلتهم كل ما يصادف من فائدة دينية وربما قنع من الفوائد الدينية بما قد يعثر عليه من أقوال الكتاب والشعراء وحقا لقد كان سيد أهل زمانه ونابغة قومه الذي

كان يجزيه على تلك العظمة والنبوغ درهمين في كل يوم ولكن ماذا يؤثر ذلك في نفس جبارة لا تنهزم وعزم ماض لا يكل وفؤاد صارم لا يفل ثم لا تنسوا تلك الحكاية المأثورة عنه ـ حكاية الحذاء ـ وذلك أن جونسون كان قد بلي حذاؤه وبصر به بعض الكرماء في نعليه الباليتين فرحمه ثم عمد الى حذاء جديد فاشتراه له ووضعه على باب داره في خفية حتى اذا جاء جونسون ورفع النعلين يحدد اليهما النظر من عينين كليلتين أخذته النخوة وشمخ بأنفه الكبر فرماهما من النافذة ومعاذ الله أن يتدلى البطل العظيم الى مهابط الشحاذة ويسف الى محاط السؤال . وقد يحتمل القر والثلج ولذع الجليد للاخمصين . فأما الشحاذة فلا . فانظروا هدا كم الله أى قوة كانت في ذلك الرجل المعوز البائس وأي اباء وعزة وأى توكل على الله واعتماد على النفس اني أري في جوف هذا الرجل عالماً من القوة والخشونة والبؤس والفاقة ولكنه بؤس أبي عفيف . وفاقة عزوف أنوف . وهذه الحادثه عنوان على حياة الرجل جميعها . نعم لقد كان رجلا حرا جديد الديباجة وليس بأخي باطل خلق الادیم . ولا ذليلا ولا شحاذاً . وأولي بكل ذى مروءة ان يقوم على ما وهبه الله ولو كان الوحل والترب . لا على عطايا الغير ولو كانت الفضة والذهب ! .

ومع ما نرى لجونسون من وعورة الاباء . ومرارة الكبرياء ، وشدة الانفة اكان قط رجل ارق حشاشة وأسلس انقياداً نحو الامر الشريف والمعني المقدس ؟ وقد ما كانت النفوس الكبيرة منجذبات تلقاء ما هو أشرف منها واسنى قوداً نحو كل شيء انبل منها واسمى . وانما صغار النفوس ودقاقها هي التي لا تفعل ذلك . وجونسون في ذلك خير مثال لما ذكرت قبل من ان

اية المخلص انه حسن الطاعة . وانك لا ترى الخضوع والخشوع لمعانى البطولة الا فى عصر كله ابطال . وقد قلت ان جوهر الفضل والكرم ليس في انه جديد مبتدع . فلقد كان جونسون فاضلا وكريماً مع اقامته على قديم الآراء . ووجد فى ذلك القديم حاجته وبغيته . فعاش به عيشة شريف حر وماجد بطل وشأنه فى ذلك غريب لانه مع اقامته على تلك الرسوم القديمة الميتة لم يكن من اهل الاكاذيب والظواهر . وانما اخا حقائق واصول وذلك ان الرسوم القديمة التى اقام عليها كانت تحمل في اجوافها عنصراً من الحق وعجيب والله من هذا الرجل ابصاره اسرار الكون المقدسة وحقيقة الحياة الكبرى فى ذلك العصر الورقي (١) الممحل الجدب المشحون بالكلفة والغش والتصنع . ولا نعلم كيف وفق ما بين مذهبه ومذهب ذلك العصر بل كيف اطردت له عيشة فيه . وحقاً انه لامر جدير بالتأمل المشفوع بالاحترام والرحمة والاجلال . والله أشهد ان من اعجب الامكنة عندي واقدسها تلك الكنيسة — كنيسة سانت كلمنت — التي كان جونسون يعبد الله بها فى زمن فولتير — في زمن الكفر !

وانما عدّ جونسون نبياً لانه كان ينطق عن ضمير الطبيعة وان كان بالاسلوب الاعتيادى المتصنع . او ليس في كل اسلوب شيء من التصنع ؟ وما كل شيء متصنع باكذوبة . بل كل شيء متصنع كان في مبدأ امره حقا وما نسميه بالرسوم المتصنعة والاعتبارات الباطلة لم تك فى اوائل امرها بمنكرات ولكنها كانت صالحة ضرورية . وما الرسوم والاعتبارات الا

---

(١) نسبة الى الورق أعني أن موضوعات الكتابة كانت كلها مادية فهي مثل الورق التي تكتب عليه .

طرق وأساليب وعوائد توجد حيث يوجد الانسان. وانما تتكون الرسوم كما تتكون السبل وتنهج مفضية الى غاية شريفة يؤمها الجم العديد من أخيار الناس . واصلها ان رجلا عالى الهمة شديد الاخلاص يجد السبيل الى فعلة من الفعال — قل مثلا بث شكره لله أو تأدية السلام لرجال من الناس . اقول مثل هذا العمل أو ذاك على ما ترون من صغره هو فى الحقيقة جسيم وانما صغرته فى أنظاركم العادة . وما كان ليوجد في هذا العالم لو لم يقدر له الله مبدعا ومبتكراً هو أول من نطق به وأوجده فهو لذلك بطل وشاعر بما انه قد اعرب عن معنى شريف ما زال يضطرب بفؤاده وبافئدة الآلاف المؤلفة من خلق الله . فهذه طريقته فى التعبير عن ذلك المعنى — هذه آثار خطاه — هذه مبادىء المنهج . ثم يجيء رجل اخر فيترسم آثار الاول وتلك خطة أسهل يترسم آثار الاول مع اصلاح وتصحيح . وتحسين وتنقيح . وكلما زاد ركاب الطريق اتسعت اقطاره وانفسحت نواحيه حتى يؤول منهجاً واضحاً وسبيلا مضروباً يمتطيه كل غاد ورائح . وما دام لذلك الطريق غاية مقصودة . ونهاية محمودة . فهو مألوف للناس مرضي لديهم. حتى اذا ضاعت الغاية هجر الطريق . فالرسوم رعاكم الله تكون فى أوائل أمرها مملوءة بالمعانى الجليلة . ولكم ان تسموها جلوداً وأجساماً تسكنها حقائق حرة صحيحة ولولا ذلك لما وجدت تلك الرسوم . وقد قلنا عن الاصنام نفسها انها لا تكون باطلة حتى تعتورها الشبهة في نظر عابدها ويضعف ايمانه بها . وما أحسب ان كثرة ما تعودناه من ذم الرسوم منسينا قيمة الرسوم الصادقة وفضلها . وانها كانت وسوف تكون الزم ما نحتاجه فى سكنى الدار الدنيا من الفرش والأثاث .

واذكروا أيضاً كيف كان ذلك البطل يحدث أيام صغره باخلاصه اذ لم يكن يشك فى انه من أكثر الناس اخلاصاً ومن اكفئهم للقيام باي جليل من العمل ولقد كان فتى شديد الجد والاجتهاد يستنزل الرزق من شاهق ويستدرّ به صخرة صماء ولو طلبه من غير طريق الحق لاغدق عليه ودرّ ولكنه رجل حق لا يقيم الا عليه ولا مضطرب له من دونه أما ترون في ذلك لزوماً لمنهاج الحق من غير افتخار ولا اعلان لا كمن خط على جبينه بالمداد كلمة « حق » حتى يظل الناس ولا شأن لهم الا التحدث به واطراؤه وكذلك ما برح الفضل زينة من لا يتيه به ويعجب

كان جونسون نبي قومه وكان كلامه لهم انجيلا شأن أمثاله من الابطال واضرابه وكان أنفس ما قال لهم يدور حول موضوع الحزم وما أعظم ذلك الموضوع وأجله فى هذه الدنيا التى قلت فيها معلومات الانسان وكثرت واجباته وكان فحوى ما علمه القوم هو « قبيح بكم أيها الناس ان تغمسوا أنفسكم في غمار الشك وأعماق الكفر في عالم قصرت فيه المدارك وحسرت البصائر وثقلت أعباء الفروض وموازين الحقوق . انكم ان تفعلوا ذلك تلقوا شقوة وبؤساً وتكونوا كالذى تخبطه الشيطان وأنى يكون للملحد الجحود عقل يعمل به ويعيش » هذا هو انجيل جونسون الذي لقنه الناس وعلمه وشفعه بانجيله الآخر الذى فحواه « خلصوا عقولكم من شوائب الرياء ودوسوا على الثلج والجليد فى نعالكم البالية لا في أحذية الغير ذلكم خير لكم (كما كان يقول محمد[١]) وعندى ان هذا انجيل حكيم — أحكم ما تيسر فى هذه الاوقات

---

١ يشير الى الآية القرآنية ذلكم خير لكم او كنتم تعلمون

أما كتابات جونسون فهي وان نفقت سوقها قديماً فقد أصبحت بين أهل هذه العصور بضاعة كاسدة . ولا أنكر ان كثيراً من آراء جونسون قد أصبح اليوم قليل القيمة ولكن أسلوب تفكيره وعيشته سيبقى عالى القيمة جدير الرونق يد الدهر وانى لارى فى كتب جونسون من أبين ايات الفضل وأرجح براهين الحكمة والعقل مالا يدفع ولا يفل وما هو جدير أن يرحب به على علاته مهما كانت لانه كلام حر صريح أريد به أغراض سامية وأمور جليلة أما اسلوبه ففيه جفاء وصلابة — خير ما وفق اليه اذ ذاك — أسلوب ضخم البناء يابس المفاصل كانما يسير الهوينا فى ارجح رزانة ووقار قد أصبح اليوم غير مألوف ولا مستطرف وربما سمعت له طنيناً وجلجلة لا يوازيهما ماضمن من المعني . ولكن هذه كلها مغتفرة فى جانب ما اودع كلام الرجل من الحكم والآيات وانما العبرة بالمعانى دون الالفاظ وبالارواح لا الابدان وكم من اسلوب حلو مونق خلو من المعنى كالقشرة العجيبة النقش لا لب فيها والصدفة المصقولة ولا درة وما كانت أرباب تلك الاساليب الكاذبة الا جناة مجرمين خليق بكل ذى دين ومروءة ان لا يواقع خطيئتهم ويركب سننهم وجدير بكل قارىء ان يتحامى كتبهم ويجتنب أقوالهم : ولو ان جونسون لم يترك لنا الا معجمه (قاموسه) لكان حسبنا دليلا على رجاحة عقله وحدة ذكائه ومن اطلع على وضوح تعريفاته وحدوده ومتانة مبانيه وصحة معانيه وحسن مذهبه كان خليقاً ان نعده أحسن المعاجم جميعها . وانى لانظر اليه فأراه فى جمال تنسيقه وفخامة صنعته كالقصر المشيد متشا كل الاطراف متشابه الجوانب يطرد فيه روح النظام ويجول فى حجرتيه رونق الاتقان والصناعة — ولا تفوتنا كلمة عن صاحب جونسون

وتابعه اللورد بوزويل — ذلك الذى جاوز الحد فى اجلاله وتقديسه لجونسون وقد بالغ الناس فى تفنيده على ذلك وغلوا فى احتقاره واصغاره ورغماً من ان لهم بعض الحق فى ذلك فانهم بعد جائرون وظالمون وعندى ان اجلال بوزويل لجونسون مازال من أجلّ الآثار . وأعجب الاخبار . وماذا أعجب من منظر اجتماع ذينك الرجلين — اللورد الاسكوتلاندى الابله المغرور يدنو حانى الرأس خاشع البصر اجلالا وهيبة نحو الاستاذ الجسيم فى أطماره الرثة التربة وغرفته الحقيرة الخاوية . هذا والله صريح الاجلال لنفس كبيرة وروح شريف وهذه هي عبادة الابطال في زمن أقفر فيه العالم من الابطال والعبادة بل كيف أقفر منهما وقد بلغ أكمل صورة فى هذين الرجلين

ولعل الوجود ماخلا طرفة عين من الابطال وعبادة الابطال . ولا جناح علينا ان ننكر ماقاله القائد الفرنسوى « دي كوندى » من ان الالفة تذهب الاجلال حتى ان البطل الكبير لا يكون بطلا في عين خادم مرقده . وان نرى ان البطولة أشرق من ان تطمس الالفة شمسها . فاذا وجد الخادم الذي لا يري عظمة سيده فالذنب عليه فى ذلك لا على السيد العظيم . ولعل الخادم حسب ان البطولة هي حلة موشاة وتاج واكليل وأبواق تسجع . واذيال ترفع . واذا كانت الحقيقة كذلك فقد كان أولى بالقائد الفرنسوى ان يجعل كلمته هكذا « لا ملك يكون سلطاناً فاخر المظهر فى عين خادم مرقده » ولو عمد انسان الى الملك المهيب لويز الرابع عشر فنزع ثيابه وتركه عريانا اذن لرأيت شخصاً حقيراً لا موضع فيه لاجلال خادمه والخادم الذى يحمل في جوفه روح خادم أى روحاً وضيعة ليس خليقاً ان يفهم بطولة البطل ! وانما يفهم البطل من خالط نفسه جوهر البطولة

أفلا ترون بعد ان اجلال بوزويل لجونسون لم يعد موضعه . وانه ما كان ليجد في بريطانيا نفساً أحق بحنو الهامة وثنى الركبة من تلك النفس الكبيرة . وهل كان جونسون الا رجلا عظيما اركب من عيشته ظهر صعبة شموس فراض جهده من صعوبتها وذلّل من شماسها . وخلق في مضطرب فوضى الاقلام ومختلط فوضى الاديان والسياسات فمهد لنفسه منهجاً واضحاً وسط تلك العناصر المتصادمة المتنافرة . واستطاع على رقة حاله ووهن جسده وغبرته وشعثه ان يستخدم تلك القوى المتضاربة المتلاطمة بما كان فيه نفعه وفائدته . وذلك بهدى الله وبكوكب ارشاد لاح له في سماء عالم الاسرار فوكل به عيناً كالوأ وعقد به لحظا علوقا وجعله قبلة سفينته في بحر الحياة العجاج صافحاً عن كل مغرية ومغوية ومال عن حزب ابليس . ولم يرفع على قلعة الكذب لواءه .

*
* *

اما روسو فلم يبلغ في البطولة الدرجة العليا . وليس بمصيب من اطرأى قسط جونسون ولا نصيب بارنز . وما هو عندي بالرجل القويّ . وانما رجل مريض النفس سريع الانفعال كثير النوبات العصبية . ولم يكن أوتى فضيلة الصمت — واى فضيلة وايكم ومزية قصر عن غايتها معظم الفرنسويين بل معظم اهل هذا العصر . والرجل القوى هو في مذهبي من كتم مصيبته . واخفى عن الناس دخان نيران احشائه . وقد كان يعوز روسو الجلد والصبر على الشدائد . وهما — اول شروط البطولة . وانه لمن الخطأ ان يسمى الناس سرعة الهياج قوة ! والرجل المريض الاعصاب ليس جديرا ان يسمى قويّا وان عجز ستة رجال عن امساكه حين تثور به النوبة الشديدة وانما القوى من استقل بالحمل الفادح ثابت الوطأة قائم الصلب . وخليق بنا

فى هذه الاوقات الكثيرة الصخب العالية الصراخ ان لا نزال نذكر ذلك. والرجل الذى يعييه ان يسكت حتى يحين وقت الكلام والعمل هو رجل عاثر الرأى جائر عن القصد .

وأري فى وجه روسو عنواناً على خلقه . حاجبين مشرفين وعينين غائرتين تجول فيهما حيرة وقلق ويضطرب فيهما نزاع ولهف . ووجه حافل بآيات الشقاء الوضيع ومعني السوقية والحطة — عيوب لا يعوض منها فى ذلك الوجه الا آية الجد الشديد والحدّة الصارمة . وقصارى القول انه وجه رجل متعصب وبطل مشوه. وانما نذكره هنا لان فيه على علاته وهي كثيرة اول صفات البطولة والاخلاص . ولست مخطئا ان قلت انه لم يك قط فى الابطال من هو أشد اخلاصاً منه . حتى لقد كان له من شده الاخلاص ما لا يقوم له طبعه الحاد — الضعيف لولا هذا الاخلاص . — طبعه الذى بلغ به اخيراً من المناقضات المنكرة ما يوشك أن يكون جنونا . بل لقد اصابه بالفعل فى آخر امره صنف من الجنون . وذلك ان افكاره ركبته كما تركب الشياطين الانس وساقته اعنف السوق الى كل قحمة ومهواة !

وكان منشأ عيوب روسو ومصدر شقائه هو ما يعبر عنه بهذه اللفظة المفردة « الاثرة » حب الذات . وهو منشأ كل عيب ومصدر كل شقوة. ولم يرض روسو نفسه على قدع النفس — والنفس طلعة ان لم يزعها الانسان نزعت به الى شر غاية . ولم يشحذ عزيمته لقهر جيوش الاهواء والشهوات وكان قد ملكه جوع خبيث للشهرة وغير الشهرة واخشي انه كان رجلا كثير الغرور والزهو . به غلة الى مدح الناس وتذكرون قصته مع السيدة « جنليز » وذلك انها سارت به الى دار التمثيل بعد ان اشترط عليها ان يخفى

نفسه عن اعين شهود التمثيل ويجلس بحيث لا يراه انسان قائلا « انا لا أود ان يراني الناس هنالك ولو ان لي الدنيا بما فيها » ولكنه اتفق رغماً من ذلك ان ارخى الستر ورأى القوم روسو ولكنهم لم يحفلوا به كثيراً . فاظهر أشد الغضب وقضي ليله آسفاً مكتئباً ولم يفه الا بمر الكلام ومضيض القول. ولم يزل من عقيدة السيدة ان غضب روسو لم يكن لرؤية القوم اياه وانما لقلة احتفالهم به حينما رأوه . واأسفاه على ذلك البطل لقد خالط دمه سم الانانية وتقسم فؤاده الريبة والوحشة والتبرم بالناس والاكتئاب والاطراق والهم. حتى اصبح لا يطيق عشرة انسان . وكان رجل من سادة الريف يتردد اليه ويجالسه فرحا به مسروراً بحديثه مبديا له اصدق آيات الوداد والولاء فجاءه ذات يوم فوجده في اسوأ حال من الغم والاكتئاب بلا سبب ظاهر. وبينما الرجل في حيرة من ذلك المنظر العجيب صاح به روسو وعيناه تلتهبان غضباً « سيدى لا يدر بخلدك انك تستطيع ان تموه عليّ سبب زيارتك هذه فانى اعلم به منك . لقد جئت الآن لتفاجأني وسط مصائبي وآلامي وتنظر اى عيش نكد اكابد واي حال شديدة اقاسي . وكيف احرق واتوجع . وماذا اذوق واتجرع. فليكن ذلك يا سيدى وهاك مرجلي على النار فانظر بها عنوان الفاقة واستمع من ازيزها قصة البؤس . انظر سيدي في تلك القدر هل ترى بها الا رطلا من اللحم وكراثة وثلاث بصلات . وانت بعد ذلك في حل ان تقول ذلك لكل من لقيت ! » فمثل هذا الرجل قد جاوز مصابه كل مصاب وعدا في الشذوذ كل مقدار . واصبحت اعماله تلك نوادر حديث الناس وفكاهات سمرهم يلهون بها ويضحكون منها. وماهى بلهو له ولا ضحك وكذلك رجفات المصارع المتخبط في دمائه وافقه سكرة الموت هي مصيبة

له وعذاب وهي فرحة الجمع الشاهد ولذته .

لا تحسبوا ان رقصي بينكم طرباً   فالطير يرقص مذبوحا من الالم

وبعد كل ذلك فلا يسعنا الا القول بأن روسو هذا قدعمد نحو الحقيقة في عصور الباطل بتلك الكتب التي كتبها — العقد الاجتماعي واشادته بذكر الطبيعة والحياة الهمجية الطبيعية . وكان يؤدى بذلك لقومه رسالة نبي حسب طاقته وطاقة الوقت ؛ ومن العجب انه كان في فؤاد روسو هذا وسط هذه العورات والخسائس والحمق الذى كاد يكون جنوناً جذوة من النور الالهي . وما ذلك الا ان الله قد أثار بعد تقادم عهد من بين ذلك الكفر والجحود والفسوق شعوراً قوياً في فؤاد ذلك الرجل يوحي اليه ان هذه الحياة حق — وانها ليست بكفرية ولا نظرية من النظريات وانما حقيقة عظيمة هائلة . بذلك أوحت اليه الطبيعة وامرته ان يصدع . فصدع فاذا لم يأت قوله محكماً بليغاً فانه جهد المجتهد . بل ان خطاياه وشواذه وسرقته الاقمشة وشروده في الآفاق وبؤسه وشقوته كل هذه آيات الحيرة والدهشة والترنح التي تبهر رجلا ل حمن الامر ما طاقة له به وترك في مجهل طامس الاعلام لا يعرف كيف يهتدى فيه

أما مكانه في الكتابة فمقدور فوق قدره . وعندى ان كتاباته كعقله مريضة . وليست من النوع الذي اسميه صالحاً . وانما يمتاز روسو في كتاباته بتغلب الحيوانية والمادية وتلك هي التي تعينه على تصوير صوره المثقلة بالزخرف الجذاب . ولكنها صور خلاف كرائم الصور الشعرية مما ابدعه عقل شاكسبير او « جيتا » كلا ! ولا كتصويرات « والتر سكوت » . وكل من نظر في بدائع هؤلاء فقهها عرف الفرق بينهما وبين مصنوعات روسو ومن رمي

على منواله ـ عرف الفرق بين الجمال الحر والكاذب . وظل جديراً ان يفرق بين هذا وذاك ماعاش . فانه فرق كالذى بين نور الشمس ونور المراسح الصناعي .

لقد تبينا فى جونسون ماذا يستطيع البطل أن يقدم الى العالم من الخير رغماً من كل ما يحفه من المكاره والآفات . أما فى روسو فلنتبين أى شر وضر وبلاء قد تصحب ما يهديه البطل من النفع والخير . والحقيقة انا لو ننظر الى موقع روسو من التاريخ لرأينا مشهداً جللا ومنظراً هائلا . ولشد ما أساء العالم الى نفسه باساءته الى ذلك البطل وماذا أفادهم ان شردوه وتركوه يأوى من الفاقة الى اسطحة المنازل يحدق به من همومه وأحزانه شر صحابة ويطيف به من العوز والكربة أنحس خليط . شريداً طريداً يلجأ من غار الى كهف كانه الريح الهوجاء حيرى مولهة « حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد » بلى ماذا أفادهم انهم ألحوا عليه بالضر والاذى وهاجوه واوغروه حتى تميز من الغيظ وجن جنونه وحتى جعل يعتقد ان العالم شر والمدنية سوأة وجريمة وان الدنيا أكبر أعدائه وقانونها الظلم وناموسها الجور وأساسها اللؤم . وكان أولى بالعالم أن لا يعادى مثل هذا الرجل ويستنزل عقابه ونقمته فيصبح معه كما قيل

حداك الىّ الحين حتى استثرتنى ... عليك وانى فى عرينى لمخدر

لقد قدر العالم على الجاء ذلك البطل الى الاسطحة وعلى اتخاذه اضحوكة يسخرون منه كما يسخر بالبله والمجانين وعلى اجاعته وتركه يتضور من السغب كالوحش المسجون . فهلاّ قدر العالم على منعه من اضرام الثورة واشعال الارض ناراً تلظي ؛ لقد وجدت الثورة الفرنسوية انجيلها فى كتابات روسو

وقد احدثت اراؤه الشبيهة بالجنون فى آفات المدنية وتفضيله عيشة المتوحشين على عيش المتمدنين جنوناً فاض في انحاء فرنسا وغمرها . ولنا بعد ان نسأل ماذا عسي العالم وملوك العالم ان يبلغوا من ذلك الرجل وماذا يصنعون به هذا سؤال نعي ويعي العالم وتعي ملوك الارض بجوابه . فأما ما يستطيع روسو ان يصنع بالعالم وملوكه فذلك باللاسف واضح بين. يضرب اعناقهم! انتهي كلامنا عن روسو .

كان من أعجب العجائب ان ظهر فى القرن الثامن عشر — قرن الكفر والضعف بين رجاله الذين كانهم تكلف وتصنع كانهم تماثيل الخشب وعرائس الورق بطل كبير فى زى فلاح حقير يحمل الفاس ويسحب المحراث ألا وهو روبرت بارنز الاسكوتلاندى . الذى جاء فى ذلك العصر القفر كالينبوع الشبم الفرات وسط البسابس الملس . أو كالفتقة الزرقاء فى الغيم المتلبد . أو كمنظر السماء وزينتها من خلال سقف القصر المزخرف . اذ كان القوم لا يعرفون من سماء الله ونجومها الا صورها المنقوشة بسقف ذلك القصر أو ما عثلونها به من الاشكال النارية (١) فبينما هم فى وسط تلك الصور والاكاذيب انفرج لهم سقف المكان عن منظر السماء والكواكب فدهشوا وتملكتهم حيرة ولم يدروا ماذا يفهمون من ذلك المشهد وماذا يقولون فيه . وبعد ان طالت بهم الحيرة أجمع رأيهم على ان هذه السماء ونجومها الباهرة ما هى الا من قبيل تلك الصور والاشكال التى اعتادوا رؤيتها جهلا منهم وضلة وعماية وماذا ترجو من أناس ختم الله على قلوبهم فهم لا يبصرون وضرب على آذانهم فهم لا يسمعون . فوااسفاه ! لبئسما

(١) التي يسمونها بالعامية « السواريخ »

لقى به القوم هدية الله اليهم — ذلك البطل الجليل وبئس منزلته بينهم وجواره فيهم . ولا أعلم رجلا لقى من الغبن والوكس . والتعس والنكس . ما لقى روبرت بارنز . فيالله أى جوهرة كريمة نبذت باكناف صحراء . وأى درة مكنونة القيت بكف خرقاء . واي بلبل صداح تقاذفته أيدى الاطفال . وحر كريم تناشبته أظفار السفلة الانذال

اضاعونى وأى فتى اضاعو ليوم كريهة وسداد ثغر

وكان أبوه صانعاً فقيراً وقد حاول جملة أشياء نخاب فيها جميعاً . ومازال من عيشه فى عذاب دائم وبرح مستمر . وقد حدثنا بارنز فقال « كانت ترد على أبى طلبات الغرماء يتقاضون ديونهم فكانت تخب افئدتنا وتستذيب دموعنا — دموع الوالد الكدود المكدود المعنى المعذب وزوجه الجلدة الصبور وصبيتهما وفيهم بارنز . كان لهم الله لقد ضاقت عليهم الارض بما رحبت وحمتهم مشارعها العذبة وهي حل مباح للوراد . ومنعتهم مراتعها الخصبة وهي طلق حلال لكل مرتاد . تأملوا رحمكم الله في قوله « كانت رسائل الغرماء تستذيب دموعنا » أى مشهد حزن ومنظر ألم ! وانى ما زلت أرى في والد بارنز بطلا صامتاً وشاعراً مفحما ما كان ابنه لولاه ليكون ذلكم الشاعر الناطق والبطل الكبير . ومما يدل على فضل ذلك الوالد شهادة معلم ابنه حيث يقول « لقد جئت مدينة لندن وحضرت بها نوادى السراة والاعيان فلا والله ما لذ اذنى كحديث والد بارنز ولا نعمت فيها بمجلس كتلك التى امتعتنى مدة حول مائدة ذلك الصانع المسكين » وقد كان في الحقيقة مسكيناً منغص الحياة مرنق موارد العيش جامد أخلاف الرزق . لم يصادف نجحاً في السبعة الفدادين التي رزقه الله ولا في أي شيء غيرها فكان

بينه وبين الدهر حرب لا تنتهي كان المغلوب فيها أبداً وسوق لا تفض كان الخاسر فيها دائماً ولكنه ثبت في تلك الحرب طول عمره وما كان منه قط حيصة ولا فرة . فياله من كريم باسل أيد الركن ثابت الاس . لا تهيل من جانبيه الحوادث. ولا تخون من قطريه الكوارث والكوارث. حمول يغضي على الاقذاء . ويرد أنفاس الصعداء . وتضيفه النوازل والكرب فيقريها الصمت والسكون وتهم المصائب ان تلتهمه فيلتهمها ويجعل لها من صدره الرحب قبراً لا تنبش دفينته . ولا ترد وديعته .

مفازة صدر لو تطرق لم يكن ليسلكها فرداً سليك المقانب

***

حليم اذا ضاقت بلاد بأهلها يضل الفضاء الرحب في صدره الرحب

ياله من بطل يناضل كتائب الدهر مستوراً عن الاعين لا تسير محاسن ذكره جريدة يومية . ولا تطير روائع خبره أسلاك برقية . ولا تقيد نوادر مجده مصايد الشعر . ولا تطلق غرائب همته شوارد النثر . ولكنه لم يذهب عمله سدى . . ولا شيء في العالم يذهب سدى . نعم لم يضع من هذا ولده ؛ وان يذهب فهذا روبرت بارنز سليله — وسليل عدة أجيال كلها أمثاله .

لقد خرج بارنز الي هذه الدنيا محفوفاً بالمكاره والشدائد بين سوء حال وسوء تعليم وكد ونصب . يختلس النظم من ساعات الكدح اختلاساً ويسترق النظر في كتب الفحول استراقاً ويكتب بلغة ريفية مجهولة الا لاقليم صغير من البلد الذي ولد فيه ولو كتب ما كتب باللغة الانكليزية الشائعة لما شككت في انه كان ينال اجماع الناس على انه من أعاظم رجالنا. وان كان فيما حمل ألوف الناس على معالجة لغته الصعبة واستفتاح اغلاقها عما أودعت

وفض اختامها عما ضمنت . دليل قاطع على ان هنالك جوهراً مكنوناً. وسراً مصوناً . وبعد فقد أحرز اقرار الكثيرين بالفضل واعترافهم بالقدرة والسبق وما تزال دائرة ذكره فى اتساع .وصوت صيته فى ارتفاع .وقد شرع الناس في جميع أنحاء العالم السكسونى حيثما طارت الريح بلفظة انكليزية يدركون ان من خير ما أنجبت التربة البريطانية رجلا فلاحاً اسكوتلاندياً اسمه روبرت بارنز . نعم ولا حرج عليّ ان قلت انى أرى فى بارنز هذا جوهرة كريمة بريطانية أبدى الله صفحتها . وجلا رواءها وبهجتها . على حين لا عهد للناس بالجوهر . — نعم جوهرة هي على لالائها ووقدتها أمتن الاشياء وأصلبها كالحجر الكامن فى أحشاء الارض — كالحجر ولكنه المطوى على آبار الرأفة والرحمة وعلى نيران الذكاء وزلازل الحدة والشهوة . وعلى حلو النغم وطرب الغناء . طبع شريف خشن وسذاجة قوة وعظمة . فيها بوارق الحدة وفيها انداء الرأفة — فهى كاله الرعد « ثور » — اله المزارع والريف !

ولقد حدثني أخو بارنز وهو المستر جلبرت — رجل فاضل عاقل فقال لى ان بارنز كان فى صباه شديد الفرح. مستعذب الحديث جذل الكلام أخا لعب وضحك ومراح شريف الوجدان وفير العقل . وكان يوم هو غلام ينثر الحب ويحصد الزرع أفرح حديثاً وأعذب اشارة وابعث لسرور الجليس بمراحه وجذله وانطلاق فكاهته منه فى سائر أطوار حياته . وهذا كلام جدير بالتصديق . ومراح بارنز الغريزى وجذله الفطرى — ذلك الخلق الذى لا اشبهه الا بشعاع الضحي أو بالزهر الضاحك فى رونق الربيع الجديد — ذلك الخلق ممزوجاً بمرارة جده وحرارة حدته . وذوب رحمته

ورقته . كان من أخلب صفات بارنز . وكان ذلك البطل جم عتاد الامل غزير مادة الرجاء . ولم يكن بالمطرق الحزين . اخي الشكوى والانين . رغما من شدة مصابه . وطول عذابه . وانما كان ينفض الاحزان عن كبده . نفض الغضنفر لؤلؤ الطل عن لبده . وكان كالجواد العتيق يستقبل قعقعة السلاح بقهقهة الصهيل . ويرقص على صدح الابواق وقرع الطبول . ويهز الاعطاف والاوصال . كهز الكماة القنا العسال . ويضرم الشد ايما اضرام . كتضريم المهند الحسام . نيران الموت الزؤام . في الجيش الكثيف اللهام . ولا ارى مرائح بارنز ونشاطه وفرحه وامله الا نتائج ما أوتي من عواطف الحنان والرأفة — أصل كل فضيلة واساس كل مكرمة .

وربما اخذك العجب ان قلت ان بارنز هذا اكبر نوابغ البريطان في القرن الثامن عشر ولكني اوقن انه سيجيء اليوم الذى لا يعجب الناس فيه من قولي هذا . وشعره على ما فيه من قوة وفحولة ما هو الا حفنة طفيفة من كنوز فضله . وثمرة فجة من بستان عقله . وقد قال عنه الاستاذ «ستوارت» كلمة تقال فى كل شاعر ذي قيمة وهى ان شعر بارنز لم يكن ملكة خاصة فيه وانما هو النتيجة العامة لذهن حاد متوقد مطبوع بدا له ان يعبر عن أفكاره بطريقة الشعر . هذا ولقد كان حديث بارنز المرتجل العادى ابدع من شعره وابدع من حديث كل مخلوق . فكان اعجوبة القوم ونادرة العصر وكان

شرك العقول ونزهة ما مثلها ... للمطمئن وعقلة المستوفز

ان طال لم يملل وفي ايجازه ... يهوى المحدث انه لم يوجز

وكان حديثه كسلم الموسيقى قد جمع درج الالحان من اخفض جرس التحية والين عبارة الملاطفة الى ارفع صوت الغضب واشد صيحة الوجد

وفيه ضحك الجذلان . وزفير الولهان . ورنة الثكلان . وايجاز المجتزىء باشارته . واطناب ابن المقفع في يتيميته .

*
* *

وقد شهره الاميرات البارعات الأدب بانه كان يخلبهن بحديثه ويستخفهن حتى يكدن يطرن في الهواء . فهذا والله عجيب . ولكن أعجب منه ما رواه النقادة النابغة المستر لوكهارت من خدمة الفنادق كانوا اذا رقدوا في فرشهم للنوم فسمعوا بارنز يتكلم وثبوا من مضاجعهم فالتفوا به وكلهم اقبال عليه واصغاء لحديثه . خدمة الفنادق ! ومالى اعجب من ذلك ؟ اليسوا رجالا ينصتون الى رجل ؟ ولقد قرأت وسمعت كثيراً في صفة حديث بارنز ولكن اجلّ ما بلغني عن ذلك هو ما حدثني به العام الماضى شيخ مسن كان من أخص اصدقاء بارنز وهو أن بارنز ما فتح فاه قط الا ألقى منه حكمة . قال ذلك الشيخ « وكان بارنز قليل الكلام كثير الصمت فاذا تكلم جلى من غوامض الموضوع واوضح من مشكلاته . » ولا ادرى لماذا يتعرض المرء للكلام في الموضوع اذا لم يفعل كذلك ! وجملة القول اذا نظرنا الى قوة نفس ذلك البطل وفحولته في كل ما نطق وكتب وصنع وشدة صراحته . وسمو همته . وكمال مروءته . ونفاذ بصيرته . ووفرة رجولته . تعذر علينا ان نجد له في القرن الثامن عشر نظيراً .

قد طلبنا فلم نجد لك في السو   دد والمجد والمكارم مثلا

ولكنا اذا اجلنا النظر في عظماء القرن الثامن عشر وجدنا بينهم رجلا فيه مشابه من بارنز — وهذا هو ميرابو . فهما في الجوهر متشابهان وان

---

(١) أعني يقول النسيب وهو الغزل

تباينا زيا وتخالفا ظاهراً . نعم انهما سواء فى قوة البدن وقوة الروح كلاهما غليظ الرقبة شديد الكدنة [1] كبير النفس ضخم الفؤاد . ولكن ميرابو اكثر صخباً واشد دفعة وقلقاً بالفطرة والنشأة والشبه القومى . ومزية ميرابو بعد هي الصدق والعقل ونفاذ الرأى وحدّة الجنان . وكل اقواله جدير ان يحفظ ويمتثل . وما كلمته الا طعنة الرأى في حشا المشكل ولمحة برق اليقين فى دجي الشك .

المعي موفق يهدى الله لدى الخطة العياء العقام
واذا بادهته جلوا بالرأ ى اصاب الصواب بالالهام

*
* *

المعي يرى باول ظن آخر الامر من وراء المغيب

*
* *

وكذلك كان بارنز . وكلاهما كان جياش الصدر بمراجل الاهواء والشهوات طوراً تعصف عصف الجنائب وتارة تخطر مر النسيم . وفى كليهما العارضة والبديهة والمزح والضحك والفكاهة والقلق والنشاط والتوقد والعزم والهمة والصدق والصراحة والجد والاخلاص . فهما من محتد واحد فى الكرم وان تشعبت بهما بعد ذلك الأشكال . ومن جوهر بعينه فى النبل وان تنوعت بعد بهما الاعراض والاحوال . فلو ان بارنز شغل مكان ميرابو فى الحكومة والسياسة لاجاد مثله فى كليهما ولكن شجاعته العتيدة كانت يا للاسف تصرف في اسر مهرّبى البضائع فى خليج سولواى بتلك البحار

---

(١) الكدنة القوة

الشمالية . وفى السكوت عن كثير من المغضبات حيث كان لايجدى الكلام وانما الخنق الاخرس . ولو صادفت تلك الشجاعة موضعها لالجمت اللد الخصام فى المناظرة واستحقت قول القائل

كم حومة للخطاب فرجها والقوم عجم في مثلها خرس
شك حشاها بخطبة عنن كانها منه طعنة خلس

ولبدت تلك الشجاعة لعيون الملأ طرا فى تدبير الدول وتنظيم الممالك واصلاح شؤون العالم . ولكن القوم اعنى الحكومة . قالت لبارنز قول موبخ « لست للتفكير . انما انت للعمل . » فكأنها قالت له ضمناً « لا حاجة بنا الى قوتك المفكرة — اكبر قوى البلاد فى هذا القرن . وانما نريد منك ان تمسح الاراضي . ولسنا لغير ذلك نريدك » حسن والله هذا وجميل! حتى لكان قوة التفكير ليست فى كل آن ومكان اهم ما تحتاجه الدنيا . أو ليس شر الناس هو الرجل الذى لا رأى له ولا تفكير عنده الذى لا يفكر ولا يرى . وانما يتجسس ويعيث ويتخبط ويهذى ويخطىء حقيقة الشيء الذى يزاوله ويظل حائراً مضللا لا خير فيه ولا ثمرة . هـذا هو شر الناس وهو الآفة والبلية . وعسى قائل يقول ما بالك تعلن شكواك وندمك على ذلك ؟ اما تعلم ان ذا القوة قدما ممنوع من مجال اظهار قوته ؟ » نعم وذلك اضر بما نعيه وابرح . واذا كانت الشكوى قليلة الجداء فما ذكر الحقائق بقليلة . ولا يسعني الا القول بأن استغناء العالم الاوربي عن مثل بارنز والثورة الفرنسوية على الابواب لا يدعوني الا الى الحزن والاسف !

وبعد فاهم صفات بارنز الاخلاص وهو أيضاً اكبر مزايا شعره وعيشته وما قصيده الذى يتغني به بمجرد تصورات وتوهمات وانما احساسات

تجيش بخاطره وتثور بوجدانه . وسر ذلك وسر فضله في جميع اركان حياته هو الحق . وحياة بارنز هي ما يمكن ان نسميه رواية محزنة سداها الحق . ولحمتها الاخلاص . الاخلاص المر الوعر ليس القاسي ولكنه اخلاص جرئ ثائر يساور الحقائق ليروضها ويقتادها . ومن ثم تري في جميع الابطال روح التوحش والسطوة .

عبادة الابطال — اودين بارنز ؟ لقد يعزينا عن شقاء اولئك الكتاب الابطال انهم لم يخلو من اجلال بعض الناس اياهم . ولكن أي حالة عجيبة وصل اليها ذلك الاجلال ! اما ان في إزدحام خدمة الفنادق بباب غرفة الجلوس يرهفون الآذان لاستراق كلمة من كلام بارنز لاجلالا منهم لذلك البطل وان كانوا بذلك لا يشعرون . هذا وقد أوتى جونسون في اللورد بوزويل اخشع محترم ومعظم . وسخّر الله لروسو اشراف الدولة وامراء بيت الملك يزورونه في غرفته الحقيرة ويجلون منه رجلا تقاسمته النوائب فشطره للبؤس وشطره للمس والخبل . تناقض وايم الله عجيب وحياة لا يلتئم طرفاها . وينكر اسفلها اعلاها . فبينا هو يجالس العيون والسراة . ويؤاكل الرؤساء والقضاة . اذا هو ينسخ بيده سطور الغناء . لينال من القوت مسكة الذماء (١) . ومن مأثور قوله في هذا الصدد « لقد حملت نفسي بالتغدي في منازل الامراء على خطر الهلاك جوعا في منزلي » وفي ذلك على عاشقيه ومعظميه من العار ما فيه . وعلى كل حال سواء نال الكتاب الابطال حقهم من الاجلال أو لم ينالوا فهم اساتذة العالم يؤدبونه ويحكمونه ويعظونه ومانافذ فيه الا كلمهم لا مرد لها ولا ملغي لحكمها . فعلى الكاتب

---

(١) الرمق .

البطل ان يفكر ويرى وعلى الملأ ان يذعن ويخضع . وعلى الكاتب ان يأمر وعلى العالم ان يصدع . وللعالم بعد ان يختار طريقة الاذعان والطاعة فاما قهراً واما اختياراً . واما حسبة واما اضطراراً . اما صحو خريف فينان الظلال . ناعم الآصال . طيب اردان الصبا . مصقول رونق الضحى . واما سحب صواعق تمطر الحين والبوار . ونكباء تنسف الدور وتقتلع الاشجار . طريقان متعاكسان مفضاهما واحد . وصورتان متباينتان والجوهر فرد . فاما نور مفيد . واما برق مبيد . وليس الامر الهام هو ماذا نسمى البطل وبماذا نعامله . وانما هو أنصدق كلمته ونصدع بأمره أم لا . واذا كانت كلمته صادقة وأمره الحق فسنعتقدها ونعمل بها طوعاً أو قسراً . ان لم يكن بميلنا ورغبتنا فبرغم انوفنا . فأما هيئة استقبالنا اياه ومعاملتنا له فذلك من شؤوننا وراجع الينا . وأما كلمته فتلك رسالة الله الى العالم ولا بد من ان ترغمنا على تصديقها وتستولى على نفوسنا

وآخر أقوالى في هذا المبحث كلمة عن أهم حوادث حياة بارنز اعنى وفدته على ادنبرج . وطالما رأيت انه قد كان فى رباط جأشه هنالك وثبات جنانه أوضح آية على وفرة رجولته ورجاحة فضله . لقد كان في انتقاله من أسفل حضيض البؤس والكرب والخمول الى أشرف ذرى النعمة والهناء والذكر ما هو جدير ان يطير بلب أي امرىء ويذهب بعقل أى انسان . فبينما روبرت بارنز فلاح مسكين قد رزأه النحس اجرته الزهيدة — سبعة جنيهات في العام — فعادت الدنيا فى عينه أضيق من بياض الميم وخرج على وجهه يريد الهجرة الى أمريكا اذا به قد ولج زمرة الاشراف والامراء فأفسحوا له بينهم أكرم مقام وبوأوه صدور المحافل وخاصرته ربات القدود

يسايرنه مزهوات بمسايرته رانيات اليه بأعين الجآذر عاطفات سوالف الآرام وأمالت نحوه الاعناق . وازدحمت فيه العيون فعليه من حدق نطاق . والضراء ثقيلة على كاهل الرجل — ولكن السراء اثقل وفي كل الف من الناهضين بعبء البؤس واحد ينهض بثقل النعمة . ونادر في الناس من له ان تقول

كل بلوت فلا النعماء تبطرني ولا تخشعت من لأوائه جزعا

ولا نعلم في الناس من فوجيء من النعمة بمثل ما فوجيء به بارنز ولا نظن ان رجلا غيره كان يبدى ما أبداه من الرزانة والوقار . فلقد لقى ذلك الحادث الجليل لا حائراً ولا وجلا . ولا هائباً ولا خجلا . ولم يؤت من ذلة ولا استخذاء . ولا من نخوة ولا غلواء . وكان يشعر وسط هذا الجمع الزاهر انه هو روبرت بارنز الفلاح المتواضع وان هذه المرتبة السامية والجاه العريض ليس الا من قبيل النقش في صفحة الدينار لا ينقص من قيمته ولا يزيد . وان الشهرة ما هي الا ضياء يرسل على الرجل فيريك أي رجل هو . ولكنه لا يجمل منه ولا يقبح ولا يشوه من صورته ولا ينقح . غير انه ربما قبح وشوه بما يملأ الرجل كبراً وغروراً ويصعر خده ويصلف جانبه . وبما ينفخه حتى يتصدع فيعود كالاسد الميت خير منه كلب حي . فبارنز في هذا الامر قد برع وفاق . وجاء غرة زهراء في جبهة السبق

ولكن هؤلاء الجماعة — عشاقه المعجبون به — هم كانوا سبب شقوته وموته . هم الذين حرموه لذة العيش وحرموا عليه طيب الحياة ؛ هم كانوا يلتفون به في حقله . ويحولون بينه وبين عمله . لا يقعدهم عنه بعد الدار

---

(١) سوالف جمع سالفة وهي صفحة العنق . الآرام جمع رئم وهو الظبي

ولا شطط المزار

فأضحوا ولو كانت خراسان دونهم　　رأوها مكان السوق أو هي أقربا

لقد أعيي عليه مع صدق الجهد والمحاولة ان يمحو ذكر نفسه من أذهان الجماعة . وكم أراد ان يفصم عروة ما بينه وبينهم فما أفلح . وهكذا تقلب عليه الدهر بالأكدار والمحن والخطايا وادبرت عنه الدنيا وزايله الامن والعافية والغبطة وحسن السمعة . وأصبح الا من الهموم والاشجان منفرداً . وان في ذكراه والله لحزناً وبثا . وفيم كانت زيارات القوم اياه اذا لم يكونوا يقيلون عثرته . ويسدون خصاصته . (١) بلى انه ما من رحمة كانت زيارتهم وانما للهو والتفكهة . وذهبت حياة البطل ضحية ذالك !

قال ريشتار ان في جزيرة « صوماطرا » ضرباً من جسيم الذباب براق الاجنحة يستصبح به سراة القوم فيجعلونه في أطراف العصي كالذبال ويسيرون في ضوءه . وهكذا ينم سراة القوم بامثال النجوم الطوالع والشهب اللوامع . فسلام الاله وريحانه على تلك الذباب ! ولكن — ! —

(١) الخصاصة الفقر

المحاضرة السادسة

﴿ البطل فى صورة ملك ﴾

﴿ كرومويل — نابليون ﴾

(الثورة فى العصور الحديثة)

﴿ الثورة الانكليزية ﴾

نذكر اليوم آخر أشكال البطولة ـ ذاك الذى نسميه الامارة . وأمير الناس وقائدهم الذى عن رأيه يصدرون . ولامره يذعنون . وبه فى جميع الامور يقتدون . واجدبن فى ذلك الخير والفلاح والفائدة لجدير ان يبوأ من ديوان الابطال صدره ويحمل في دولة العظماء اللواء . وانما هو فى الحقيقة جملة البطولة على اختلاف أصنافها وهو الخلاصة والزبدة والعصارة . وقد جمع الله في ذاته سائر ضروب الابطال وليس ذلك على الله بمستنكر .

وقد تعرض هنا مسائل خطيرة ومباحث معضلة يمنعنا من طروقها ضيق المجال . وانما نذكر كلمة شبيهة بكلمة (بيرك) حيث تقول (اسناد القضاء الى نخبة من القضاة يشتركون فى اصدار الاحكام هو روح الحكومة) فكذلك نقول نحن ان خلاصة اعمال المجتمع الانسانى سواء سارت على طريق الخطأ أم على منهج السداد هو الاهتداء الى اعقل رجال بلدك وافضلهم واحزمهم ثم تقليده الحكومة والسلطة واعطاؤه الخضوع والطاعة حتى يستطيع بذلك ان يهدى الناس حسبما يلهمه عقله ويوحي اليه فؤاده

وانما الى ذلك قصدت البرلمانات وخطبها ولوائح الاصلاح والثورات فرنسية وغير فرنسية . اهتد الى اعقل رجال بلدك واكفئهم وارفعه الى المكان الاعلى وبجّله واكبره تحرز لبلادك خير حكومة . وانك ان تفعل هذا فقد بلغت المدى وكل شيء بعد ذلك فضول ولغو . فان اعقل الرجال هو ايضاً اكرمهم وابرهم وارحمهم . وليس فوق نصحه نصح . وقول الامام امام القول . وكل ما يأمرنا به فهو ولا شك احكم والبق واعلى ما نستطيع ان نجده تحت قبة الفلك . وهو ما يجب علينا ان نأتمره ونصدع به مع الحمد والشكر ؛ وتلك الحكومة هي الضالة المنشودة والغاية القصوى

أقول الغاية القصوى والله يعلم ان الغايات تبلغ بالامل . ولا تنال بالفعل . وللاماني جياد سابحات تسبق وفد الرياح يرسلها الفكر في مضمار الوهم فتطير باجنحة الرجاء الى كل غاية ابعد منالاً من الثريا . فاذا طلبت تلك الغاية بافراس العمل فى ميدان الحقائق قامت العقبات . واعترضت النوب والآفات . وسقطت الجياد اثناء المضمار طلّحاً انضاء . حسرى الجهد والاعياء . دامية السنابك من الحفا . مهزولة الاعطاف من الأين والوجي . وكذلك تبقى الغايات منا طعمة المنى سخرة الواقع كالخيال فى المرآة يبيح العين ما يمنع الكف

او كالسماء وكل ما زينت به   وكبعدها وكقربها من لاق

وانا وان استحال علينا ان نبلغ الغايات . فحسبنا ان نأخذ في سمتها أو نقع منها على مسافة ترضي وتسرّ ؛ ولا يفعل أحد من الناس ما نهى عنه الشاعر الالماني (شلر) اذ قال (المرء تلقاء الحوادث ضعيف فلا يقس احد منكم مجهوده النزر القليل بمقياس الكمال) ومن خالف هذا القول كان

مريض العقل بداء السخط مأفون الرأى مصدودا عن الحق . ولكن لا ينس المرء مع ذلك ان تجعل الغاية نصب العين فانه لا تقوم عمود صلاح الدين والدنيا على اساسه ويستقر فى نصابه حتى ينزل الانسان قريباً من الغاية . فاذا لم يتم له ذلك انهارت دعائم الصلاح وتقوض رواقه . ونحن نعلم انه ليس في العالم بناء يمكنه ان يشيد جدارا فيجعله فى اقصى درجة العمودية اي ان يجعل الزوايه الحادثة بينه وبين سطح الارض تسعين درجة بالضبط لا تنقص درجة ولا تزيد درجة كلا ! فهذا مستحيل علميا فكيف باستحالته عملياً ؛ ولكن اذا لم يدن البناء بالجدار من هذه الغاية بعض الدنو فاحر بجداره ان تنهار اركانه . وينهدم جثمانه . نعم اذا استهان بقانون العمودية وطرح مقياسه ومعياره وجعل يراكم الطوب بعضه على بعض بلا نظر ولا حساب كيفما اتفق فاجدر به ان تسوء عقباه ويشقى . فانه قد اغفل امره ونسى نفسه . ولكن قانون التوازن — ناموس الطبيعة — لم ينس ان يسرى عليه وعلى بنائه . وما هى الا برهة حتي يسقط هو وبناؤه فيرتدا كثيبا مشوشاً ومعهداً خربا ! —

وهذا هو اصل كل فتنة وتاريخ كل ثورة وحديث كل انفجار اجتماعي فى الازمان القديمة والحديثة. اجل انما سببها هو انك وليت الرجل العاجز وجعلت غير الكفؤ على رؤوس الاعمال ! — الرجل الخسيس السافل الدنيء الكاذب . ونسيت ان هنالك قانونا او ضرورة طبيعية تستدعى تولية القادر الكفء . وظننت انه لا بأس عليك ان تراكم الطوب بعضه فوق بعض كيفما جاء واتفق بلا قاعدة ولا حساب . والرجل الكاذب اذا وليته كان جديراً أن يتخذ كل كاذب خبيث مثله ومن ثم يروح امر الناس مختل

النظام مبدد الشمل . تأكل جوفه الخيبة ويهدم اركانه الشقاء والبؤس . وترى الملايين من خلق الله قد اضطربت عليهم امور دينهم ودنياهم واسودت في عيونهم ظلمات اللبس والحيرة فهم يمدون الايدى استهداء ولا هادى ولا مرشد . ويبسطون الاكف استعطاء ولا مانح ولا رافد . حينئذ ينفذ قانون التوازن حكمه وتسرى نواميس الطبيعة وهي التي ما غفلت عن العمل طرفة عين . فتثور الملايين ويجن جنونهم . ويسقط البناء والبناء :

ان من يفتش الآن المكاتب العامة والخاصة يلق بها أسفاراً ضخاما . ومؤلفات جساما . تفيض في موضوع (حقوق الملوك المقدسة : ومعناه ان كل ملك مهما كان هو خليفة الله في الارض قد ولاه الملك القدوس زعامة خلقه بعقد مقدس خفيّ فعقدت في رقاب العباد بيعته . ووجبت عليهم طاعته. واستحكمت في نفوسهم مهابته وخشيته .) تلك هي عقيدة القرون الغابرة . ورأى آبائنا الاول. عقيدة دفنت معهم في قبورهم. ورأى بان بينهم. ومذهب عفت رسومه وطمس الدهر أعلامه ومجلدات كالقبور تبلى فيها أفكارها . وتنخر في اجوافها عظام محتوياتها . لا يزورها انسان ولا يعوج بها مخلوق . وباطل لاح في ظلم الجهل ثم محا آيتـه نور اليقين . ودولة زور استقل نجمها ثم خوي . واشمخر طودها ثم هوي. وأكذوبة اديل منها الحق . واني مع ذلك لا أرى من كرم الطبع وشرف الشيمة ان نتبع ذلك الباطل المدبر لعناتنا . ونلحقه اهاجينا وشتائنا . فحسبه هزيمتـه . وكفاه خزيه وفضيحته . بل أرى (ولا يعجب القارىء ولا يرع) أنه لا يحسن بنا ان نترك هـذا الزور والمحال يمضي من غير ان نفتش أجزاءه ونفحص انحاءه وارجاءه . ونقلبه بطناً لظهر علنا نجـد في ثناياه معنى من الحق وان فيه لحقاً يجدر بنا

وبسائر الناس ذكره . أما قول هـذه المؤلفات ان أى انسان تأخذه عينك من بين الناس وتمسكه يدك فتجعل على رأسه صفيحة من الذهب مكللة باليواقوت والزبرجد وتسميه ملكا يرسل الله عليه في الحال شعبة من نوره ويمده بروح من عنده ويعمر فؤاده بأسراره القدسية ويؤهله في التو واللحظة لأن يحكم عليك حسبما تقتضى مشيئته فذلك حمق وخرافة وحسبه منا ان نتركه يبلى ويعفن فى أجواف كتبه أو بعبارة أصدق اجواف قبوره . ولكنى اقول — وهو ما عناه وأراده ارباب مذهب « حقوق الملوك المقدسة » وهو انه يوجد في الملوك وفى جميع العلائق والمسؤوليات والسلطات التي تكون بين الولاة والرعية إما حق مقدس أو منكر شيطاني . لا بد من أحد هذين ! اذ انه من أفحش الخطأ والكذب ما قاله القرن السالف الكافر من ان هذه الدنيا آلة ومكينة . بل ان فى الكون لالها وكل ما يجري بهذا العالم من حكومة وال وطاعة رعية بل كل عمل وحركة لا بد ان يبوء إما برضى وإما بغضب من الله . وأشرف ما يجرى بين الرجل والرجل هو لا شك الحكومة والطاعة . والويل لمن يطلب من طاعة الناس ما لا يستحق . ولمن يأبى ان يؤدى من الطاعة ما أوجبه الله عليه لزعيم أو امير ! بذلك يجرى قانون الله المقدس مهما سنت شرائع البشر ونهجت نواميس الحكومات . نعم ان في كل دعوى يدعيها الرجل على أخيه إما حقاً مقدساً أو منكراً شيطانيا

هذا أمر جدير بالنظر والتدبر . وخليق ان نذكره في جميع شؤوننا ولا سيما في أمر الزعامة والولاء أهم تلك الشؤون . وعندي انه شر من مذهب « حقوق الملوك المقدسة » هو ذاك المذهب القائل ان العالم يدور على محور المصلحة الذاتية وتدبير الثروة وانه لا معنى هنالك مقدساً في تعاشر

الناس وتخالطهم . واني اكرر عليك قولي « انك ان تأتني بالملك القادر الكفء لأجعلن له عليّ حقاً مقدساً. » ولعل دواء ادواء الامم في هذه العصور هو ان يوفقها الله بعض التوفيق الى ايجاد الملك الكفء وان يلهمها طاعته والانقياد اليه اذا وجد ! واني أرى في الملك القادر — هادى الامة في سبيل الاعمال الدنيوية — خليفة الدين كذلك ومعنى القسوسية . فهو أيضاً هادى الامة في سبيل شؤونها الروحانية التي هي مصدر الشؤون الدنيوية فالملك لذلك رئيس الكنيسة أيضاً . ولندع بعد مذهب « حقوق الملوك المقدسة » يبلى في اجواف مؤلفاته أو قبوره لا نوقظ صداه ولا نستثير هامته

وحقاً ان التماس الرجل الكفء والحيرة في ذلك لمن اشق الامور وأجسمها ! وتلك هي آفة الامم في هذه العصور والازمة الحرجة . هذه أوقات ثورات . واني أرى بناة شؤون الدنيا قد اطرحوا المقاييس والمعايير وأغفلوا قانون التوازن فانهار البناء بهم فاذا هم والبناء خليط انقاض مشوش: وليست الثورة الفرنسية هي مبدأ هذا التهدم والسقوط بل لعلها الغاية والنهاية ولا نخطيء اذا قلنا ان المبدأ كان منذ ثلاثة قرون أي منذ نهضة لوثر . وكان داء العالم اذ ذاك تحول كنيسة الله اكذوبة ووقاحتها وصفاقة وجهها اذ تدعى لنفسها القدرة على غفران ذنوب العباد بالدرهم والدينار . وكان هذا مرضاً في الدين — داء في الروح والجوهر . ومتى ادوى الجوهر واعتل الروح فاجدر بالجسم والظاهر ان يفسد ويدوى — ثم تزداد فساداً ومرضاً . لقد كان الايمان قد فني وباد . وفاض الشك وتفشي الجحود والالحاد . وطرح البناء معياره ومقياسه وقال لنفسه « أي قيمة لقانون التوازن وأي فضل في الحساب والنظام . ضع الحجر على أخيه كيفما جاء واتفق ولا يعنيك ان تجسم

النفس مراعاة قانون أو حساب ! » وكانت العاقبة يا للاسف كما تعلمون ! —

وانى لأتبين اتصالا طبيعياً والتئاماً تاريخياً ما بين مقالة لوثر اذ قال للبابا « انت ايها الملقب نفسه « البابا » افكا وزوراً ما انت بأب فى الدين ولا والد لنا فى الله . انما انت اكذوبة يعجز اللسان ان يجد بين الالفاظ المهذبة الرقيقة ما يليق بنعتك وصفتك ! » وبين صيحة الثورة الفرنسوية اذ علا بها ضجيج الثوار فى قصر الامارة يصيحون « الى السلاح ! الى السلاح ! » . ولا يحسب الحاسبون ان هذه الصيحة المزعجة الجهنمية كانت شيئاً حقيراً أو باطلا ! كلا انما كانت صوت الامم النائمة هبت من رقاد كاد يخنقها اثناءه الكابوس — نعم صوت الامم هبت من حالة بين الرقاد والموت . فبدأت تشعر ان الحياة شيء حق . وان عالم الله ليس بمكينة تساس بالدهاء والمكر وتدبر بعلوم الاقتصاد والرياضة . نعم لقد هبت فارسلت صيحة جهنمية — وانما اتت جهنمية لأن طغاة الملوك وعتاة الحكام ابو الا ان تكون كذلك . لقد هبت الامم وقالت لا بد للاباطيل والاضاليل ان تنتهى ويخلفها نوع من الاخلاص كيفما كان . ولا بد لنا من عودة الى الحق ولو جرت علينا اهوال ثورة فرنسية وجلبت على رؤوسنا شر الفظائع واشنع البلاء . هذه هى الثورة الفرنسوية — هي كما ترون حق ولكنه حق ملتفع فى شواظ الجحيم ولظى جهنم ! —

وكان قد ذاع لدي جماعات كثيرة من اهالي انكلترا ان الامة الفرنسوية كانت فى تلك الاوقات (اوقات الثورة) قد جنت . وان الثورة الفرنسوية كانت صنفاً من الجنون تحولت فرنسا وفرق عظيمة من سكان المعمورة اثناءه مارستانا . ذلك كان رأى العدد العديد من الانكليز

وفلاسفتهم ان الثورة كانت حريق جنون شب ثم خمد واصبح الآن في عالم الاحكام والاوهام والقصص والعجائب . والنوادر والغرائب ! فليت شعري كيف كان وقع الثورة الثانيـة — ثورة ١٨٣٠ في نفوس هؤلاء الفلاسفة الذين حسبوا ان الثورة الاولى كانت فلتة جنون وبيضة الديك وان حديثها أصبح كحديث الخرافات لا يكاد يصدق ؟ ماذا كان شعورهم حينما رأوا فرنسا قد ثارت ثانيا الى السلاح تكافح كفاح المستميت تذبح وتذبح . وكل ذلك لتؤيد الثورة الاولى وتحفظ آثارها ونتائجها . ثم ان أبنـاء رجال الثورة الفرنسوية وأحفادهم يبررون عمل ابائهم وأجدادهم ويأبون الا تمسكا به واصراراً عليـه . هم لا يبرأون منه الى الله . بل يعملون على حفظ اثره . واستنتاج ثمره . باذلين الدماء والارواح في سبيل ذلك . ولعل في هـذا الحـادث (حادث الثورة الثانية) اكبر مصاب لاولئك الفلاسفة الذين اسسوا مبدأهم وشادوا مذهبهم على أن الثورة الفرنسوية فلتة جنون تبرأ منها فرنسا ولا يعود بها الزمن أبدا . ثم ان في ذلك الحادث نكبة لاولئك الفلاسفة حتي لقد ذاب قلب الاستاذ المؤرخ الالماني « نيبور » كمداً وتقطعت نفسه حسرة لما بلغه نبأ هذا الحادث . ثم إعتلّ على اثر ذلك وقضي نحبه قتيلا بداء الايام الثلاثة (هو اسم ثورة ١٨٣٠) وما هكذا تموت الرجال ! ولست أشبه هذه الموتة الا بموتة الشاعر الفرنسي الكبير (راسين) الذى قتله ان لويز الرابع عشر تجهمه (١) مرة ورمقـه شزرا . فياليت الاسـتاذ الالمانى علـم أن الـكرة الارضية صلبة جلدة وانهـا طالما تحملت صدمات الدهر وضربات القضـاء وانه ليس من البعيد ان تعيش وتبقي وترى دائرة

---

(١) عبس في وجهه سخطا .

تحول محورها بعد ثورة (الايام الثلاثة) ! ولقد جاءت تلك الثورة الثانية لتعلم الناس جميعا ان الثورة الفرنسوية لم تكن قط فلتة جنون ولكنها ثمرة حرة من ثمار هذا العالم — عالم الله . وانها كانت حقاً يحسن بكل انسان ان يعده حقاً لا باطلا ولا جنونا ! الى هنا

وحقاً انه لولا الثورة الفرنسوية لاشكل علينا ماذا نصنع بعصر مثل ذلك العصر الملعون ولعميت علينا وجوه الرشد واستبهمت معالم القصد وكنا لامحالة هالكين . وانا لنرحب بالثورة الفرنسية ترحاب المشرفين على الغرق بالصخرة العبوس . وهل كانت الثورة الفرنسوية الا كذلك أو وحياً صادقا ورسالة حقا وان راعت القلوب وأزعجت الخواطر في عصر تصنع وكذب — رسالة تنبيء ان للكون سرا فان لم يكن الهيا فهو اذن شيطاني . ولكنه سر على أية حال . وان التصنع والغش ليس بحق . وانه لابد ان يحول حقا . والا اشتغل العالم تحت مايستره من أثواب الغش واللؤم والباطل فاحرقها وليت شعري اذا احترقت فصارت « لاشيء » أفهل كانت قبل ذلك الا « لاشيء » نعم بالثورة الفرنسوية انتهي التصنع والغش والباطل الا جوف الفارغ وانتهي شر كثير وفساد جم . والثورة الفرنسوية رسالة الله الى الارض صدع بها صوت من الرعد او صرخت بها نفخة اسرافيل في الصور يوم القيامة ! فمن اسرع الى اعتقاده اصاب خيرا وحمد العقبى . ثم لاطمأنينة ولا صفاء ولا أمن ولا سلام أو تعرف هذه الرسالة حق اليقين ! وقد كان الرجل وسط هذه الاباطيل والاكاذيب والاضاليل جديرا ان يصبر وينتظر — جديرا ان يمضي في شأنه ويعنى بعمله . ويعلم ان القلم العلوي قد جري بحكم الهلاك والموت على هذه الموبقات والشرور وان هذا الحكم

الصارم قد كتب اليوم فى الارض بعد ان صدر في السماء . لقد كان الرجل المخلص جديرا ان يري ذلك . فيغتبط ويصبر وينتظر . ثم هو من وجهة اخرى اذا أبصر ما قد وقع فيه العالم من الازمات والشدائد وصيحاته المتوالية يطلب انفراج الازم وتراخي الخناق كان جديرا ان ينصرف بحكم هـذه الضرورة عن شأنه وعمله الى شؤون أخرى لاسيما وقد نال السيل الزبى وبلغت الروح التراقي ! وعندى ان انفس الحقائق في مثل هذه الحوادث (حوادث الثورة) هى حقيقة « عبادة الابطال » فانها أجمل العزاء واحسن السلوة فى هـذه الاوقات وأملنا الوحيد فى سياسة الدنيا وتدبيرها . ولو ان الثورة هـدمت جميع التقاليد والنظامات والعقائد والمذاهب والملل والنحل لسلمت لنا هـذه الحقيقة . فان ثقتنا بان الله مرسل لنا الابطال . وما جبلنا عليه من اجلالهم حينما يرسلون الينا — هذه والله نعمة تشرق علينا كنجم هداية وسط غياهب الدخان وغياهب النقع ووسط كل انهدام وانفجار .

ولو انك اسمعت ثوار الثورة الفرنسية كلمة « أجلال الابطال » لوقعت منهم موقع التكذيب والانكار ولارخوا دونها حجب الآذان وقالوا حديث خرافة . فقد كان هؤلاء المجاهدون فضلا عن عدم احترامهم الابطال لا يصدقون بوجود الابطال بل لا يودون ان يجيء الزمن ببطل قط ! وكأنهم ظنوا ان الكون بعد ان تحول مكينة وهن وبلى حتي ضعف عن اخراج الابطال وعقم صلبه منهم . واذا صح ان الكون قد أصبح كذلك فانى قائل له أولى لك ان تكف بالمرة عن اخراج الرجال . فانا لا نقبل بضاعة ليس فيها التحف والنفائس ولا نرضى بانسجة ليس فيها الخز والديباج او بالاختصار لاغنى لنا عن الابطال . اما مذهب « الحرية والمساواة » فقد كان

من نتائج تلك الاحوال وكان اذ ذاك شيئا طبيعيا فلذلك لا يجمل بي ان أرد عليه . ومعنى « الحرية والمساواة » هو هذا « بما انه قد استحال وجود العظماء والابطال فالعالم الآن ان يستغني عن هؤلاء الافذاذ النوادر بالجماهير العديدة المتساوية في ضؤولة القدر وخسة القيمة وخفة الاحلام وعجز الآراء . »
ماذا أقول في هذا المذهب وبماذا اقابله الا بعذر اربابه والسكوت عنه كحقيقة كان لابد منها اذ ذاك ولا مفر. ذهب أرباب ذلك المبدأ الى ان الناس احرار متساوون وانه ليس لرجل ان يسود ويقود ويتسلط . وحجتهم على ذلك ان عبادة الابطال واحترام المساطين والزعماء والقادة قد ظهر فسادهما وما هما الا كذب وباطل . فحسبنا منهم ما كان . لقد خدعنا من هذا الطريق مرارا حتى فنيت الثقة به . وطال تصديقنا حتى لا نصدق . واذا كثر مجال النقود الزائفة في الاسواق كذب الناس بوجود الذهب الصراح وانه قد تصلح الامور وتستقيم الحال بلا ذهب . انا لا آخذ القوم بهذه الآراء بل اعذرهم عليها . وأرى انها كانت ثمرة ذلك العصر الطبيعية وان كانت صابا وعلقما .

وبعد فليس هذا المذهب الا تحولا وانتقالا من الباطل الى الحق وليس هو بالحق . فاذا رؤي (١) انه الحق بأكمله فهو اذن باطل محض — نتيجة الشك الاعمى يحاول ان يكشف عماه ليبصر . فان عبادة الابطال موجودة في كل زمان ومكان . وما هي قاصرة على اجلال الملوك والسادة . والسواس والقادة . بل انها لتمتد من عبادة الله الى احط مواطن الحياة العملية وانحناء الرجل لاخيه بالسلام مالم يكن خديعة وملقا فهو من قبيل عبادة الابطال

(١) رؤي فعل ماض مبني للمجهول والضمير عائد على المذهب

واعتراف بان في كل انسان خلقه الله روحا من الخالق . وان كل امرىء مظهر لجلال الله . وعندي ان الذين ابدعوا اشارات التحية ودلائل الملاطفة والاحتفاء التي تجمل الحياة وتزينها هم شعراء ! وآداب المقابلة والمعاشرة ليست بكذب ولا باطل . والولاء — والاجلال المفرط المشرف على العبادة لا يزال يمن الممكنات بل من المحتمات .

واني أقول انه وان رأينا كثيرا من أبطال العصور الاخيرة قد ظهروا في الثورات وكانوا ثوارا فانهم بفطرة الله ابناء نظام لا ثورة . واشتغالهم بالثورة بلية عليهم ومصيبة اذ يرى أحدهم في الفتنة وكأنه فوضوي . وما هو بفوضوي ولا كانت الفوضي قط من شأنه . ولكن جوا من الفوضى يحيط به وعقبات منها لا تزال تعتاقه وتعرقل مسعاه . وهو عدو الفوضى وخصمها . وانما النظام عمله ووظيفته بل وظيفة كل انسان . وما خلق الله الانسان الا ليصلح الفاسد ويلم الشعث ويعمد الى الشيء المختلط فيصبه في ابدع قالب من النظام . ويلقيه في اكمل صورة من التنسيق والاحكام . والانسان رسول النظام . اوليس كل ما يصنع المرء في هذه الدنيا هو تنسيقا وتنظيما فالنجار يعمد الي الشجر الغليظ الاشعث فينعم نحته وتمليسه ويحسن تقديره وتصويره . ويجيد خرطه وصقله . ويلقيه في اعجب القوالب والصور ويتركه ذا نفع للناس ووظيفة في المجتمع ؟ وقد خلقنا الله جميعا اعداء الفساد والفوضي وانه لمن البلية علينا جميعا وسوء الحظ ان نصرف عن التنسيق والتنظيم . الى التقويض والتحطيم . وسوء الحظ في ذلك والبلية مضاعفة على الرجل العظيم الذي يكون حبه للنظام على قدر عظمته .

وكذلك نري ان اشد اعمال الثورة الفرنسوية جنونا كانت تسير نحو

النظام أقول وليس رجل من اولئك الثوار قد طار فى دماغه جنون الخنق والفتك الا وهو مدفوع في كل حركاته نحو النظام منجذب اليه . وكيف وما حياته نفسها الا مسيرة نحو النظام بل لهي النظام ذاته · اذ ان الفوضى هى الفساد هى الموت . وما من فوضي تثور الا ويجعل الله لها قطبا تدور عليه فتتحول بفضله نظاما . وما دام الانسان انسانا فسيكون للثورة رجل كنابليون او كرمويل تختم به وتتم . عجبا والله كيف تكون عبادة الابطال فى ازمان الثورة ضربا من المحال فى عقيدة الشعب الثائر ثم لا تلبث ان تبدو للعيان فلا يستطيع أحد انكارها . وارى « الحق المقدس » معناه على وجه العموم « القوة المقدسة » فاذا حسبت الامارة والسلطة فى عصور الثورة امحت وماتت اذا بها قد عادت اليك في شخص نابليون او كرمويل وانما هي المظاهر الكاذبة والقشور قد هتكت واتلفت وظهرت الحقائق والجواهر من ورائها صحيحة خالدة . وتاريخ نابليون وكروموبل هو ما سننظر فيه الآن ان شاء الله . وهو آخر اصناف البطولة كما قسمنا . وانى ارى فى تاريخ هذين البطلين ما يعيد الينا عهد الملوك في طفولة الامم اذ يرينا كيف كانت تنشا الامارة فجر تاريخ العالم وكيف كانت تولي الملوك يومئذ

انتهى الجزء الاول والثانى

ويبتدىء الجزء الثالث بتاريخ الثورة الانكليزية ثم بتاريخ كروموبل ونابليون كنوبارت وتاريخ الثورة الانكليزية موضوع شائق ساحر وقد عربناه مفصلا عن كتب اخرى غير الابطال لان كارليل انما يخاطب من سبق له علم بها



البيان

مجلة تبحث في الادب والتاريخ والفلسفة والاخلاق والتربية والاجتماع ونوابغ العالم والنقد والروايات والصحة وتدبير المنزل وتعنى بنشر آثار الغرب وآثار العرب وتضرب بسهم في كل فن ومطلب لصاحبها

عبد الرحمن البرقوقي

يحررها الشيخ عبدالرحمن البرقوقي ومحمد أفندي السباعي عدد صحائفها ٨٠ صحيفة وتظهر آخر كل شهر عربي وقيمة اشتراكها في السنة ٥٠ قرشا مصريا وللاساتذة وطلبة المدارس ٣٠ قرشا والى القارئين قطعة من مقدمة المجلة تريهم خطتها

أما بعد فان عتاد كل أمر وأساسه بحسب ما يكون من قوامه ومادته وان لكل أمر بلاغا يؤخذ به ويتلقى من ناحيته وان من عزم الامور أن يكون المرء قد تقدم نظره في جهات مايعتزم ، وطال تأمله في تصاريف مايقتحم ، حتى لا ينتشر عليه الامر اذا هو لجج فيه ولا يكون في وعره ظل نفسه حين كان في سهله ، وحتى لايخرج عمله وليس فيه من أنفاس الحياة الا ماينسم به كما ينسم المشرف على الموت

ونحن أعزك الله نقدم بين يدى نجوانا فيما ننصب له من هذا العمل أنا اتخذنا من أنبوبة القلم ما يتخذ المنجم من (تلسكوبه) فمددنا النظر الى المدى البعيد ، وطرحناه من الحقيقة مطرحا يظهر فيه العالم كانه قديم وكانه جديد ، ومن ثم راقبنا الحوادث في مدار أفلاكها ، ورأيناتهافت شياطينها من رجوم أملاكها ، فلبثنا زمانا طويلا نخاطب الحقائق بالصمت ونسمع منها بالنظر وننقل الى النفس « بزجاجة » العين نوادر تلك الصور الزمنية التى لاتكاد تظهر للحكيم حتى تنطفىء في سحاب الغيب أشباحها فلما استتمت لنا فراسة الحق غير فائلة ، واعتدلت أسباب النظر غير مائلة ، وثقلت موازين الرأى غير شائلة ، رأينا بلاغ أمرنا قد تهيأ وعموده قد استقل وأصبنا من العصر نهضة قد جم بالادب جمامها ، وأرخى للسبق في يد العقل زمامها ، ورأينا جوا بعيد الآفاق تطير فيه الافكار بأجنحة الاوراق ! وأرضا خصيبة من الرأى جادتها سحائب الالهام ! فأنبتت ثمرات العقول في غصون الاقلام

عند ذلك أيقنا انه قد استدارت جهة من الزمان : وقلنا لقد برح الخفاء فهذا موضع « البيان »

في ذات يوم من أيام سنة ١٩٠٤ ميلادية كنت بحضرة أستاذي شيخ الحكماء وعمدة العلماء الامام المرحوم الشيخ محمد عبده رضي الله عنه وقد كنت قبله طوال المدة التي « تزهرت » فيها على عمياء من امرىء لا أعرف للعلم معنى الا أنه في الكتب ولا أفقه له غاية الا نقل ما في هذه الكتب من الخزائن الخشبية الى الخزائن العظيمة « الرؤس » كما ينقل المتاع والزخرف بنوع من الحرص والعناية فما زال الامام رحمه الله يخلص من نفسي و يصقل من أطرافها و يرهف من حواشيها حتى أطلعها من تلك الظلماء : مطلع الكوكب في السماء : وجلاها مجلى الدرة اذا خرجت من أعماق الماء فان شخص الاستاذ لم يكن الا مدرسة لمن يحسن أن يدرس اشاراته و يتبين ملامحه و يستوضح شمائله و يلقن ألفاظه و يقرأ صحائف أعماله و بالجملة لمن يحسن أن ينظر فيه تلك النظرات المستطيلة التي خلقت في أعين الفلاسفة والشعراء

وآنست ارتياحا من الامام في تلك الساعة فقلت لافضين اليه بجملة مالبستني حيرته فان الله يخلق من ساعات هذا الحكيم أعمارا طوالا لجلائل الاعمال وكأنه استشف ما في نفسي فما لبث ان ابتسم تلك الابتسامة التي يغمر جمالها الروح الذابلة كما يغمر نور الفجر هذه الحياة النائمة ثم استتبع فقال مابك ؟

قلت مسائل ثلاث غاب عني مقطع الحق فيها : كيف يكتب العالم وكيف يكتب الصحفي وكيف يكتب الاديب وما هي مفاصل الحدود بين الثلاث

فنظر الي رحمه الله نظرته التي تنفذ الى أعماق النفس فتكشف جوانبها وتتصفح جهاتها وتقابل فيها بين معاقد الامل ومقاصده وقال أراك تمهد لغرض وان وراء لفظك القلق لمعنى مطمئنا و يخيل الي أن لك هوى في مزاولة الصحافة

قلت هو ذاك يامولاي وما بي أن أعلم الا ما أعمل والا فأين أقع من أدبك اذن ؟

قال : فاعلم أن الحقائق النفسية مطلقة لاقيد لها وأن الحد لا يثبت على الحقيقة بتمامها وهي معنى الكمال الا اذا كان للكمال المطلق حد محدود . وانما تؤتى هذه الحقائق من جهة العرف وتنتقص في مواضعات الناس وانت خبير بأن مجرى العرف في أمة من الامم لا يكون الا بحسب ما في مجموعها العقلي من القوة او الضعف . فقد اصطلحنا في بلادنا على أن من يحفظ كتابا أو يقرأ درسا أو يحرر مسئلة يسمى عالما ثم توسعنا في ذلك حتى صار من يحمل كتابا او درسا في (ملزمة) من كتاب أو مسئلة من درس يسمى عالماً أيضاً .

وتواطأنا على ان من ينشىء صحيفة وان كتبها غيره وكان هو وصحبه كل قرائها سميناه صحفياً ثم غلونا فى ذلك حتى صار كل من يقرأ صحيفة يرى من هو ان الحرفة عليه ان ان أيسر الاشياء عملا ان يكون صاحب تلك الصحيفة او كصاحبها

وتواضعنا من قديم على أن من يحفظ قطعة من اللغة نظمها ونثرها سميناه أديبا ؛ وان كان يرى الامم الحية بعينيه وهو نفسه كبعض الموتى لا أثر له فى قومه ولا فى لغته. ثم بالغنا فى ذلك حتى صار كل من يحصل على شذرة من ذينك المعدنين النفيسين وان كانت سرقة سميناه أديبا أيضا

واصطلح غيرنا ممن فهموا معنى الحياة ولم يقدسوا الموت تقديس الزهاد -- والامة اذا أفرطت فى واجبات الموت فرطت فى اغراض الحياة ــ اصطلحوا على أن من قام به فنّ من الفنون فهو العالم ومن تعلقت بقلمه مصلحة الامة فهو الصحفى ومن كان لامته فى مواهب قلمه لقب من ألقاب التاريخ فهو الاديب

وليست الصحافة عندنا باحوج الى الحقيقة الصحفية عند غيرنا منها الى حقيقة العلم والى حقيقة الادب فان أردت أن تصحح معنى العرف وتصلح خطأ الاصطلاح ورغبت فى أن تكون بحقّ أحد الثلاثة فكن الثلاثة جميعا الخ الخ

تلك نشأة (البيان) وضع الامام فى الصحافة خطته ، ونهج لى فى العلم والادب طريقته ، والنية فيه ان شاء الله ان يكون كما قال « تصحيحا لمعنى العروف واصلاحا لخطأ الاصطلاح » فلا يبتذل العلم فى الاساليب السوقية ولا يعفى من الادب على مايخيل الجامدون من متلصصى الكتاب والشعراء ولا يكون من وكد صاحبه الا أن يجعله للامة لقبا من أرفع ألقاب التاريخ فهو محك لمعدن الكلام ، وميزان لجواهر الاقلام ، ومعرض لصور الافكار ، ومتحف لروائع الآثار ، وقد اعتزمت فى ابتغاء الوسيلة الى ذلك أن أنصب منه منبرا يعتلى ذؤابته أساطين البيان ، وأفسح من جهاته مضمارا تستبق فيه جياد القرائح الى الرهان ، ولم أقدم على هذا العمل الا بعد أن انتبلت نبله ، وماددت حبله ، وأخذت له عدنه ، واستوفيت كما قدمت مدته

فان رأيت من قراء العربيه ومحبى الآداب تنشيطا ومسـ ـة فذلك ظنى بهم وأنهم لاحق به وأهله والا فلو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على ان اترك هذا الامر قبل أن يأخذ الله بيدى او اهلك دونه ماتركته

اغشى الخطوب فاما جئن مأربتى فيما أسير أو أحسن تأويبى

عبد الرحمن البرقوقى